جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

السجع القرآنى - دراسة أسلوبية

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير

إعداد: هدى عطية عبد الغفّار

إشراف
أ.د. محمد عبد المطلب أ.د. عاطف جودة نصر

٢٠٠١

أعضـــــاء اللجنة

(١) أ.د عاطف جوده نصر

(٢) أ.د محمد عبد المطلب

(٣) أ.د محمد السيد العبد

رئيس اللجنة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى روح أبى. . .

إلى أمـــــى. . .

إلى النور الذى يضىء وجهى كل صباح. . . والحضن الذى يحوّل الحياة

إلى دفء دائم زوجى وابنتى

شكر وتقدير

أتقدم بخالص شكرى وتقديرى لأستاذى الفاضل **الأستاذ الدكتور محمد عبد المطلب**، على جهوده التى بذلها معى طوال فترة إعداد هذه الرسالة، وعلى توجيهاته ونصائحه القيّمة التى أسداها لى، وتبصيرى بأمور ينبغى مراعاتها آخذا بيدى إلى بر آمن؛ إذ لم يبخل علىّ بعلمه، ومد يد العون لى، فله منى كل شكر وتقدير وعظيم الامتنان.

وأتوجه بخالص شكرى لأستاذى الجليل **الأستاذ الدكتور عاطف جودة نصر** الذى أعاننى بعلمه الوافر، ومساندة الأب العطوف فلم يتوان لحظة عن تقديم العون والمساعدة لى كلما تعثرت بى الخطى، فهذا البحث مدين لأستاذى، فله منى كل حب واحترام وعرفان. نفعنى الله بعلمه، وجزاه عنى خير الجزاء.

كما أتوجه بخالص الشكر وعظيم التقدير للعالمين الجليلين: **الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد، والأستاذ الدكتور محمد السيد سليمان العبد**، اللذين تفضلا على هذا البحث بقبول قراءته ومناقشته وتقويمه. نفعنى الله بعلمهما وجزاهما عنى خير الجزاء. ولا شك فى أننى سأفيد من ملاحظاتهما وتوجيهاتهما، آملة أن يخرج البحث فى صورة مرضية، وأن تتعلم الباحثة ما يقيها مستقبلا من مواطن الزلل.

ولا يفوتنى أن أتقدم بالشكر إلى الأستاذ: بركات رياض، والأستاذة فاطمة عبد التواب والأستاذ ياسر الشرقاوى؛ لما بذلوه من جهد فى مراجعة هذا البحث، كما أشكر الدكتور أحمد جمال على تفضله بمراجعة الملخص الإنجليزى للبحث، وعظيم امتنانى للدكتور طارق شلبى الذى أسدى لى كل معونة ممكنة. شكر وعرفان إلى كل من أسهم فى إنجاز هذا البحث وهيأ له سبيل النجاح.

جامعة عين شمس
كلية الآداب

عنوان الرسالـــــــة: السجع القرآنى - دراسة أسلوبية

اســــــــم الطالـــبة: هدى عطية عبد الغفار

الدرجة العلميـــــــة: الماجستير

القسم التابع لـــــــه: قسم اللغة العربية وآدابها

اسم الكليـــــــــة: الآداب.

الجامعـــــــــــة: عين شمس

سنة التخـــــــرج: ١٩٩٣

سنة المنـــــــح: ٢٠٠

جامعة عين شمس
كلية الآداب
إدارة الدراسات العليا

رسالة ماجستيـــــــــــر

اســـــم الطـــالبة: هدى عطية عبد الغفار

عنوان الرسالــــــــــة: السجع القرآنى - دراسة أسلوبية

اسم الدرجـــــــــــــة: ماجستير

لجنة الإشـــراف

١- الاسم/ ا.د. محمد عبد المطلب
٢- الوظيفة/ أستاذ البلاغة والنقد - قسم اللغـــة العربـــية - كلية الآداب - جامعة عين شمس.

١- الاسم/ ا.د. عاطف جودة نصر
٢- الوظيفة/ أستاذ الأدب والنقد - قسم اللغـــة العربـــية - كلية الآداب - جامعة عين شمس.

تاريخ البحث: ١١/ ٧/ ١٩٩٤م

الدراسات العليا

ختم الإجازة:

أجيزت الرسالة بتاريخ ٩/ ٧/ ٢٠٠١

موافقة مجلس الكلية
/ /

موافقة مجلس الجامعة
/ /

فهرس محتويات الرسالة

المقدمة

المقدمة

موضوع هذا البحث هو: "السجع القرآنى – دراسة أسلوبية"، ويمثل السجع ظاهرة من ظواهر التعبير فى لغة النصوص الأدبية، بل فى ذروة النصوص وهو القرآن الكريم، والواقع أننى معنيّة منذ فترة بتتبّع نظامه فى النص القرآنى خاصة، وفى بعض الكتابات المسجوعة، راصدة أوجه الموافقة والمفارقة بين نظاميهما، هادفة إلى اكتشاف قانونه البنيوى الشامل، بوضع اليد على الشروط الأساسية التى تسود بنية السجع عمومًا، والتى فى ضوئها يمكن اكتشاف نظامه الخاص فى النص القرآنى، كما يمكن تحديد الظواهر التى جاء فيها القرآن الكريم جريًا على سنن العربية من تلك التى تمنحه خصوصية مفارقة. وظاهر العنوان إن لم يتضمَّن إية إشارة إلى قضية الإعجاز، فإن البحث تطبيق عملى يكشف مظهرا من أهم مظاهر الإعجاز الصوتى فى القرآن الكريم. وقد جذب هذا الموضوع انتباهى منذ سنوات خلت حينما قرأت دراسة بعنوان "السجع فى القرآن بنيته وقواعده"، سعى مؤلفها "ديفين ج. ستيوارت" إلى تطبيق القواعد المستخلصة من الكتابات النقدية والبلاغية عند القدامى من أجل تحليل بنية السجع فى القرآن، واستخلاص القواعد الشكلية التى تحكم هذا النوع من الإنشاء كما كان يعتبره.

طرحت هذه الدراسة على ذهنى تساؤلا: هل القواعد المستخلصة من الكتابات النقدية والبلاغية كافية لتقديم صورة فعلية لبنية السجع القرآنى ووصف قواعده وظواهره، وبخاصة أن مادة البلاغة هى الشواهد المتفرقة والأمثلة المجتزأة؟ مثل هذا السؤال لا نتوقع له جواباً بعيدا عن استقراء يستنبط ما يتيحه النص القرآنى ذاته من خلال لغته، والاستقراء الكلى للنص يحقق إفادة على صعيد آخر، إذ يمكن عن طريقه التثبّت من مدى دقة أحكام القيمة التى أطلقها النقاد حول ظواهر رصدتها البلاغة فى معالجتها لبنية السجع. صحيح أن البلاغة العربية فيما مارست من رصد وتقعيد كانت تعتبر النص القرآنى نموذجها الأول؛ فالسؤال الأساسى فى مستوى البلاغة هو: كيف يمكن الظفر بقول ناجح؟ ومن أجل هذا كان التوجّه إلى النص القرآنى، المثل الأعلى فى الأداء الفنى الذى يصل إلى حد الإعجاز، ضرورة تفرض نفسها على البلاغيين بوصف استخدامه المحكم للغة معيارًا يقاس عليه جودة الاستخدام المنشود. لكن

واقع البلاغة يشير إلى أن الرصد الذى يجاوز الجزئى إلى الكلى أحيانا لم يكن أحد إجراءاتها، وأيًا كان الأمر فما زال هذا الكم الهائل من الملاحظات البلاغية متاحًا للدارس يعيد النظر فيه مرّة بعد أخرى فى ضوء دراسة أسلوبية تستقى أدواتها التحليلية من النتائج المعاصرة التى توصل إلها على اللغة، وبخاصة ما يتصل منها بالصوتيات، فالدراسات اللسانية تهب ثمار بحثها إلى الأسلوبية، غير أنه ليس كل شيء فى النص لسانياً، فدارس الأسلوب إذا لم يّغْنَ بإسهامات التاريخ الأدبى، ولم يهتم بالسياق الحقيقى، واكتفى بالبحث عن العلامات فى الأشكال، أشكال التعبير أو أشكال المضمون سيفوته كما يذهب بعض الدارسين الجانب الواقعى للظاهرة المدروسة.(١)

ولا شك أن القواعد المستخلصة من الكتابات البلاغية عند القدامى تظل ظواهر ينبغى التثبّت من أنها متكررة فى النص، وأنها من لوازمه الأسلوبية بالفعل؛ إذ إن النظر إليها بهذا الاعتبار يرتبط بالشيوع والندرة النسبيين فى إطار النص القرآنى بكامله. ومن ثم اتجه البحث إلى اختيار المنهج الأسلوبى يعتمده فى الدراسة، نظرًا لما يمتاز به هذا المنهج من تجاوز النظرة الجزئية فى التشخيص والوصف إلى نظرة كلية عامة تشمل النص بأكمله، ومن موضوعيّة أساسها الاستفادة من مقاييس علمية دقيقة فى نتائجها كالإحصاء. والدراسة بحث تطبيقى فى ضوء عبارة مفادها: أن السجع القرآنى يستدعى من قبل غاية نصية هى التى أذنت له أن يوجد ضمن الخصائص الأسلوبية للقرآن، فهى تأتى فى إطار محاولة تطمح إلى رصد حقيقة توظيف السجع فى مواضعه من القرآن الكريم.

وقد تناولت دراسات عدّة بنية السجع منها:

[١] دراسات بلاغية درست بنية السجع ضمن تناول عام للبديع، ويكاد عملها فى مجمله ينحصر ما بين الغاية التعليمية والغاية التأريخية، وتدور فى فلك الشرح والتكرار للمقولات القديمة.

[٢] دراسات عنيت بالفاصلة القرآنية فى كتب مفردة أو كتابات متفرقة من كتب

---

(١) انظر: مدخل إلى الألسنية -بول فابر، كريستيان بايلون- ت طلال وهبة، المركز الثقافى العربى، ط١، سنة ١٩٩٢، ص ٢٣٤.

أشمل وأعم، ومنها: الفاصلة القرآنية، عبد الفتاح لاشين، ودراسة بلاغية فى السجع والفاصلة القرآنية، عبد الجواد طبق، والفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى عيد محمد شبايك، وأوّل من سمّى الفاصلة لمحمد الحسناوى.

[٣] دراسات عنيت بتناول السجع العربى، ومنها الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدى، والسجع نوع كتابى ضمن كتاب تحاليل أسلوبية لمحمد الهادى الطرابلسى، ومدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقسطى، محمد الهادى الطرابلسى.

[٤] دراسات عنيت بالسجع القرآنى من مثل: السجع فى القرآن بنيته وقواعده لديفين ج. ستيوارت، ومن صور الإعجاز الصوتى فى القرآن الكريم، محمد العبد، والسجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك فى القرآن عبد الرحمن تاج... وغيرها.

كانت هذه الدراسات منارة يستضيء بها البحث فى بعض مواضعه فى إطار تناول يتميز عن المعالجات السابقة باتخاذ النص فى صورته الكلية مادة لتحليله، وبمحاولة الاستعانة بمستخلصات معاصرة تتصل بموضوع البحث.

وتنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة فصول وخاتمة؛ فانطلاقاً من كون السجع بنية بلاغية تم تأسيس مفهومها ومنظومة تقاليدها داخل التراث، جاء الفصل الأول من الدراسة "السجع فى التراث العربى" يعرض لهذه البنية داخل سياقات نشأتها راصدًا ومحللاً عددا من الآراء الخلافية المتعلقة بالسجع مفهومًا وتقعيدًا وممارسة، فيقدم على المستوى الأول مفهوم السجع فى اللغة والاصطلاح متابعًا طريقة تعريفه بالإحالة على القافية، وكيف أن هذه الطريقة كانت ذات أثر بالغ فى توسيع الإطار المفهومى لمصطلح السجع، وفى صياغة بعض قواعده. وعلى مستوى الشرح والتقنين عنى البحث باستعراض مجموعة من الآراء لدى النقاد والبلاغيين تتصل بأمور من مثل: تحديد أوجه السجع، والوزن المعتبر فيه، وترتيب قوالب تشكّله المسافى على سلم القيمة، ومواصفات الجودة التى ينبغى أن تتوافر له، والدراسة تناقش الجهد الذى حاول أن يجعل مهمّة السجع مهمة إضافية، وأخيرًا تضرب فى جذور الإشكالية الخاصة بنفى السجع عن القرآن، واستخدام الفاصلة بوصفها المصطلح البديل.

وتنتقل الدراسة من التمهيد النظرى إلى البحث التطبيقى لتأخذ الممارسة الأسلوبية، فى الفصل الثانى، دورها فى استخلاص نتائج متعلقة بالسجع القرآنى: (كميا، وصوتيا، وشكليا)، حيث ترصد الدراسة مدى ميل النص القرآنى إلى استخدام بنية السجع، وكان توضيح المقصود بالسجع قبل بدء الإحصاء مطلبًا يعلن عن التصور النظرى الذى تنطلق منه الدراسة التطبيقية خاصة مع تعدد مفهوم السجع فى البلاغة القديمة، وتتحرك الدراسة بعد ذلك صوب إجراء يمكّن من تقسيم الكلام المسجوع إلى وحدات سجعية بحيث يأتى لها تحديد الآيات المنتمية إلى السجع والآيات المنتمية إلى الترسُّل، وبحسب ذلك التقسيم يتم الإحصاء واستبيان ما ينم عنه من خصائص أسلوبية فى النص القرآنى.

وعلى مستوى البناء الصوتى يتتبع البحث الظواهر الصوتية ذات التردد الواضح فى موضع السجعة القرآنية، خاصة منطقة الثقل السجعى، والمهيِّئات الصوتية التى تسبقها من التزام فونيمات ومقاطع بعينها، ومن استخدام حروف قريبة من حرف السجعة. والدراسة تهتم بالوظيفة الإيقاعية الناتجة من كل ذلك، كما تهتم برصد عناصر التناسق السجعى فى متن الآيات وعلاقتها بالسجع الختامى بوصفها جزءا من فعل النص فى إحداث إيقاع صوتى صاعد. هذا وتعنى الدراسة بالرخص الصوتية من حذف وزيادة، تلك الرخص التى تظهر فى منطقة الثقل السجعى.

وفى مستوى البناء الشكلى تتابع الدراسة أطوال العبارات السجعية وطرق ورودها فى الوحدات طولاً وقصرًا. وفى سبيل إيضاح المنهج الأسلوبى فى ذروة تطبيقه عمد البحث إلى الجداول الإحصائية لرصد وتتبّع تكرار اللوازم الأسلوبية فى السجع القرآنى فى كل بناء.

أما الفصل الثالث، فقد خصص لتناول السجع القرآنى فى علاقته بالسياق اللغوى ويعنى بحث السجع فى سياقه اللغوى أو الداخلى، دراسته العلاقات التكوينية الرابطة بين المفردات المسجوعة والتراكيب. وكيفية احتضان التركيب لها، ثم إعادة إنتاج معناها مرة ثانية، وهل يسير هذا الاحتضان وفق القواعد المنظمة لترتيب الكلمات على مستوى التركيب العربى يراعى فيه العلاقات التوافقية بين عناصر الجملة على كل مستويات الوصف اللغوى، أى على

المستويات: النحوية، والصرفية، والدلالية، أم أن هناك أنماطًا طارئة من العدول أو الترخص المهيئ لاستقرار الفاصلة المسجوعة فى مواضعها: كالاتجاه إلى إحداث علاقات تخالفية مقصودة بين المبتدأ والخبر، أو بين الصفة والموصوف مثلاً، أو كحدوث مفارقات فى العلاقات المعجمية التركيبية، وهى ظاهرة تبدو على الخصوص فى المجازات اللغوية (كالتشبيه والاستعارة) والمجازات العقلية، والكنايات. هذا إضافة إلى ملاحظة العدول الذى قد يحدث فى السلسلة السياقية الخطية للإشارات اللغوية من جهة التركيب؛ وذلك بالخروج على القواعد المنظمة لترتيب الكلمات بتقديم وتأخير، وزيادة أو حذف أحد عناصر الجملة.

وتقوم الدراسة فى مستوى رصد العلاقات السياقية النحوية بتحليل سورة الزخرف لاكتشاف الظواهر الأسلوبية فيها التى مهّدت لاستقرار السجع فى ختام الآية. وخلال ذلك يتم ملاحظة تلك الظواهر فى النص القرآنى بأكمله.

وأخيرا جاءت الخاتمة كى ترصد النتائج التى توصّل إليها البحث عبر فصوله الثلاثة.

لا تغنى البلاغة القديمة عن محاولة مقاربة المناهج المعاصرة، ولعل اعتماد البحث فى دراسة السجع القرآنى على المنهج الأسلوبى، قد جعل النظر فى هذه الظاهرة نظرًا موضوعيًا محايدًا دونما تأثير من جانب أو زاوية أخرى غير زاوية النص. ولقد أفرز الدرس النقدى القديم جملة من أحكام القيمة المتصلة بالسجع من جهة تقنياته، والمحاولة التى يبذلها البحث الأسلوبى هى محاولة ربط الحكم النقدى بالخواص الأسلوبية الموضوعية المستخلصة من متابعة السجع القرآنى.

وفى الختام أرجو أن يكون البحث قد قدَّم شيئا جديداً وجديرًا بالنظر. وحسبه أن يكون لبنة فى صرح يقوم فيه المتخصصون باستبدال معايير موضوعية لتحليل النص بمعايير ذاتية انطباعية.

هذا، وبالله التوفيق، فهو سبحانه وتعالى من وراء القصد وهو يهدى السبيل.

الفصل الأول

السجع فى التراث العربى

١- مفهوم السجع فى اللغة والاصطلاح

٢- التناول البلاغى لبنية السجع

٣- مواصفات السجع الجيّد

٤- القيمة التحسينية للسجع، والجدل البلاغى حولها

٥- المهمّة الموكلة بالسجع

٦- السجع والفواصل

ليس من الضرورى أن ترفع الممارسة التطبيقية شعار العودة إلى التراث إلا إذا كان هناك داعٍ يحتم التمهيد للبحث التطبيقى بفصل نظرى؛ وهذا ما يتفق ورؤية دراستنا، فالتمهيد النظرى فيها أمر فرضته خصوصية الظاهرة البلاغية المدروسة؛ إذ يؤكد المسار التاريخى للسجع، استخداما وتقنينا، أنه من أقدم بنى البلاغة العربية ظهوراً، وأكثرها امتدادا فى تاريخ النتاج الأدبى. فقد شكل ملمحا مهماً فى الكتابة العربية من حيث هو علامة أنواع أدبية مختلفة تتحرّك فى مسافة زمنية طويلة بدءاً من سجع الكهان والخطب والأمثال الجاهلية ووصولا إلى المقامات والرسائل. وبدهى أن منظومة التقاليد الخاصة بالسجع قد تم تأسيسها داخل التراث، وأن إشكالاته قد تولدت نتيجة لمراحل التحوّل فيه؛ ومن ثمّ فإن دراسة هذه البنية تقتضى من البحث التوقف بداية عند المفاهيم والتصورات التى خلفها الدرس القديم؛ للاستفادة من تحليلاته اللغوية والبلاغية والنقدية. فالبحث التطبيقى للظواهر التى لها تاريخ، مدعو –مهما كان المنهج الذى ينطلق منه– إلى الانتفاع بما خلفه التراث، وإلى مواجهة مع الدرس القديم بفروعه البلاغى والنقدى واللغوى؛ حتى يتسنى له تحرير مفاهيمه داخل سياقات نشأتها. وليس معنى هذا أن البحث يلج من باب قدسية الأفكار المتوارثة، وإنما معناه أنه يدرك ابتداء فى مثل هذه الظواهر وهم البدء من نقطة الصفر.

فالحديث عن السجع كان من الأمور التى شغلت بال البلاغيين والنقاد القدامى لتماس هذه البنية بالبناء الشكلى للنص القرآنى، فاتخذوا من تلك الإشكالية محوراً أسسوا عليه مؤلفاتهم. وإذا كان أول ما يطالعنا من جهود البلاغيين والنقاد ذلك الجهد المبذول لإظهار مباينة القرآن للشعر مباينة اعتمدت تحليل المعطيات الشكلية لكلا النصين –فقد وجدناهم، بالمثل، يولون عناية كبيرة بمناقشة علاقة القرآن بالسجع من باب مباينة القرآن للنص السجعى كذلك، بيد أن الدارسين لهذه القضيّة لم يعمدوا إلى التحليل الشكلى، بل صدروا فى تحريمهم إطلاق السجع على ما فى القرآن، عن جملة من الحجج الكلامية، وإذا قمنا بالتحرى عن ذلك المسلك استطعنا أن نفترض أنّ إيغالهم فيه كان بمثابة القناع الواقى من مواجهة مسألة مباينة القرآن للسجع من خلال تحليل المعطيات الشكلية للنص السجعى الجيد؛ حيث إن تلك المواجهة من المنتظر أن تنعطف بهم بعيدا عن صدق مذهبهم فى التحريم. والبحث، إذ يعكف على دراسة بنية السجع، يلزمه أن يقف على معالجة التراث لها؛ كى يتأملها واضعاً فى حسبانه إشكالياتها التراثية. ولست أقصد بذلك أن البحث الأسلوبى يبدأ من حيث تنتهى البلاغة، أو

أنّ المرجو منه استدراك ما نَدَّ عنها؛ فالاختلاف بينهما هو اختلاف منهجى، لكننى أتفق مع واحد من النقّاد المعنيين بأسلوبيات اللغة الأدبيّة، أتفق معه فى أن التحليل الأسلوبى "عمل ينبغى أن يُمهَّد له بأعمال تحضيرية ليست من صميمه، لكنه لا يجرى إلا بعد حصولها، أهمها... معرفة ما استقر عليه العرف فى الوضع اللغوى والدرس النقدى والتاريخ الأدبى؛ استعدادا لتحديد مظاهر التعبير، وعناصر الإضافة، ومواطن الإبداع التى تقدّمها النصوص المدروسة".(١)

---

(١) تحاليل أسلوبية، محمد الهادى الطرابلسى، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢، ص ١٠.

[أ] السجع فى اللغة والاصطلاح

المفهوم اللغوى للسجع:

ظل المعجم اللغوى رافداً أساسيا يمد البلاغيين بمفردات تهيأت للانتقال من صلب النظام اللغوى التواصلى لتندرج ضمن نظام ثان تكون لها دلالة مفارقة على نحو أو آخر لدلالتها الوضعيّة أو العرفية الأولى؛ فهى علامات مشحونة بدلالات اصطلاحية جديدة. وبهذه الطريقة تولدت اللغة الاصطلاحية الخاصة بالبلاغة منذ ما قبل الإسلام، فجاءت غالبية المصطلحات من أصل لغوى. واختيار إحدى مفردات اللغة لتمثّل مصطلحا لمفهوم معين –أمر لم يكن يتم بطريقة عشوائية، فهنالك مبدأ يقيد ذلك الاختيار، إذ لابد من وجود تشابه بين مفهوم هذه المفردة فى النظام الدلالى للغة وبين المفهوم الاصطلاحى الذى تتخذ رمزاً له. ومن هنا يُعنى البحث بالتوقف عند التعريف اللغوى "للسجع"؛ بوصف هذه اللفظة ذات وجود مزدوج فى المعجمين اللغوى والاصطلاحى معاً. فالتعريف اللغوى يكتسب هنا قيمة خاصة؛ حيث إنه يلفتنا إلى السر فى اختيار لفظة (سَجْع) لتكون رمزاً للمفهوم الاصطلاحى، كما إنه يفيد فى الإجابة عن السؤال التالى: إلى أى حد تحتفظ الدلالة الاصطلاحية فى عمومها بالمعنى اللغوى؟

السجع مأخوذ من الأصل الثلاثى (س. ج. ع)، وتسجل المعاجم جملة من معانيه التى ترشدنا إلى أصل اشتقاقه؛ إذ يشتد الشبه بينها وبين المعنى الاصطلاحى للسجع، يقول على بن إسماعيل بن سيدة (ت ٤٥٨هـ)، فى معجمه "المحكم والمحيط الأعظم": "سجع يسجع سجعاً: استوى واستقام، وأشبه بعضه بعضا. قال ذو الرُّمَّة:

قطَعْتُ بِهَا أَرْضاً تَرَىَ وَجْهَ رَكْبِهَا ... إِذْ مَا عَلَوْهَا مُكْفأً غيرَ سَاجِعِ

وسجع الحمام يسجع سجعاً: هدل على جهة واحدة. وفى المثل "لا آتيك ما سجع الحمام" يريدون: الأبد... وسجعت الناقة سجعًا: مدّت حنينها على جهة،

وسجعت القوس كذلك، قال يصف قوسا:[1]

وَهْيَ إذاَ أَنْبَضْتَ فيهَا تَسْجَعُ   تَرَنُّـم النحـلِ أبى لا يَهْجَعُ

قوله: "تَسْجَع" يعنى حنين الوتر لإنباضه، يقول: كأنها تحن حنيناً متشابهاً. وكله من الاستواء والاستقامة والاشتباه. وسجع له سَجْعا: قصد".[2] وتُعد تلك المعانى اللغوية تفصيلا للتعريف الذى قدمه ابن فارس اللغوى (ت ٣٩٥هـ) فى قوله: "السين والجيم والعين أصل يدل على صوت متوازن"[3]؛ فالمفاهيم التى طرحها ابن سيدة يُلمح فيها جميعا خاصية التوازن الصوتى. فهى إمّا تعبيرٌ عن النغم المتكرر فى هديل الحمامة، أو الحنين المتشابه فى صوت الناقة، أو صدى إنباضة الوتر الذى يماثل تَرَنُّمَ النحلِ.

المفهوم الاصطلاحى للسجع:

أظهر ما يمكن الاستدلال عليه من تاريخ مصطلح السجع، هو كونه مصطلحا موغلاً فى القدم باعتبار انتمائه إلى العصر الجاهلى وبدايته على يد الكهنة. وحرى بنا حين نتصدى لاستيضاح المفهوم الاصطلاحى للسجع أن نعيّنه بداية فى إطار النظرات اللغوية ؛ فإن للغويين العرب منذ القدم أوليتهم فى البحث الاصطلاحى، بما فى ذلك المصطلح البلاغى.

والملاحظ أنّ تعريف بعض المصطلحات القديمة كان يتم دون توضيح لخاصيات هذه المصطلحات، وإنما كانت الإحاطة بمفاهيمها تعتمد على ما يمكن

---

(١) ورد هذا البيت فى "المحكم" غير منسوب لقائله، وكذلك ورد البيت عند ابن منظور فى اللسان غير منسوب لقائله أيضا. انظر: لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقى، دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦م، مادة (س.ج.ع) جـ٨، ص١٥١.

(٢) المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة، على بن إسماعيل بن سيدة، ت مصطفى السقا، وحسين نصّار، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ط١، د.ت. مادة (س.ج.ع)، جـ١، ص١٧٨.

(٣) مقاييس اللغة: ابن فارس اللغوى، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨١، مادة (س.ج.ع)، جـ٣، ص١٣٥.

تسميته (**التعريف بالمشابهة**)، وأعنى به: تقريب المفهوم إلى ذهن المتلقى من خلال مفهوم آخر شائع مشهور، وهذا ما حدث مع مصطلح السجع؛ حيث صيغت التعريفات الأولى له بالإحالة على القافية.

ويعد الخليل بن أحمد الفراهيدى (ت ١٧٥ هـ) أوّل من عرّف السجع باستخدام طريقة "المشابهة"، إذ يقول: "سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل كقوافى الشعر من غير وزن".(١) ومن الملاحظ أنّ تعريف الخليل لم تمله طبيعة التلقى التى تحتكم إلى مصطلح (القافية) الشائع فحسب، وإنما أملته ميول الخليل ونوعيّة اشتغاله، إذ انصب اهتمامه على الشعر، وصار الأصل الذى يقيس عليه كل شبيه. فالتأصيل للشعر كان أسبق وأكثف من التأصيل للأنواع الأدبية الأخرى، وقد أفرز عالم الشعر مفاهيم استقرت فى ذهن المتلقى، ولولا استقرار هذه المفاهيم لما أفلحت أن تؤدى دورا فى تبسيط المفهوم.

والظاهر أن الخليل حينما قفى على تعريفه بعبارة "من غير وزن"(٢) لم يكن يقصد أن الوزن لا مكان له مع السجع مطلقا، والتأمل الذى يبدو لى أقرب للصحة هو أن الخليل يعنى أن الاتفاق فى الوزن ليس مشروطًا بقدر ما هو جائز؛ وهذا ما تؤكده الأمثلة المسجوعة التى أوردها من كلام العرب، إذ كان

---

(١) العيـن، الخلـيل بـن أحمد الفراهيدى، تحقيق: عبد الله درويش، مطبعة العانى، بغداد، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٧م، مادة (س.ج.ع)، ص٢٤٤.

(٢) من الواضح أن المقصود بالوزن فى عبارة الخليل هو الوزن العروضى؛ إذ يُطلق (الوزن) ويراد به إما الدلالة العروضية من حيث الأسباب الخفاف والثقال، والأوتاد المجموعة والمفروقة، والفواصل الصغرى والكبرى، من جهة هيئة العلاقة فى التتابع بين المتحرك والساكن على نحو ما هو معروف فى علم العروض، وإما الدلالة الصرفية (المورفولوجية) مما يعرف بالميزان الصرفى.

ويئول كلاهما إلى ما يجرى على مادة الفاء والعين واللام (فعل) من تغيرات. وقد يتفق الوزنان؛ العروضى والصرفى، وقد يختلفان ففى قول أبى نواس يمدح الخصيب أمير مصر "أكول لحيات البلاد شروب" وهو شطر من الطويل نلاحظ أن قوله أكول من باب الاتفاق فى الوزن عروضا وصرفا إذ وزنها فعولن، وأما قوله شروب فمن باب الاختلاف، إذ يأتى الوزن الصرفى على فعول، أما الوزن العروضى فعلى مفاعى بحذف السبب الخفيف وهى التى تنقل إلى "فعولن" لأنهما بمقدار واحد من جهة الحركة والسكون.

أغلبها متفقا وزنا.[١] ولقد حذف ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) عبارة (من غير وزن) حيث قال: "السجع فى الكلام هو أن يؤتى به وله فواصل كقوافى الشعر كقولهم: من قلّ ذل، ومن أمر فلّ".[٢] وأحسب أن ابن فارس كان يضع فى اعتباره ذلك الجدل الذى طُرحَ على الساحة البلاغية حول قيمة التعادل الذى يحدثه اتفاق الوزن بين ألفاظ الفواصل، فأبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥ هـ) يذكر فى كتاب "الصناعتين" شيئا من هذا، يقول: "ينبغى أن تكون الفواصل على زنة واحدة وإن لم يمكن أن تكون على حرف واحد فيقع التعادل والتوازن".[٣]

* * * *

وإذا كان اللغويون قد أسهموا -فى حدود نشاطهم- فى توضيح معنى السجع، فإن كتب البلاغة العربية اضطلعت -بحكم موضوعها- بدور التعريف والرصد والتنظير والتحليل الممعن والمدقق لهذه البنية البلاغيّة التى تجلى بحثها مقترناً بالإرهاصات الأولى فى الدرسين البلاغى والنقدى، نابعا من منطلقين فى التأليف، أحدهما: الكشف عن تقاليد الفن فى البيان العربى؛ فعبر هذا الغرض تمّ معالجة السجع، وأسهم البلاغيون فى تعريفه وتنميط أشكاله، إذ كانت مقولة السجع تمثل واحدة من مقولات تؤسس فى مجموعها حقلاً سموه علم البديع، واندراج السجع ضمن هذا العلم لا يصرف النظر عن المعالجات الخاصة لهذه المقولة فى الكتب البلاغية فى مرحلتها الأولى قبل التنظيم الدقيق لمباحث البلاغة فى تقسيم ثلاثى، وقبل استقلال البديع وحده بنسق محدد. فقد أثارت هذه المعالجات الكثير من الأسئلة البلاغية المتصلة بالسجع، كما أسهمت فى بلورة تعريفه وفى رصد عدد من الأمثلة التى تناقلتها المؤلفات فيما بعد.

وكان من الطبيعى أن يكون المنطلق الثانى لتناول بنية السجع هو الاشتغال بالبحث عن مزية النص القرآنى والاحتجاج له بالإعجاز، ويمدنا عمل الإعجازيين من أمثال الرمانى والباقلانى بمحاولات قصدية للتفريق بين السجع

---

(١) من الأمثلة التى ذكرها الخليل بن أحمد"لصها بطل وتَمْرُها دقل"، و"إن كثر الجيش بها جاعوا، وإن قلّوا ضاعوا". انظر العين، الخليل بن أحمد الفراهيدى، مادة (س.ج.ع)، ص ٢٤٤.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة (س.ج.ع)، جـ ٣، ص ١٣٥.

(٣) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكرى، ت مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨١، ص ٢٨٩.

العربى وما فى القرآن مما هو على صورته.

ولعل، أول ما يُلحظ فيما يتعلق بالمفهوم الاصطلاحى للسجع فى كتب البلاغة، أن تعريف الخليل بن أحمد لقى صدى لدى البلاغيين ممن نهجوا نهجه فى التعريف بالمشابهة، فهذا "فخر الدين الرازى" (ت ٦٠٦هـ) يقدّم تعريفاً للسجع اعتماداً على ما ذكره "على بن عيسى الرمانى" (٢٩٦هـ - ٣٨٦هـ) والصلة ظاهرة بين ذلك التعريف وتعريف الخليل، فالسجع عند الرازى هو "تكلّف التقفية من غير تأدية الوزن".[١] إلا أن بعضًا من الأمثلة التى أوردها جاءت سجعاتها متفقة وزناً مما يعنى أن النفى هنا لم يكن قطعيّا وإنما على سبيل عدم الاشتراط،[٢] وربما كان ذلك ردا على التصور الذى قدمه غير واحد من البلاغيين، والذى يقضى بأن الوزن شرط أساسى فى تحقيق السجع.[٣]

وفى مفتاح العلوم يقول السكاكى (ت ٦٢٦هـ) بناء على التعريف الذى استقاه من سابقيه: "الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر".[٤] مكتفيا بالتشبيه دون أن يعمد إلى تحديد مجال التشابه بين السجع والقافية. بيد أن ابن يعقوب المغربى قد قام -فيما بعد- بتجريب بعض الارتباطات بينهما تبعاً لقراءة ظاهر التشبيه وقراءة باطنه، محاولا تحديد مفهوم السجع انطلاقا من تشبيهه بالقافية،

---

(١) نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، فخر الدين الرازى، ت إبراهيم السامرائى، محمد بركات حمدى، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٥، ص ٦٥.

(٢) من الأمثلة التى ساقها الرازى، ويُلحظ أن سجعاتها متفقة من حيث الوزن، قوله تعالى: ﴿فيها سررٌ مرفوعة، وأكواب موضوعة﴾، حيث تتفق الألفاظ "مرفوعة" و"موضوعة" فى الوزن الصرفى والعروضى معا. راجع نهاية الإيجاز، فخر الدين الرازى، ص٦٥.

(٣) يعد ابن الأثير واحداً ممن اشترطوا الوزن فى تحقيق السجع، ويصيغ ذلك فى صورة مسلّمة، إذ يقول: "كل سجع موازنة وليس كل موازنة سجعًا". ويقصد بالموازنة اتفاق الفواصل فى الوزن، وهذا يعنى أن السجع عنده يجتمع فيه أمران: التماثل الحرفى، والاتفاق الوزنى. راجع، المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ت محمد محى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥، جـ١، ص ٢٧٢.

(٤) الإيضاح فى علوم البلاغة، الخطيب القزوينى، ت محمد عبد المنعم خفاجى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ط٥، ١٩٨٣، جـ٢، ص٥٤٧. وانظر كذلك، مفتاح العلوم، السكاكى، ت نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧، ص ٤٣١.

ومن هذا المنطلق جعل يتساءل: علام يطلق "السجع" على اللفظة الأخيرة من الفقرة المسجوعة، أم على التوافق الحادث بين اللفظين الآخرين من التركيب السجعى؟ راداً جماع الأمر إلى ما يكشف عنه التشبيه، يقول: "وعلى كل حال فليست القافية عبارة عن تواطؤ الكلمتين فى آخر البيتين، فالمناسب فى التشبيه بها أن يراد بالسجع فى كلامه [يقصد السكاكى] اللفظ لا توافقه الذى هو مصدر هو وصف لذلك اللفظ... لأن الكلام فى تحرير الاصطلاح، ولا يلزم كون الشيء علة فى التسمية الاصطلاحية، كون تلك العلة هى المسماة. نعم، إنْ تقرر للسكاكى كون التوافق هو المسمى جاز أن يقال: وهذا مراده على معنى تقدير المضاف، أى توافق الفواصل فى النثر كتوافق القوافى فى الشعر، وهو خلاف الظاهر... فلما انفتح باب التأويل فى كلام "السكاكى" جاز حمله على ما ذكر... فتحصّل من ظاهر ما تقرر عند المصنف والسكاكى أن السجع قد يطلق على نفس الكلمة الأخيرة من الفقرة لموافقتها للكلمة الأخيرة من فقرة أخرى، ومرجع المعنيين واحد".(١)

وكما هو واضح من نص ابن يعقوب، فإنه عرّف السجع مقايسة، فكان قياس السجع على القافية هو السبب فى ترشيح ذلك المفهوم الذى تبناه، وإن يكن قد خالف به إجماع البلاغيين على أنّ المقصود بالسجع هو التوافق الحادث بين الألفاظ الفواصل المتماثلة فى الحرف الأخير لا الكلمة الأخيرة ذاتها. يقول ابن سنان (ت٤٦٦هـ) السجع هو "تماثل الحروف فى مقاطع الفصول".(٢) ويعرفه ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) بأنه "تواطؤ الفواصل فى الكلام المنثور على حرف واحد".(٣) ويلتقى معه الخطيب القزوينى (ت٧٣٩هـ) فيذكر تعريفا يتطابق مع تعريف ابن الأثير معنى وإن كاد يختلف لفظاً، إذ يقول:"ومنه [أى من المحسنات اللفظية] السجع، وهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد".(٤) وحينما

---

(١) مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربى، ضمن شروح التلخيص، سعد الدين التفتازانى، ابن يعقوب المغربى، بهاء الدين السبكى، دار الهادى، بيروت، ط ٤، ١٩٩٢، جـ٤، ص ٤٤٥.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجى، ت على فودة، مكتبة الخانجى، ط٢، ١٩٩٤، ص ١٦٣.

(٣) المثل السائر، ابن الأثير، محمد محى الدين عبد الحميد، جـ١، ص ١٩٥.

(٤) الإيضاح فى علوم البلاغة، الخطيب القزوينى، جـ٢، ص ٥٤٧.

نتابع شرّاح التلخيص فيما عقبوا به على تعريف القزوينى نجدهم يضيفون إليه عبارة "فى الآخر"؛ أى اتفاق الفاصلتين فى كونهما على حرف واحد كائن فى آخرهما.(١) وهذه إضافة قصد منها إبراز البعد المكانى لبنية السجع، غير أننا حين نعرضها على القانون الذى ردده مجتمع البلاغيين والنقاد القدامى والمتمثّل فى اشتراط بناء السجع على الوقف تحقيقا لدوره الإيقاعى -يتكشّف أن ذلك التحديد المكانى لا ينبغى أن يُسلَّم به تسليما تاماً؛ فالتوافق لا يكون واقعاً فى الحرف الأخير إلا إذا كان الوقف بالسكون. والحقيقة أن تحديد شرّاح التلخيص لموضع السجع لا يضع فى الحسبان الحالات التى يكون الوقف فيها حرفا لاحقا لحرف التسجيع، كحالات: الوقف بألف الإطلاق، أو هاء السكت، وهذه إشكاليّة يُعنى البحث بالتوقّف عندها فى فصل لاحق.

بيد أنّ تعريف السجع الذى صاغه وتداوله جمهور البلاغيين والنقاد يعد لافتا للنظر؛ ذلك أنه لا يركز على الظاهرة الأساسية المنتجة للسجع؛ ظاهرة التكرار الحرفى، قدر تركيزه على الظاهرة المصاحبة للتكرار، والمتمثلة فى توافق الفاصلتين فى الحرف الأخير، وذلك المسلك راجع إلى أن عناية القدماء بالتنويعات الشكلية المعتمدة على الحرف إنما كانت تتم فى إطار رصدى أوسع، هو العناية بالدال بالدرجة الأولى، ومن ثمّ كان هناك حديث عن توافق دوال الفواصل، لا عن التكرار الحرفى المهىء للسجع.

ونقف فى حد السجع على عنصر لم تستطع المحاولات المتكررة للبت فى أمره إنهاء القول فيه؛ ذلك العنصر هو "الوزن"، فقد وجدنا الخليل والرمانى والرازى ومن سار على نهجهم فى التعريف بالمشابهة يشددون على تذييل تعريف السجع بعبارة "من غير وزن" مؤكدين الفروق بين السجع والقافية باعتبارهما نظيرين. إلا أن فى آثار البلاغيين والنقاد التعريفية ما يشير إلى توسُّع مفهوم السجع، فالعلوى (ت٧٤٩هـ) يجعل "الوزن" عنصرا أساسيا فى حده، إذ يقرر أن معنى السجع هو: "اتفاق الفواصل فى الكلام المنثور فى

---

(١) انظر: شروح التلخيص، مختصر العلامة سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح، ومواهب الفتاح، وعروس الأفراح، جـ٤، ص ٤٤٥.

الحرف، أو فى الوزن، أو فى مجموعهما".[1] والواضح من متابعة الدرس البلاغى عند ابن الأثير وابن سنان وآخرين غيرهما ممن تناولوا بنية السجع –إن المقصود بالوزن هو "الوزن الصرفى"، وهو ما عَنَاه ابن سنان الخفاجى فى معاينته لقول أبى الحسين بن سعدة حينما ذكر جزءاً من بعض رسائله "لم أجد لسوء الظن مساغا، ولا لظاهرة الإعراض قبولا، ..."[2]، مصرّحا –تعقيبا على العبارة– بأن "فى هذا الكلام تركا للمناسبة بين الألفاظ لأن قبولا ليس على وزن مساغ".[3] ومن البيّن –إذن– أنّ المقصود بالوزن عند ابن سنان هو الوزن الصرفى لا العروضى؛ لأن الكلمتين متفقتان عروضيا.

ولا شك أن العلوى كانت له دوافعه الخاصة التى جعلته يدخل الوزن ضمن حد السجع وإن انتفى التماثل الحرفى، فهو يرى أن "المقصود بالسجع فى الكلام إنما هو اعتدال مقاطعه وجريه على أسلوب متفق"،[4] ومن ثم فإن إدخال الوزن ضمن حد السجع كان راجعا إلى تحقيقه للاعتدال واتفاق الأسلوب اللذين رأى العلوى فيهما نواتج تتجلى عن التسجيع فتدعم فاعليته الوظيفية تلك التى تكون وثيقة الارتباط بتأثيره النفسى وباستجابة المتلقى لذلك التأثير. فالاعتدال –كما يقول العلوى– "مقصد من مقاصد العقلاء، يميل إليه الطبع، وتتشوّق إليه النفس".[5]

تعدد دلالات مصطلح السجع:

المفاهيم المقدّمة حتى الآن يجمع بينها تصوّرٌ نظرىٌّ واحدٌ يعتبر السجع بنية بلاغية بديعية، ولكن هذا التصوّر لم يستطع أن يسجل لنفسه السيادة فى تاريخ النقد العربى؛ ذلك أن تصوراً آخر يزاحمه، لا ينظر إلى السجع بوصفه

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوى، المقتطف، دار الكتب الخديوية، مصر، ١٣٣٢هـ، ١٩١٤، جـ٣، ص ١٨.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجى، ص ١٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٨.

(٤) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلوى، ج٣، ص ٢٠.

(٥) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٢٠.

بنية بلاغية وإنما بوصفه نوعا من الأنواع القولية. ونقف فى آثار البلاغيين والنقاد على نصوص تعد من أقدم تجليات التناول لأنواع المخاطبات، عُنيت بتصنيف المنجزات اللغوية مفسحة للسجع مكانا بينها. بيد أن الذين خاضوا فى هذا الحديث قد انقسموا إلى فريقين؛ أحدهما: يُلحق السجع فى التصنيف بباب النثر تحت مسمى "النثر المسجوع"؛ ويرجع ذلك إلى قانون كتابة السجع فى صورة خطيّة أفقية، كما أنه يتفق مع الثنائية السائدة فى الخطاب البلاغى الذى رأى أن الكلام إمّا أن يكون نثراً أو شعراً، أما الفريق الآخر فيرى السجع فنا أدبياً قائما بذاته، لا هو النثر، ولا هو الشعر، ولكنه نمط أدبى ثالث له استقلاله، أو هو فن يمكن أن يُدرج فى قائمة الفنون الأدبية: كفن القصيد، وفن الخطبة، وفن الرسائل، وفن الرجز، وغير ذلك من الفنون.

وفى القول الموجَّه إلى عبد الصمد بن عيسى الرقاشى: "لِمَ تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن؟"[1] نرى تفريقا ظاهراً بين جنسين أدبيين هما: السجع والنثر.

وبرغم أن الجاحظ فى عرضه لمبحث السجع عزف عن صياغة مفهومه أو تقرير قواعده فإن فى مقولاته بعض الإشارات التى تقف شاهدا على طريقة فهمه لذلك المصطلح، فهو يقول نقلا عن معاصريه: "وجدنا الشعر من القصيد والرجز، قد سمعه رسول الله صلى اله عليه وسلم واستحسنه وأمر به شعراءه، وعامة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد قالوا شعراً قليلا كان ذلك أم كثيرا وسمعوا واستنشدوا، فالسجع والمزدوج دون القصد والرجز، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل؟".[2] يبدو أن فهم الجاحظ لمصطلح السجع يتجاوز كونه أداة بلاغية، فهو إنما يقصد به فناً من فنون القول البشرى يبرز إلى جوار الشعر والنثر والازدواج.

والراجح أن الجاحظ صدر عن ذلك الفهم فى الصفحات التى قدّمها تحت عنوان "باب أسجاع"، حيث بدأ ذلك الباب بمقولات لا وجود لسجع فى أغلبها،[3]

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، ت وشرح حسن السندوبى، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٩٣، جـ١، ص ٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٧٦.

(٣) انظر: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٨٣.

فنقل عن على بن أبى طالب -رضى الله عنه- قوله: "أفضل العبادة الصمت وانتظار الفرج". ونقل عن يزيد بن المهلّب قوله: "والهفاهُ على طليّة بمائة ألف وفَرْج فى جبهة الأسد".[1] وعن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- قوله "استغزروا الدموع بالتذكُّر" وعن عيسى بن عمر قوله: سمعنا الحسن يقول: "اقْدَعُوا هذه النفوس فإنها طُلَعَةٌ واعصوها، فإنكم إن أطعتموها تنزع بكم إلى شر غاية. وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور".[2]

تلك بعض مقولات غير مسجوعة صدّر بها الجاحظ هذا الباب المضطلع برصد صور من الأسجاع، وبرغم ذلك، فليس بإمكان الدارس أن يتصوّره جاهلاً بما للسجع من أساس، فمن اللافت أن الجاحظ كان إذا وصل إلى السجع الفعلى يقول: "ومن الأسجاع: ..." ثم يذكر نماذج مسجوعة فعلاً، ويستمر إلى أن يخرج مرة أخرى إلى الترسُّل. وهنا يُسجِّل البحث موقفاً منهجيّاً لا يمكن إغفاله؛ إذ من المعلوم أن الجاحظ رجلٌ استطرادى، يتحدث فى أمر، فإذا عَنّ له غيره تناوله، ثم عاد إلى ما كان فيه، غير أنه مع العلم بذلك الموقف المنهجى، فإن المقولات المشار إليها ما تزال تطرح مشاكل، فإذا كان الجاحظ واعيا بما يقوله فإنه ينبغى البحث عن الأسباب التى دفعته إلى أن يُدْخل فى هذا الباب أقوالاً غير مسجوعة، فليس من قبيل الصدفة أن تُجمَع هذه المقولات بوجه خاص، ويُصدَّر بها هذا الباب الذى وُضِع له عنوان محدد، ولا يصح أن نتصوّر أن الجاحظ قد رصد هذه النماذج من لا شىء.

إن هناك أكثر من استنتاج يفرض نفسه عند قراءة النماذج غير المسجوعة التى أوردها؛ فإما أن يكون ذلك خلطاً من النُسّاخ، استقر وجرى عليه المحققون، وإما أن يكون الجاحظ قد فهم السجع بخصوص هذه النصوص على أنه كلام يتحقق فيه الاستواء، وأنه يشبه بعضه بعضا، وهذا معنى من معانى السجع أوردها البحث فيما سبق، فكأن الجاحظ كان يتحرك فى إطار ذاكرة تراثية للنص السجعى، وينطلق من تصور لهذا الفن تكوّن بشكل عفوى عبر زمن مديد من الممارسة، حيث ترسَّخ الاستواء والتشابه تاريخيا فى الكلام المسجوع، وأحكم

---

(١) الطَّلّبة: الفرس أو الكأس المطليّة.

(٢) اقدعوا: كفوا. طُلعة: أى تطلَّع إلى كل شىء. حادثوا: أى أجلوا واشحذوا، والدثور: الدروس، يقال دثر أثر فلان أى ذهب، كما يقال درس وعفا.

ارتباطه به، حتى صار، فى عقل الجاحظ، علامة أخرى على تحقق ذلك الفن الأدبى.

وللباقلانى -أيضا- حديث عن تقنيات السجع باعتباره فناً أدبياً شأنه فى ذلك شأن الشعر، يقول: "وللسجع منهج مرتب محفوظ، وطريق مضبوط، متى أخل به المتكلِّم أوقع الخلل فى كلامه، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً، وكان شعره مرذولا، وربما أخرجه عن كونه شعراً".(١) ويتأكد لنا صدق تصورنا حول كيفية فهم الباقلانى لمصطلح السجع حينما نراه يُقسِّم الكلام البديع المنظوم إلى: "أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى الكلام الموزون غير المقفّى، ثم إلى أصناف الكلام المعدّل المسجع، ثم إلى معدّل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالا، فتطلب فيه الإصابة والإفادة".(٢)

ولا شك أن اعتبار السجع فنا أدبيا يتسق مع نشأته التى ارتبطت بواقع دينى وبطبقة دينية كرست السجع للتعبير عن مراميها، مخلفة للتراث نوعا إبداعيا عرف باسم "سجع الكهان"، ولقد تأتّى للسجع -فى ضوء هذه النشأة- أن تعلقت به الدلالتان معا: كونه أداة تعبيرية، وكونه فناً من الفنون الأدبية. وليس من الغريب أن تتنازع الكلمة هاتان الدلالتان؛ فالسجع بنية بلاغية بديعية تمتلك القدرة على نقل الكلام المنثور من حالة النثرية الخالصة إلى حالة جديدة ذات طابع إيقاعى مميّز. ولأن السجع يمكن أن يستغرق النسيج اللغوى للنص؛ لذا فقد صار التوسّع فى مفهومه إلى حد اعتباره نوعاً من أنواع المخاطبات الأدبية أمراً ليس بمستغرب فى التراث. ولقد سجّل "التهانوى" نقلا عمن تقدموه، خاصة شرّاح التلخيص، حقيقة تعدد المفاهيم الاصطلاحية للسجع. فالسجع يُطلق على: "نفس الكلمة الأخيرة من الفقرة باعتبار كونها موافقة للكلمة الأخيرة من الفقرة الأخرى... وقد يطلق على التوافق المذكور الذى هو المعنى المصدرى وبهذا الاعتبار قيل: السجع تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد فى الآخر، وقد يطلق على الكلام المسجّع، أى الكلام الذى فيه السجع، ويجوز أن تسمّى

---

(١) إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلانى، ت محمد عبد المنعم خفاجى، دار الجيل، بيروت، ط أولى، ١٩٩١، ص ١١٢- ١١٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٦.

الفقرة بتمامها سجعة تسمية للكل باسم جزئه". (١)

والملاحظ أن التقعيد البلاغى لبنية السجع كان نتاجا لهذه المفاهيم مجتمعة حتى عند أولئك الذين جعلوا للسجع مفهوما محدداً صدروا به مباحثهم عنه – وبعبارة أخرى– نقول إن دائرة الشرح والتقعيد كانت أوسع نطاقاً من حيز اشتغال المفهوم الذى دوّنوه فى صدارة مبحث السجع، ومن ثم فإن هذا العمل التقعيدى يستوجب الوقوف عنده للكشف عن كيفيّة تحرُّك التفكير البلاغى فى الشرح والتقعيد لهذه البنية البلاغية، وعن الخلفيات التى وجهت حركته.

[٢] التناول البلاغى لبنية السجع:

المتابعة التطبيقية الراصدة لأشكاله:

عَدَّدَ البلاغيون فى السجع ألواناً من الأداء، وهذه الألوان لا تئول إلى تجريدات ذهنية –كما هو الحال فى غير مبحث من مباحث البلاغة– فقد بدءوا منطقة حركتهم من الصياغة، وساقهم مراقبة تشكلاتها السجعية إلى رصد عدة أصنافٍ من السجع كانت –فيما يبدو– نتيجة حتميّة لجماع المفاهيم المقدّمة له. فقد تمخض الرصد عند شرّاح التلخيص مثلاً عن ثلاثة أوجه رئيسيّة للسجع، تتنزّل على سلّم القيمة، يربط بينها رابط جوهرى هو حدوث الاتفاق بين الأحرف الأخيرة من الفواصل، بوصف هذا الاتفاق الحقيقة الكلية التى ينبنى عليها السجع، وتتمايز تلك الأوجه من خلال متغير أسلوبى اعتمد عليه القدماء فى تفريع السجع وتصنيف أشكاله؛ إذ اعتبروا الوزن –بما له من شأن فى تكثيف الإيقاعيّة– مبدأ أساسياً فى تحديد وضع الفروع على سُلّم القيمة. بيد أن وجود الوزن يظل مجرّد إمكان؛ لذا فإن الغالبية نظروا إليه باعتباره متغيراً، لا يعيّن حقيقة السجع، ولا يوضح ماهيته. فلو قدّرنا انتفاء التواطؤ على حرف واحد فى النهاية لبطلت حقيقة السجع، ولا يحدث ذلك مع انتفاء الوزن. وأفْرُعُ السجع أو وجوهه عند شرّاح التلخيص هى:(٢)

---

(١) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوى، الداخس، دار صادر، بيروت، م٢، ص ٦٧٠.

(٢) انظر شروح التلخيص، سعد الدين التفتازانى، ابن يعقوب المغربى، بهاء الدين السبكى، جـ٤، ص ٤٤٦– ٤٤٧.

أولاً: السجع المطرّف:

وهو ما اتفقت فاصلتاه فى الحرف الأخير[1] دون الاتفاق فى الوزن، ومثلوا لذلك بقوله تعالى حكاية عن "نوح" عليه السلام ﴿مَّا لَكُم لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[2]. ففاصلة القرينة الأولى من التركيب السجعى تتفق مع فاصلة القرينة الثانية منه فى حرف الراء، ولكنهما مختلفتان وزناً. وسُمِّى هذا الوجه بالمطرَّف لأن قيمته الإيقاعية تكمن عند الأطراف حيث يَحِلّ التوافق الحرفى.

ثانيا: السجع المتوازى:

وهو ما اتفقت فاصلتاه فى الوزن إضافة إلى الاتفاق فى الحرف، نحو قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾.[3]

ثالثا الترصيع[4]:

وقد يمتد التوازى الصوتى والوزنى ليستغرق كافة كلمات التركيب السجعى أو أكثر ما فيه، كقول الحريرى: ((فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه)). ففى الترصيع توسيع لقاعدة المتوازى بحيث نلحظ أن كل لفظ مساو لما يقابله وزناً وتقفية، فيطبع مساو ليقرع، والأسجاع مساو للأسماع، والجواهر مساو للزواجر، والفاصلة مساوية للأخرى. ويصف

---

(١) مع عدم الاعتبار لألف الإطلاق أو هاء السكت التى تمثل علامات على الوقف، لا حروفا أصلية فى بنية اللفظة.

(٢) سورة نوح: ١٣- ١٤.

(٣) سورة الغاشية: ١٣- ١٤.

(٤) والترصيع كمصطلح مأخوذ من ترصيع العقد، وذاك، أن يكون فى أحد جانبى العقد من اللآلئ مثل ما فى الجانب الآخر. انظر: الصحاح للجوهرى=تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهرى، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٥٦، جـ٣، ١٢١٩.

العسكرى هذا المثال بكونه (سجعا فى سجع) مضيفاً أنه أفضل الوجوه.(١)

وقد حرص ضياء الدين بن الأثير على تحديد الشرط اللازم لتحقُق الترصيع، فألح على ضرورة بث الاتفاق الصوتى والوزنى فى كل أجزاء القرينتين، منتقدًا ما ذهب إليه بعض العلماء الذين خالفوا حقيقة الترصيع -كما تمثلها هو- حين أجازوا اتفاق القرينتين فى الجُلّ لا الكل. ويبدو أن تشديد ابن الأثير على هذا الشرط جاء بدافع إبعاد بعض النماذج القرآنية عن أن تكون ترصيعاً، على اعتبار أن الترصيع -كما يتصوّره- فيه زيادة تكلّف، ومن هذا المنطق كان يلزم أن يجد سببا لنفى الترصيع وما يستتبعه عن قداسة النص القرآنى، سببًا يرد به أدلة من ذهب من البلاغيين إلى أن فى كتاب الله تعالى شيئاً من الترصيع، فقد جعل الشرط السابق تُكأة اعتمد عليها فى دحض حجج المؤيدين لحضور الترصيع فى النص القرآنى، إذ يقول: "فأما قول من ذهب إلى أن فى كتاب الله منه شيئًا ومثّله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَ إِنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحيمٍ﴾ فليس الأمر كما وقع له؛ فإن لفظة (لفى) قد وردت فى الفقرتين معًا، وهذا يخالف شرط الترصيع الذى شرطناه [وهو أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثانى فى الوزن والقافية] -لكنه قريب منه".(٢) ولا يميل البحث إلى الاتفاق مع رؤية ابن الأثير فى أمر هذا الشرط الذى وضعه لتحقيق الترصيع، فإن علماء البلاغة حينما ترخصوا فى ضرورة حدوث التوازى الصوتى والوزنى بين كل أجزاء القرينتين، واكتفوا بحضوره فى بعضها إن لم يكن حاضراً فى الكل فهم إنما كانوا ينطقون بما أملته النصوص الأدبيّة التى تَجسّد فيها الوجهان معاً بما لهما من أساسٍ واحدٍ لا يصح معه إدراجُ أحد الوجهين تحت بنية بلاغية جديدة، أو ضرب الصفح عن أحدهما.

هناك -إذن- عملية تتبع لحيّز اشتغال السجع تدريجيًا من الأقل فالأكثر، من حيز ضيّق التوافق فيه لا يتجاوز الحرف الأخير من الفقرات، إلى نطاق أوسع يركز فيه البلاغيون على دوال الفواصل، ويتابعون ما قد ينضاف إلى التواطؤ الحرفى المذكور من تواطؤ وزنى من شأنه أن يُسهم فى تكثيف الإيقاع، لا على مستوى الحرف الأخير، ولكن على مستوى اللفظة الأخيرة بكاملها.

---

(١) انظر: الصناعتين: الكتابة والشعر، أبو هلال العسكرى، ص ٢٨٨.

(٢) المثل السائر، ابن الأثير، جـ١، ص ٢٥٨.

وتتسع المساحة الرصدية التى مارس القدماء فيها دراستهم لأوجه السجع، فنرى بعضا منهم يدخل الترصيع ضمن هذه الأوجه. والحق أن هذا التوجّه البلاغى له مبرراته التى تتسق مع اتساع الإطار المفهومى للمصطلح، ذلك الاتساع الذى فرض نفسه على عمليّة التقعيد، وأفضى إلى وجود حديث عن الأوجه التى بيّناها، والتى تعد امتدادًا بالسجع إلى خارج نطاق اشتغاله الأصلى الذى يحدده التعريف الاصطلاحى بأنه توافق الأحرف الأخيرة من الفواصل. غير أننا نجد بعضا ممن وعوا ذلك التعريف، يعدلون عن اعتبار الترصيع من السجع ويختصونه بمبحث وحده باعتباره بنية بلاغية مستقلة.

أثر التعريف بالمشابهة فى صياغة بعض القواعد الخاصة بالسجع:

لا جدال فى أن تعريف السجع بطريق الإحالة على القافية -قد مثّل حركة خفيّة أفرزت عددا من المسائل المتصلة بالشرح والتقعيد لهذه البنية البلاغيّة. فقد استحوذت طريقة التعريف بالمشابهة على مجامع التصوّر النقدى عند كل من "بهاء الدين السبكى" و"ابن يعقوب المغربى"(١) حتى إنهما عَامَلا السجع معاملة القافية، إذ قاما بتطبيق بعض خواصها الكيفية عليه. ويتبدى ذلك فى تأكيدهما أن الوزن فى السجع هو الوزن الشعرى، قال السبكى: "ينبغى أن يكون المعتبر هو الوزن الشعرى لا التصريفى".(٢) وأول ما يشار إليه بصدد هذا الرأى هو أنه صِيغ نتيجة التحرُّك التقعيدى فى إطار المقايسة؛ مما أفضى إلى الحديث عن وزن شعرى معتبر فى السجع قياساً على الإجراء الوزنى المعروف فى التعامل مع القافية. وفى تقديرى، أن هذا الحديث يثير إشكالاً حول خصوصيّة الجنس الأدبى الحاضن للسجع، مفاده؛ هل تتعارض طبيعة هذا الجنس الأدبى مع إجراء الوزن الشعرى فيه أم لا؟

---

(١) رأينا صورة من هذا من قبل فى الوقفة المتأنية التى أفردها "ابن يعقوب" لاستكناه مفهوم السجع فى ضوء التَماسّ بينه وبين مفهوم القافية. فالظاهر أن التعريف بالمشابهة قد مثّل مقدّمة انطلق منها شرّاح التلخيص أثناء بحث عدد من قضايا السجع.

(٢) عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكى، ضمن شروح التلخيص، جـ٤ ص ٤٤٦، وانظر، مواهب الفتّاح فى شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربى، جـ٤، ص ٤٤٩.

أحاط الدارسون بما جاء غلى لسان "السبكى" و"ابن يعقوب"، لكنهم اكتفوا بالإحاطة والنقل عنهما دون الإجابة عن عدة تساؤلات منها: لماذا كان وزن السجع وزناً شعرياً هو الأصح من وجهة نظر الرجلين؟ هل توجد أسباب أخرى غير طريقة التعريف -جعلتهما يَعْدِلان عن القول بالوزن التصريفى الذى عناه غالبية البلاغيين إلى القول بالإجراء الوزنى الشعرى؟ ثم لماذا كان اعتبار الصيغة الصرفية يمثل ملحظاً ثابتاً فى مؤلفات الغالبيّة؟ ولماذا لم يقل البلاغيون بالوزن التصريفى فى تعاملهم مع القافية؟ هل أدركوا لكل من السجع والقافية خصوصيات جعلتهم يعمدون فى هذا إلى الصيغة الصرفية وفى تلك إلى الوزن الشعرى؟

لقد جرى التمييز بين وجهين للوزن يمكن إجراؤهما فى التعامل مع السجع، وزن تصريفى هو المعتبر من وجهة نظر غالبية البلاغيين، ووزن شعرى قال به صاحبا شروح التلخيص انطلاقا من ثبات المفهوم الذى يؤكد مشابهة السجع للقافية. والإجراءان يسترعيان الانتباه لما يثيرانه من تساؤلات على نحو ما قدّمت.

ونلج من مدخل أحسبه ذا قيمة فى استكناه أسباب الفريق الأول فى القول بالإجراء الوزنى التصريفى. فيتحتم النظر -بادئ ذى بدء- فى كل من الشعر والنثر للوقوف على الخصوصيّة التى تميز كل نوع منهما عن الآخر، إذْ من المفترض أن إدراك هذه الخصوصية كان الموجِّه الأساسى فى تحديد طبيعة الإجراء الوزنى المعتبر فى التعامل مع السجع، وذاك المعتبر فى التعامل مع القافية.

إن قضيّة الفرق بين الشعر والنثر قضية تمهيديّة جوهريّة؛ بوصف القافية بنية شعريّة، والسجع بنية نثرية. والافتراض الذى يطرح نفسه هو أن ارتباط كل بنية منهما بجنس أدبى حاضن لها كان المرتكز الأساسى الذى أملى على النظر البلاغى إجراءاته التحليليّة، وتحددت فى إطاره الملامح الوصفيّة للبنيتين.

ولئن كان البحث ينطلق من يقين بوجود تناقض شكلى بين النوعين: الشعر والنثر، فإنه لا يتجاهل ما يكون بينهما من نقاط التقاء أقرها النقد العربى القديم فى قول حازم القرطاجنى (ت٦٧٤هـ) "إن صناعة الشعر تستعمل يسيراً من الأقوال الخطابيّة، كما أن الخطابة تستعمل يسيرًا من الأقوال الشعرية لتعتضد

المحاكاة فى هذا بالإقناع، والإقناع فى تلك بالمحاكاة".[1] هذه اللفتة الخطيرة، تشير إلى ما بين الشعر والنثر من تميّع الحدود، وبرغم صحة ما جاءت به، فإنه لا يمكن إنكار ما ينطوى عليه النوعان من ظواهر تؤكد تمايزهما "ومدخل التمايز الأصيل عند القدماء يعود -غالبا- إلى الإطار الشكلى، وهو ما اتكأ عليه كثير منهم كقدامة وابن طباطبا العلوى وابن رشيق ومن سار على دربهم".[2]

والحق أن البحث البلاغى فى سعيه لضبط خصائص كل نمط بالتركيز على ما يتمتع به من فرادة شكلية -استطاع أن يضع يده على الخاصيّة النوعية المميزة لكل من الشعر العمودى والنثر الأدبى، وتتأكد منهجيته عند متابعة وصفه لبنية خلصت للشعر "كالقافية" وأخرى خلصت للنثر "كالسجع" إذ يتكشّف أن المواصفات التى أسندتها البلاغة لكل بنية كانت تتسق مع الخاصية النوعية للجنس الأدبى الحاضن لها. فالشعر تتأتى له طبيعة مفارقة من جهة بنائه الصوتى المتسم بالانتظام. والانتظام مفهوم شكلى علّقه القدماء بالوزن والقافية، وإنٍ ارتقى الأول مكانة خاصة، من حيث اعتبر الركن الأهم من أركان الشعر، يُمَكّن له فى جنسه بقدر اشتماله عليه، يقول ابن رشيق (ت٤٦٣هـ) "الوزن أعظم أركان حد الشعر وأوْلاهَا به خصوصية".[3] ويرى حازم القرطاجنى أن "الأوزان مما يتقوّم به الشعر، ويُعد من جملة جوهره".[4] فهو أهم المداخل إلى نظرية الأنواع فى الإبداع الأدبى القديم، من حيث يكون لحضوره تأثير خاص فى الفعل الشعرى، وعاه النقاد العرب حينما تحدثوا عن مزيّة الشاعر المتأتية من تقيّده بنظامين مختلفين عليه أن يُراكِب بينهما: نظام إيقاعى متمثل فى وجود قالب وزنى يكون -قبل الحدوث الحقيقى للفعل الشعرى- اعتباريّاً وسابقًا على الكلام. ونظام لغوى متضمن لعناصر الدلالة المعجمية والنحوية. وأثناء قيام الشاعر بإذابة النظامين فى مساحة البيت، يضطلع الميزان الإيقاعى النظرى بدور الموجِّه حيث "تكون اللغة فى الشعر مشدودة دلالات وهياكل إلى هذه البنية

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنى، ت: محمد الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦، ص ٢٩٣.

(٢) البلاغة العربية قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، لونجمان، ط أولى، ١٩٩٧، ص٣٢.

(٣) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانى، حققه محمد محى الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٨١، جـ١، ص١٣٤.

(٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجنى، ص ٢٦٣.

المتسلطة، فيصبح الفعل الشعرى فعلاً تحويلياً يغيّر من طبيعة اللغة ذاتها، بما أنه يعيد صياغتها صياغة تستجيب لمقتضيات النسقين".[1]

وهكذا ندرك لماذا ينبغى وزن القافية وزنا شعرياً؛ فالقافية تنتج من تزاوج النظامين: الإيقاعى واللغوى، ومن ثم فإن وزنها يكون جزءًا من الميزان العروضى العام للبيت ويُستَخْدَم فى تحديد وزنها الأساس اللغوى للوزن الشعرى، وهو الحركة (/) والسكون (٥) أو ما يُطْلَق عليه "الفونيم الإيقاعى".

هذا بالنسبة للقافية، أما فيما يتعلق بوزن السجع وزنا صرفيّا، فإن ذلك المسلك يجد هو أيضا تفسيره الخاص بالنظر إلى طبيعة النثر. فالبنيات النثرية لا تقوم على مبدأ التعاقب فى الزمن، ولا يتسلط بها قالب اعتبارى سابق على الكلام؛ أقصد البحر الشعرى، فهى حرّة إلا من توجيه المعنى الذى يكون مُتمثّلاً فى الذهن ثم يخرج فى صورة مادية من خلال عمليتى: اختيار المفردات والتأليف بينها، على معنى أن الخطاب النثرى ينشأ عن نظام وحيد وهو النظام اللغوى مفردات وتراكيب. هذا هو الشىء الذى تفطّن إليه القدماء، إذ أدركوا، وهُم يحددون الطبيعة المفارقة للجنسين: الشعر والنثر، أن الكلام فيهما يجرى على وجه مغاير، من حيث يتحكم نظامان فى بنية الخطاب الشعرى، بينما يتحكم نظام واحد فى بنية الخطاب النثرى. ومن هذا المنطلق، وجدنا البلاغيين فى تعاملهم مع النثر والنثر المسجوع، يبحثون عن بديل للفونيم الإيقاعى بوصفه أساسًا وزنيًا يمثل خبرة مشروطة ببنيات التفاعيل.

فمن المعلوم، أن الدوال فى النثر تتحرّك متحررة من الارتباط بتفعيلة، أو بمعنى أدق، متحررة من الارتباط بميزان نظرى كالذى قامت بحور الشعر ببلورة أشكاله. غير أنه ربما خلّفت حركة الدوال داخل الجمل المتتابعة بعض التوازنات الوزنية نتيجة التقابل المكانى بين دالين لهما نفس الهيئة. ومن هنا ظفر الدال بعناية مضعّفة بصفتيه الإفراديّة والتركيبية،[2] ثم من جهة ربط عمليّة الوزن الإيقاعى فى النثر بحدود الكلمة التى صارت مجال النظر الوزنى فى

(١) الشعر وصفة الشعر فى التراث، حمادى صمود، (فصول) مجلة النقد الأدبى، تراثنا النقدى، جـ الأول، م٦، ع١، أكتوبر، ديسمبر ١٩٨٥، ص ٧٨.

(٢) يعرّف أحمد مختار عمر "الكلمة" بأنها: "مصطلح له فى المقام الأول مغزى نحوى". راجع دراسة الصوت اللغوى، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط أولى، ١٩٧٦، ص ٢٤٠.

غيبة التفعيلة، وبالتأكيد كان هذا الربط وراء ترشيح الصيغة الصرفيّة بوصفها أساسًا للوزن داخل القول المنثور. وصلاحية الميزان الصرفى فى التعامل مع النثر راجعة إلى كونه معيارًا "يؤتى به لكى تحدد من خلاله هيئة الكلمة"(١) التى قلنا إنها مجال النظر الوزنى فى النثر، وهذا بخلاف الوزن الشعرى الذى ارتبط فى ذهن القدماء بتحديد هيئة التفعيلة.

والخلاصة؛ كان البحث قديما عن أساس آخر لوزن السجع أمرا يتلاءم مع طبيعة النثر والوحدة الموزونة فيه. وإن كان البحث يرى أن الاعتماد على الوزن التصريفى المعروف فى الدرس الصرفى القديم له مثالب لا تغفل، أهمها: أنه لا يتعامل إلا مع الكلمات التى أقرها الدرس الصرفى، وهى الأفعال المتصرِّفة، والأسماء المتمكنة المعربة، أمّا المبنيات من الأسماء كالضمائر، وأسماء الشرط، وأسماء الأفعال، وكذلك الأفعال الجامدة والحروف، فإنه يطرحها نهائياً من حساباته؛ ومن ثم فلا يمكن عن طريق الوزن التصريفى تحديد صيغة الفاصلة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾(٢)؛ لأن الفاصلة -هنا- واحدة من الضمائر وُقِفَ عليها بهاء السكت.

ومن مثالب الوزن التصريفى -أيضا- أن توازى صيغ الكلمات لا يكون مصحوبا دائماً بترديد لصورة صوتيّة واحدة، مما يعطى مؤشرًا على توازن ناقص. فالكلمات (صادقون، خاشعون، كافرون) تتوازى صرفيا، كما أن لها فى النطق نفس الصورة الصوتية. أما الكلمات (قال، سعى، ضرب) فإنها تتوازى على مستوى الصيغة الصرفية فقط، فالميزان الصرفى يقابل كل كلمة منها بزنة (فَعَلَ)، بينما تكون صورها الصوتية مختلفة تماما،(٣) فكلمة (قال): يتم نطقها على

---

(١) من وظائف الصوت اللغوى، محاولة لفهم صرفى ونحوى ودلالى، أحمد كشك، ط١، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٩.

(٢) سورة القارعة: ١٠.

(٣) يرجع التعارض بين الصيغة الصرفية والصورة الصوتية إلى اعتماد الميزان الصرفى على فكرة الأصول، حيث يؤسس معيارًا مفترضاً يصبح حاكما للواقع المستعمل للكلمة، فنجده يزن كلمة (قال) بزنة (فَعَلَ)، وما كان هذا الوزن موافقاً لمنطوق هذه الكلمة، وإنما هو موافق لأصلها المفترض وهو (قوَل) بفتح الواو فالدرس الصرفى يعتبر "الواو" -هنا- أصلا فى جذر الكلمة،

كتلتين (قا– لَ) القاف والألف المد وحدة نطقيّة، واللام وحركتها وحدة نطقية أخرى. وكلمة سعى: يتم نطقها على كتلتين كذلك وإن اختلفت كيفية صورتها الصوتيةعن الكلمة السابقة (سَ – عى) فالسين وحركتها وحدة نطقية، والعين وياء اللين وحدة نطقية أخرى. أما كلمة ضَرَبَ فهى مكوّنة من ثلاث وحدات نطقيّة – (ضَ– رَ– بَ)– الضاد المفتوحة، ثم الراء المفتوحة،ثم الباء المفتوحة. ونخلص من هذا التحليل إلى أن البنية الصوتيّة المقطعية للكلمات السابقة تختلف كَمّاً وكيفاً؛ نتيجة عدم توالى الصوامت والحركات فى نسق موحَّد، وبالتالى فإن الكلمات ليست موزونة إلا فى إطار ما أقرّه الدرس الصرفى من زنتها.

وبالمقابل؛ فإن عدم اتفاق الصيغة الصرفية لا يعنى بالضرورة افتقاد التوازى الإيقاعى الصوتى، فالصيغ الصرفية قد تكون متغايرة ومع ذلك يلاحظ أنها تضمر الاتزان على مستوى توازى البنية المقطعيّة للدوال، ففى قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى، الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى﴾[١]، نجد أن كلمتى (الأشقى، والكبرى) تتفقان فى البنية المقطعية على هذه الشاكلة

الـ	-	أش	-	قى
ص ح ص	-	ص ح ص	-	ص ح ح
الـ	-	كب	-	رى

فالصوامت والحركات تتردد على النسق نفسه، مع الأخذ فى الاعتبار أن الصيغة الصرفية لكلمة (الأشقى) هى (الأفْعَل)، والصيغة الصرفية لكلمة (الكبرى) هى (الفُعْلَى).

ولعل شُرّاح التلخيص حينما ذهبوا إلى إجراء "الوزن الشعرى" فى التعامل مع الفواصل المسجوعة –كانوا يصدرون عن وعى بالمثالب التى ذكرناها للوزن التصريفى، وينطلقون من رصد أمثلة يحضُر فيها التوازن الصوتى وإن غاب توازى الصيغ الصرفية. فقد أشار "ابن يعقوب المغربى" إلى هذه الملاحظة وهو بصدد شرح السجع المتوازى، حيث قال: "وقد يختلف النصف المقابل فى الوزن فقط ويكون متوازيا كقوله تعالى: ﴿وَالمُرْسَلاتِ عُرْفاً، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾[٢]

وأن تطوّرها أو صيرورتها إلى حرف الألف لا ينفى كونها أصلاً، وبذا يسوى الميزان الصرفى بين حرفين أحدهما صحيح وهو "الواو" والأخر حرف مد، هذا إضافة إلى كونه يسوى بين صورتين صوتيتين مختلفتين كمّاً وكيفًا. ولمتابعة هذه المسألة باستفاضة راجع: من وظائف الصوت اللغوى، أحمد كشك، ص ٢٠– ٢٥.

(١) سورة الأعلى: ١١– ١٢.

(٢) سورة المرسلات: ١– ٢.

فالمرسلات مع العاصفات متفقان تقفية ولم يتفقا وزناً وكل مَنهما نصف القرينة، كذا قيل وفيه نظر؛ لأن المعتبر من الوزن هنا الوزن الشعرى كما قيل لا الوزن النحوى، وعليه فهما متوافقان إذ المتحرك فى مقابلة المتحرّك والساكن فى مقابلة الساكن وعدد الحروف المنطوق بها واحد فيهما وإن كان وزن المرسلات فى النحو "المفْعَلات" والعاصفات "الفَاعِلات"".[١] تستحق هذه المقولة منا وقفة، فابن يعقوب يُردِف "الوزن التصريفى" بعبارة "الوزن النحوى"، وقد يعنى هذا أنه يدرك منذ البداية أن للوزن التصريفى هدفاً أو وظيفة لا اعتبار لها فى هذا الباب؛ فالوحدات "فى الصرف ليست مجرد صيغ أو صور لفظيّة خالية من المعانى النحوية، وإنما هى وحدات ذات قيمة نحوية على مستوى التركيب".[٢] بمعنى أنه يترتب على حضور صيغة صرفية معينة داخل تركيب معيّن ظهور خواص نحويّة معينة فى الجملة أو العبارة. وبما أن هذا الدور الوظيفى الصرفى لا يعنينا فى مبحث السجع، وبما أن قضية الوزن فى السجع هى الدور الوظيفى الصرفى لا يعنينا فى مبحث السجع، وبما أن قضية الوزن فى السجع هى فى أساسها قضيّة إيقاع؛ لذا فإنه يكفى فى تقديره أن يكون عدد الحروف المنطوق بها فى الفاصلتين واحدا، وأن يكون للصوامت والحركات النسق نفسه فى التوالى، أى أن تكون للفواصل البنية الصوتية المقطعية نفسها. وقد أعمل ابن يعقوب هذا المعيار مكتفياً به، وفى غيبة معرفة القدماء بمفهوم المقطع اللغوى، اتجه الرجل إلى "الوزن الشعرى" يحدد من خلاله مدى تحقق الاتزان الإيقاعى بين الفواصل. واستخدام الوزن الشعرى يجد تبريره لدى البحث، ذلك أن هذا الوزن يمكن أن يكون قائمًا على الإحساس بمسألة "المقطع اللغوى".

التشكيل المسافى للعبارات المسجوعة:

من متابعة الدرس البلاغى فى فهمه لمصطلح السجع تبيّن لنا أن ثمة حضورًا لزاويتين من وجهة النظر، أولاهما: تعتبر السجع أداة من أدوات التعبير البديعى، وتُعنى -أول ما تُعنى- بتحديد البعد المكانى لعمله، وقد تبنّى هذه الرؤية جمهور البلاغيين. أمّا الزاوية الأخرى: فإنها تعد السجع نوعًا أدبيًا شأنه فى ذلك شأن الشعر وفنون النثر من رسالة وخطبة ... إلى آخره.

---

(١) مواهب الفتاح، ابن يعقوب المغربى، جـ٤، ص٤٤٩.

(٢) من قضايا اللغة، مصطفى النحاس، مطبوعات جامعة الكويت، ط١، ١٩٩٥، ص ١٨٥.

والأمر اللافت أن زاويتي النظر هاتين لم تقفا على طرف نقيض فى تناول السجع وشرح قوانينه وشروطه؛ فمن الملاحظ أن أصحاب وجهة النظر الأولى تجاوزوا فى توصيفهم لتقنيات السجع وفى تحديدهم للشروط الواجبة فيه -المنطقة المحددة له بوصفه وسيلة تعبيرية قائمة فى بنية التراكيب وذات بعد مكانى محدد، فقد بدت تحركاتهم الشكليّة والعميقة كما لو كانت تهدف للوصول إلى إلمام كافٍ بالصورة التى عليها الخطاب المسجوع، على معنى أن أصحاب هذه النظرة اتّجهوا بالسجع إلى معنى النوع الأدبى. وأوّل أدلة هذا التوجه الملاحظات التى ذكرها البلاغيون حول طول العبارة المسجوعة فقد بحثوا ذلك الأمر تفصيلاً، وانشغلوا باكتشاف البناء الإيقاعى للسجع انشغالهم بدراسة البناء العروضى للشعر. وحول هذا الأمر كتب عبد الفتاح كيليطو فى إحدى مقالاته المعنيّة بدراسة فن المقامة يقول إنّ "السجع يفترض وجود نسق وزنى أقل صلابة بالتأكيد من ذلك الموجود فى الشعر ولكنه مع ذلك يخضع لبعض القواعد التى لم يقصّر البلاغيون فى تقنينها"[(١)] حيث اتجهوا -مدفوعين بفهم طبيعة الأدب- إلى النظر فى التشكيل المسافى للكلام المسجوع لرصد ما يمكن أن يتخلق عن ذلك التشكيل من صور التوازن التى تسهم فى تكثيف الإيقاعية. فدراسة عروض السجع أو التشكيل المسافى له تأتت من وعى مبكر بقيمة التوازنات المنتظمة فى الخطاب الأدبى عموما مقارنة بالحديث العادى. "فإنه ينبغى أن نلاحظ أن الخطاب المستعمل عادة لا يُعنى كثيرًا بخلق توازنات منتظمة، وهو لا يبدأ فى تشكيل هذه التوازنات إلا عندما يبتعد عن الاستعمال المتوسط ويشرع فى الترتيب الجيد للكلمات، وعندئذ يهدف إلى تحقيق غرض فعّال غريب عن الرسالة التى تتوخى مجرّد التوصيل، لافتا للنظر إليها فى ذاتها، ومبرزًا تميزها التعبيرى"[(٢)]. وانطلاقا من الوعى بطبيعة الأدب قام البلاغيون بالبحث فى البناء الإيقاعى للسجع، وكان خفوت الإيقاع الوزنى التفعيلى أول ما يصدم الذوق الذى نمّاه تأسيس جماليات الأدب داخل حقل الشعر، فراح البلاغيون يبحثون عن إجراءات أخرى لدراسة النسق الإيقاعى،

---

(1) Le Genre séance: « une introduction »; Abdelfatah Kilito‹ studia Islamica, 43 (1976), p 29.

(٢) بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، ع ١٦٤، ١٩٩٢، ص ٨٨.

ويلاحقون البنيات الإيقاعية التى يَسْمح بها النص المسجوع، فكانت دراسة التشكيل المسافى هى إحدى مظاهر ملاحقة الإيقاع.

ودراسة التشكيل المسافى -بتعبير القلقشندى- هى: "ترتيب السجعات بعضها على بعض فى التقديم والتأخير باعتبار الطول والقصر".[1] وتحديد طول العبارة المسجوعة يتم عن طريق عد "الألفاظ" التى تحتوى عليها. فلقد أدرك القدماء أنه لا يمكن الاعتماد على التفعيلة الشعرية فى قياس مسافة العبارة المسجوعة، فالتفعيلة لها قانون محدد قائم على تتابع فونيماتها فى الزمن وتحطيم هذا التتابع هو الذى خلق الحوار حول ضرورة قياس المسافة بغير مقياس الشعر، فاستخدم البلاغيون اللفظة بوصفها وحدة قياس وقسموا العبارات المسجوعة -تبعا لعدد الألفاظ- إلى عبارات قصيرة وأخرى طويلة. وجعلوا أقل ما يكون من القصيرة "لفظتين" وأزيد ما يكون منها عشرة ألفاظ، وما زاد على هذا العدد فهو من العبارات الطويلة.

ويضع أبو العباس أحمد القلقشندى حدًا أقصى لطول العبارة المسجوعة اعتمادا على الحد الأقصى لطول العبارة المسجوعة فى القرآن الكريم، وهو عشرون لفظة، ومن ثم يقرر أنه "ينبغى أن يكون ذلك نهاية الطول فى السجع وقوفًا مع ما ورد به القرآن الكريم الذى هو أفصح كلام، وأقوم نظام".[2] وبرغم ذلك التشديد على الطول المسموح به فى العبارة المسجوعة -يسجل القلقشندى آراء ذات قيمة لكل من ضياء الدين بن الأثير، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى وغيرهما ممن صرحوا بأنه لا ضابط للسجع الطويل ويبدو للبحث أن هؤلاء العلماء كانوا على صواب فيما صرحوا به، ففى القرآن من الآيات المسجوعة ما يزيد طوله بكثير عن العشرين لفظة، كما أن فيه من الآيات ما يتكوّن من لفظة واحدة مثال قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ القرْآن﴾[3]، وقد أغفل البلاغيون هذه الظاهرة حينما ذكروا أنّ السجع القصير أقل ما يكون من لفظتين، والظاهر أن رأيهم هذا كان قائما على مراعاة الحد الأدنى من الجملة التامة، أو ما يمكن

---

(١) صبح الأعشى، تأليف الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٨، جـ٢، ص ٢٨٧.

(٢) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٨٧.

(٣) سورة الرحمن: ١-٢.

تسميته "المكوّن التركيبى الأصغر"؛ ويُقصد به: الجملة المكوّنة من تأليف أقل عدد من الوحدات الصرفية. وثمّة اعتراضات يمكن أن تُقدَّم بوصفها ردًا على رؤية البلاغيين فى هذه المسألة، فإن تعبيراً من مثل (ينصرونه) هو لفظة واحدة ولكنها فى عداد جملة تامة إذ تشتمل على فعل وفاعل ومفعول، ثم إن انتهاء العبارة المسجوعة ليس مؤشرًا بالضرورة على حدوث انفصال دلالى بينها وبين العبارة التالية، فالكلام المسجوع لا يتوخى الجمع بين كل من الوقف الصوتى والوقف الدلالى، بل ربما يجىء الوقف حيث لم يكتمل المعنى الذى يمتد فى العبارة التالية وقد يكون التعبير المتمم لفظة واحدة تكميليّة،[1] كما فى قوله تعالى من سورة الرحمن: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ، فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، مُدْهَامَّتَانِ﴾.[2]

ولقد اعتبرت المسافة التعبيرية موضوعا سيميوطيقيا، فاهتم صاحب "حسن التوسّل" برصد دلالات الأشكال الخطية طولاً وقصرًا، فهو يرى أن العبارات القصار ''تدل على قوة التمكّن وإحكام الصنعة''[3] أما العبارات الطوال ''فهى ألذ فى السمع؛ يتشوّق السامع إلى ما يرد متزايدا على سمعه''[4] وتعد هذه الآراء محاولة عربية موغلة فى القدم لدراسة الأدلة الخطية من خلال ربطها بما تتطلبه الطباع وما تفرزه القدرات. فقد ربط شهاب الدين الحلبى الشكل المسافى بالشخصية المنتجة له حيناً، وبالشخصية المتلقية له حينًا آخر. ومن الواضح أن هذه المحاولة مسكونة بتوجه حرص على أن يبرر كلا الوجهين: الطول والقصر؛ وذلك لاحتواء النص القرآنى على الوجهين معًا. فإن السجعات الطوال

---

(١) إن ما يحدث فى العبارة المسجوعة من عدم الجمع بين الوقفين: الصوتى والدلالى لا يحدث فى البيت الشعرى لأنه ضد التقاليد الموروثة التى حرصت على الحد من الصراع بين الوقفين العروضى والدلالى. راجع فى إيضاح هذا الأمر كتاب، بناء لغة الشعر، جون كوين، ترجمة. أحمد درويش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة كتابات نقدية، كتابات نقدية ع٣، ١٩٩٠، ص ٦٦- ٦٧.

(٢) سورة الرحمن: ٦٢-٦٤.

(٣) صبح الأعشى، القلقشندى، جـ٢، ص ٢٨٦.

(٤) المصدر نفسه، جـ٢، ص ٢٨٦.

لم تكن من تقاليد السجع الموروثة،[1] أى أن تلك القيم الدلالية والجمالية التى ذكرها "الحلبى" كانت مرتبطة بثقافة معينة، ونص مقدّس، اتخذ البلاغيون بنيته الشكلية معيارًا لتحديد الحد الأدنى والحد الأقصى من عدد الوحدات الخطيّة الداخلة فى المسافة طولا وقصرا.

ويقدّم "ابن الأثير" مجموعة من الإمكانات التعبيرية المتصلة بترتيب العبارات المسجوعة باعتبار الطول والقصر، فيذكر أربعة قوالب مكونة من فقرتين أو ثلاث[2] مع تقييم كل قالب منها.

القالب الأول: عبارة عن سجعات متساوية الطول لا تزيد ألفاظ إحداها على الأخرى.[3] ويمثل ابن الأثير لذلك القالب بقوله تعالى: ﴿وَالعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فالمورِيَاتِ قَدْحًا، فَالمغيرَاتِ صُبْحًا﴾.[4] وقوله: ﴿فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ، وأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾.[5] ويتبيّن من متابعة السجع القرآنى أن هذا القالب قد يمتد ليشمل أكثر من ثلاث عبارات متساوية الطول، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ، وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا العِشارُ عُطِّلَتْ، وَإِذَا الوُحُشُ حُشِرَتْ، وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ، وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الموءُودَة سُئِلَتْ، بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ، و وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ، وَإِذَا

---

(١) وكذلك، لم يكن تفاوت الأطوال من تقاليد السجع فى الإبداع الجاهلى، ولعلنا نتذكر قول الباقلانى فى هذا الشأن "متى اضطرب أحد مصراعى الكلام المسجّع وتفاوت كان خبطا" إعجاز القرآن، الباقلانى، ص ١١٣، وقد اتخذ الباقلانى من ذلك قاعدة تدعم رفضه لورود السجع فى القرآن.

(٢) الملاحظ أن ابن الأثير قد استنبط هذه القوالب من سجع القرآن، فكانت أغلب الأمثلة التى ساقها فى هذا الباب أمثلة قرآنية.

(٣) معلوم أن الأساس العروضى للسجع عند القدامى، بصفة عامة، هو اللفظة، ومع ذلك نلاحظ أن الأمثلة التى ضربها ابن الأثير لا تتساوى فى عدد الألفاظ فحسب، بل تتساوى كذلك فى عدد المقاطع الصوتية الداخلة فى تكوين كل آية، وهذا يكشف عن موهبة من مواهب ذلك البلاغى الذى أرى أنه كان يمتلك إحساسًا عميقًا بالإيقاع العددى.

(٤) سورة العاديات: ١-٣.

(٥) سورة الضحى: ٩- ١٠.

الجَحِيمُ سُعِّرَتْ، وَإِذَا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ، عَلِمَت نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾.[١] فهذه وحدة سجعية تشتمل على أربع عشرة آية، يوجد من بينها ثلاث عشرة آية متساوية الأطوال، كل منها ثلاثة ألفاظ[٢]، ويتجلى عبر هذه الوحدة تنظيم أسلوبى بالغ الوضوح، حيث تبدأ الآيات جميعها بنفس الصيغة وتتخذ البناء النحوى نفسه. متمثلة فى صور متتابعة من الشرط، موضوعاتها أمور مستقبليّة تكشف عن اثنى عشر مشهدًا من مشاهد البعث، وفيها يسهم التوازى النحوى فى خلق إيقاعيّة تتزايد مع وجود التوازى العددى فى كم الألفاظ. ويعد التوازى الإيقاعى المتجلى فى هذه الوحدة السجعية من خلال التتابع اللفظى المنتظم كميًا مثيرًا سمعيًا يعكس طرفا من الجمال الموسيقى فى النظم الصوتى القرآنى تَجْمُل به التلاوة، ويَعْذُب به الجرس.

ويقرر ابن الأثير أن السجع المتساوى الأطوال أشرف أنواع السجع منزلة. وهناك تصورات مماثلة تؤكد ثبات هذا الحكم القيمى فى العقل البلاغى والنقدى القديم. فها هو "بهاء الدين السبكى" يقول: "أحسن السجع ما تساوت قرائنه ليكون شبيهًا بالشعر فإن أبياته متساوية"،[٣] ويضيف "ابن يعقوب المغربى" أن "أحسن هذا الأحسن أقصره قرينة لصعوبة إدراكه وعزة اتفاقه ولقرب سجعه من السجع بخلاف التطويل".[٤] ويبدو أن ابن يعقوب يردد تصوّرا نقديًا راسخًا، إذ نعثر فى مقولات الجاحظ (ت٢٥٥هـ) على تبرير آخر لحسن السجع القصير المتساوى الأطوال، إذ يقول إن "الكلام إذا قل وقع وقوعًا لا يجوز تغييره، وإذا طال الكلام وجدت فى القوافى ما يكون مجتلبا ومطلوبا مستكرهًا".[٥] ولقد حاول النقاد أن يقدّموا تبريرات تدعم الحكم بأفضلية السجع المتساوى الأطوال على باقى صور السجع وإن تَمحّل أكثرهم فى إيجاد العلّة الحاكمة بذلك، قال السبكى: "وعلته أن السمع ألف الانتهاء إلى غاية فى السجعة الأولى فإذا زيد

---

(١) سورة التكوير: ١- ١٤.

(٢) بالنسبة لعدد المقاطع الصوتيّة فى كل آية من هذه الآيات، فهو يجرى على النحو الآتى: [٧، ٩، ٩، ٩، ٩، ٩، ١٠، ٨، ٩، ٩، ٩، ٩، ٩، ٩ مقاطع].

(٣) عروس الأفراح، السبكى، جـ٤، ص ٤٤٩.

(٤) مواهب الفتاح، ابن يعقوب المغربى، جـ٤، ص٤٤٩.

(٥) البيان والتبيين، الجاحظ، جـ١، ص٢٧٦.

عليها ثقل عليه الزائد لأنه يكون عند وصولها إلى مقدار الأولى كمن توقع الظفر بمقصوده من فهم المراد له ولم يجده أمامه".(١) ويضع ابن الأثير تبريرًا أبعد غورًا يُفْهَمُ منه أن "الاعتدال" المصاحب لتساوى الأطوال هو الأساس الذى حَكَمَ منطقه فى ترتيب تساوى أطوال العبارات المسجوعة على سلّم القيمة.

والواقع أن الحكم الذى أصدره القدامى فى هذا الصدد يعود إلى تقدير زائد للإيقاع بوصفه قيمة جمالية لها ارتباط بِنَفْس الإنسان التى تميل ميلا غريزيًا إلى الاتساق والهارمونية. ويبدو أن رؤية القدامى فى مسألة السجع المتساوى الأطوال كانت مواكبة لروح عصر كان فيه الإيقاع هو مدار البحث البلاغى حتى إن قدامة بن جعفر قد ذكر عددًا من المباحث تدور كلها حول تحقيق الإيقاع الزمانى والمكانى فى العمل الأدبى وقد أجمل هذه المباحث مصدِّرًا إياها بعبارة "أحسن البلاغة".(٢)

وفى كل من القالبين: الثانى والثالث، يضبط ابن الأثير جماليات التفاوت المحسوب بين العبارتين المسجوعتين من حيث الطول.

فبالنسبة للقالب الثانى: يرى "ابن الأثير" أن السجعتين إذا لم تكونا متساويتين فى الطول فيلزم أن تكون السجعة الثانية –فى الوحدة المكوّنة من فقرتين– أطول قليلا من الأولى. والظاهر أن ابن الأثير كان يحذو حذو العسكرى فى ذلك.(٣) لكنه –على خلاف العسكرى– كان يضع شرطًا للتفاوت فى الطول، فحسبما يرى لا يكون ذلك القالب مقبولا إلا إذا كان طول السجعة الثانية غير مخلّ بالاعتدال أى: "أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول، لا طولا يخرج به عن

---

(١) عروس الأفراح، السبكى، جـ٤، ص٤٤٩.

(٢) نص كلامه هو: "وأحسن البلاغة: الترصيع والسجع، واتساق البناء، واعتدال الوزن، واشتقاق لفظ من لفظ، وعكس ما نظم من بناء، وتلخيص العبارة بألفاظ مستعارة، وإيراد الأقسام موفورة بالتمام، وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة، وصحة التقسيم باتفاق المنظوم، وتلخيص الأوصاف بنفى الخلاف، والمبالغة فى الوصف بتكرير الوصف، وتكافؤ المعانى فى المقابلة والتوازى، وإرداف اللواحق وتمثيل المعانى". جواهر الألفاظ، قدامة بن جعفر، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، الخانجى، القاهرة، ١٩٣٢، ص٣.

(٣) انظر: الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال العسكرى، ص ٢٨٩.

الاعتدال خروجا كثيرًا؛ فإنه يقبح عند ذلك ويستكره ويُعد عيبًا".[1]

ويمثل ابن الأثير لهذا القالب بقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا، إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا، وَ إِذَا أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.[2] فالأمر المقبول -عنده- هو أن تأتى السجعة الطويلة تالية للقصيرة وليس العكس، واختلاف الطول المسموح به -فى رأيه- يكون فى حدود كلمة أوكلمتين. ولكن توصيفات ابن الأثير التعليمية لا تتفق مع ما ورد فى القرآن، ولا مع ما جاء فى الإبداع العربى المسجوع، وقد أدرك "أبو هلال العسكرى" هذا الأمر، فبرغم إلحاحه على ضرورة حدوث الطول لصالح السجعة الثانية فإنه لم يغفل وجود أمثلة تشذّ عن مذهبه حيث قال: "إنه قد جاء فى كثير من ازدواج الفصحاء ما كان الجزء الأخير منه أقصر... (حتى) جاء فى كلام النبى -صلى الله عليه وسلم- منه شىء كثير... كقوله للأنصار يفضلهم على من سواهم: إنكم لتكثرون عند الفزع. وتقلون عند الطمع... (وقوله) -صلى الله عليه وسلم- رحم الله من قال خيرًا فغنم. أو سكت فسلم... وكقول أعرابى: فلان صحيح النسب، مستحكم السبب، من أى أقطاره أتيته أتى إليك بحسن مقال، وكرم فعال... وقال آخر من الأعراب... اللهم اجعل خير عملى، ما ولى أجل".[3] واللافت فى الأمثلة السابقة، أن اعتبار العبارة السجعية الأولى أطول بالقياس للعبارة السجعية الثانية هو أمر حادث على المستوى السطحى للصياغة فقط ويتجلى خطيًا؛ لكن الأمر يبدو مختلفا عند تمعُّن المستوى الذهنى، فمثلا، فى قول النبى -صلى الله عليه وسلم- (إنكم لتكثرون عند الفزع. وتقلون عند الطمع) يُلحظ أن كلمة (إنكم) تحضر -ذهنيًا- فى العبارة الثانية وإن لم تظهر كتابيًا.

القالب الثالث: هذا القالب مكوّن من سجعتين أيضًا، بيد أن السجعة الثانية فيه تكون أقصر من الأولى، وينتقده ابن الأثير واصفا إياه بأنه عيب فاحش [4] وحجته فى ذلك "أن السجع يكون قد استوفى أمده فى الفصل الأول بحكم طوله،

---

(١) المثل السائر، ابن الأثير، جـ١، ص ٢٣٤.

(٢) سورة الفرقان: ١١- ١٣.

(٣) الصناعتين، أبو هلال العسكرى، ص ٢٨٨- ٢٨٩.

(٤) انظر: المثل السائر، ابن الأثير، جـ١، ص ٢٣٥.

ثم يجيء الفصل الثانى قصيرًا عن الأول، فيكون كالشيء المبتور، فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها".[1] وضرورة ألا تكون السجعة الثانية أقصر من سابقتها هى من الأمور التى لقيت قبولاً فى مؤلفات البلاغة. وهو ما أكده "ابن سنان الخفاجى" (ت٤٦٦هـ)، حيث قال: "فأما الكلام المنثور فالأحسن منه تساوى الفصول فى مقاديرها أو يكون الفصل الثانى أطول من الأول. وعلى هذا أجمع الكُتّاب وقالوا: لا يجوز أن يكون الفصل الثانى أقصر من الأول والذوق يشهد بما قالوه ويقضى بصحته، ولهذا السبب استقبحوا إطالة الفصول لئلا يؤتى بالجزء الأول طويلاً فيحتاج إلى إطالة التالى له ليساويه أو يزيد عليه، فيظهر فى الكلام التكلف ويقع ما لا حاجة للمعنى والغرض إليه".[2]

القالب الرابع: وبالنسبة للقالب الرابع من القوالب التى رصدها "ابن الأثير"، فهو مكوّن من ثلاث سجعات الأوليان منها متساويتان فى الطول أمّا السجعة الثالثة فإن طولها يكون ضعف السجعتين السابقتين. وقد مثّل ابن الأثير لهذا القالب بقول من إنشائه، قال: "[الصديق من] لم يعتد عنك بخالف، ولم يعاملك معاملة حالف، وإذا بلغت أذنه وشاية أقام عليها حد سارق أو قاذف".[3] وكما هو ظاهر، فإن السجعتين الأولى والثانية متساويتان، إذ تحتوى كل منهما على أربع كلمات فى حين تحتوى الثالثة على عشر كلمات. وهذا القالب المسافى لافت للنظر؛ ذلك أنه –وفقا لملاحظة "ديفين. ج. ستيوارت"– "يكافئ بيتاً مصرّعاً تبعه بيتٌ آخر غير مصرّع".[4]

هذه هى القوالب الأربعة التى رصدها ابن الأثير لإبراز إمكانيات تشكّل المسافة فى السجع. ويرى البحث أن الأحكام التقييمية الملحقة بهذه القوالب قد

---

(١) المثل السائر، ابن الأثير، جـ١، ص ٢٣٥.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجى، ص ١٨٣.

(٣) المثل السائر، ابن الأثير، جـ١، ص٢٣٤.

(٤) السجع فى القرآن بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ت: محمد بريرى، مجلة فصول، م١٢، ع٣، ١٩٩٣، ص ٢٥. هذا مع فارق أن وحدة الوزن فى الشعر هى التفعيلة، وفى السجع "اللفظة".

تكون مقبولة إذا نُظر إلى الوحدة السجعية[1] منفصلة عن النص التى وردت فيه، فالمعايير المتمثلة فى استخدام الكلمات (أحسن – ألذ – عيب فاحش) هى معايير مضللة ما لم تَنتُج اعتمادًا على وعى بالكيفيات التى تتكاتف بها وحدة سجعية مع بقية الوحدات فى النص تكاتفًا ناجحًا، وهذا ما تجاهله الوصف التراثى الذى اتخذ مادة فحصه من الشواهد والأمثلة المعزولة عن قوامها الكُلّى. فليس للتساوى أو التفاوت فى مدى الفقرات المكوّنة للوحدة قيم مطلقة تحملها الوحدة السجعية معها إلى النص بصرف النظر عن الوحدات المجاورة لها؛ ذلك أنه تتخلّق من خلال التجاور تلوينات إيقاعية جديدة، ومن ثم فقد تفقد "القوالب المسافية" القيم المطلقة التى مُنِحت إياها فى الوصف والنقد التراثى.

وتدلّ هذه التقعيدات التى تأخذ عن البلاغيين القدماء بالتقنين للسجع من جهة الميزان الصرفى والعروضى، ثم من جهة الطول والقصر، وضبط الحدود المسموح بها لكل منهما، على نزعة شكليّة تُعنى بضرب من معمار الصياغة وهندسة الجُمَل المسجوعة، مما يدل على أن الشكل باتت له –بلغة الجشطلتيين– صيغة وأرضية يتحرك فوقها المضمون. وتدل من جهة أخرى على أن السجع فى عصور لاحقة ازدهرت فيها الفنون ذات الطابع الإسلامى، يحكمه كما يحكم هذه الفنون، قانون تكرار الوحدات، وهذا مما لا يتأتى دفعة عند تأمُّل فنون الأرابيسك، إذ يبدو تكرار الوحدات المتنوعة محكومًا بقياسات تؤلف هندسة الشكل –لاسيما فى فن الزخارف الإسلامية. ونحن على هذا النحو بإزاء قاعدتين هما التكرار والتنوّع، ومن جدليّة العلاقة بينهما تتألف الصيغة بإيجاد تقسيم للوحدات اللغوية فى السجع، والشكليّة فى الزخرف وفن المنمنمات، بحيث يتكرر كل قسم من أقسام الوحدات المتنوعة على نحو منتظم.[2]

---

(١) استخدم ديفين ج. ستيوارت تعبير "الوحدة السجعية" ليعبر عن عدد العبارات السجعية التى تتجمع مشكلة وحدة واحدة. انظر السجع فى القرآن بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ص ٢٠.

(٢) انظر: البديع فى تراثنا العربى، عاطف جودة نصر، مقال منشور فى مجلة فصول، م٤، ع٢، ١٩٨٤، ص ٧٩.

[٣] مواصفات السجع الجيد عند القدامى:

قدّم البلاغيون فى تناولهم لبنية السجع دراسة موسَّعة حول المواصفات الأوّلية التى ينبغى أن توجد فى السجع الجيّد. وبالنظر فى مؤلفات البلاغة يتضح أن المواصفات المتعلقة بالجودة اتسمت -فى الغالب- بكونها شروطًا سلبية؛ ذلك أن البلاغيين قد طرحوها فى صورة مجموعة من المحاذير التى يشترط غيابها كى يدخل السجع دائرة الجودة. ولا يكاد يخلو مؤلف بلاغى اهتم بظاهرة التسجيع من ذكر مواصفة أو أخرى من المواصفات الفارقة بين السجع الحسن والسجع القبيح المتكلف. والملاحظ أن نطاقات النظر البلاغى امتدت فى استظهار تلك المواصفات -أو المحاذير- إلى مستويات عدّة، فقد بدأ البعض حركته من منطقة الحرف المعزول دلاليا، والذى ينتج التسجيع من تكرار صورته السمعية فى ختام كل عبارة، وفى طليعة هذا الفريق "ابن سنان الخفاجى"، يَرْثَى لما أصاب بعض الخطب وغيرها من الكلام المنثور من تكلُّف من جرّاء انشغال مبدعيها بصنعة التحسين بالمسجوع من القول، فقذف هذا التمادى وابلاً من غلواء التكرار. ومن هذا المنطلق قدَّم الرجل شرطًا يجب اعتماده فى السجع، حيث أوصى بألا "تجعل الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد لأن ذلك يقع تعرّضا للتكرار، وميلاً إلى التكلّف".[1]

وإذا كان النظر البلاغى قد انصرف فيما سبق إلى حيّز الروى الواقع فى ختام الفاصلة، فإن البلاغيين قد توغلوا إلى نطاقات أرحب، يستظهرون المواصفات التى ينبغى توافرها فى السجع الجيد، والمحاذير التى ينبغى تجنبها فيه على كافة مستويات الوصف اللغوى: المستوى الإفرادى والمستوى التركيبى، وعلى مستوى الدلالة المتعلقة بالمفردات المسجوعة وبالتراكيب نحوية كانت أو سجعيّة.

فعلى المستوى الإفرادى، لم تترك البلاغة للمبدع حريّة التعامل مع أى دال لمجرّد أنه ينتهى بالحرف الأخير الذى بُنى عليه السجع، فعمليّة الاختيار محكومة بمجموعة من المواصفات التى ترشح لفظة دون بدائلها للحلول فى ختام العبارة. وقد عمد "ضياء الدين بن الأثير" إلى الكشف عن إجراءات الحُسن فى

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجى، ص ١٧١.

القول المسجوع مَصُوغَة فى شكل شروط أربعة، الشرط الأول منها يتصل بعملية الاختيار، والأساس فيها عنده "أن تَكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة، لاغثّة ولا باردة"[1]، ويقصد بقوله (غثة - باردة) "أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظرٍ إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، وما يشترط لها من الحسن".[2] وقد تعارَفَ البلاغيون المتأخرون من أمثال "الخطيب القزوينى" (ت٧٤٩هـ)، والشيخ "سعد الدين التفتازانى" (ت٧٩٢هـ) على أنّ حسن المفرد و-بمعنى أدق- فصاحته[3]، يأتى من خلّوه من عيوب أربعة هى: (تنافر الحروف- الغرابة- مخالفة القياس اللغوى- الكراهة فى السمع).[4]

أما الشرط الثانى الذى ذكره "ابن الأثير" لجودة السجع فيتحقق فى السياق، فللوصول إلى سجع جيد ينبغى أن يتم التركيب باتباع الخطوات التى أوضحها - من بَعْد- "الدسوقى"، حيث يلزم ملاحظة المعانى مع ما يقتضيه الحال من تقديم أو تأخير أو حصر أو غير ذلك، فإذا أتى بالمحسنات اللفظية بعد ذلك يكون تمام الحسن، وإن لم يؤت بها كفت النكات المعنويّة.[5] وقد حكى الجاحظ عن "بشر بن المعتمر" أنه قال فى وصيته فى البلاغة: "إذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها، ولا صائرة إلى مستقرها، ولا حالة فى مركزها؛ بل وجدتها قلقة فى مكانها، نافرة من موضعها فلا تكرهها على القرار فى غير موطنها. فإنك إذا لم تتعاط قريض الشعر الموزون، ولم تتكلّف اختيار الكلام المنثور، لم يُعبك بترك ذلك أحد. وإذا أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقًا فيهما عابك من أنت أَقل عيبًا منه،

---

(١) المثل السائر، ابن الأثير، جـ١، ص١٩٧.

(٢) المثل السائر، ابن الأثير، جـ١، ص١٩٧.

(٣) اختصر "التهانوى" كلام "ابن الأثير" حول ماينبغى للسجع من شروط الحسن، وبالأخص فيما يتصل بعملية الاختيار، قال إن أهم تلك الشروط هو (اختيار المفردات الفصيحة، واختيار التأليف الفصيح). انظر: كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوى، م٢، ص ٦٧١.

(٤) انظر: شروح التلخيص، جـ١، ص٧٦- ٧٧.

(٥) انظر: حاشية الدسوقى، على شرح العلامة سعد الدين التفتازانى على متن شروح التلخيص، الشيخ محمد بن عرفة الدسوقى، جـ٤، ص٤٦٩.

وأزرى عليك من أنت فوقه".[1] والتكلّف الذى حذّر منه بشر، يتصل -كما هو واضح من كلامه- بالعمليّة السياقيّة؛ وعلى الأخص، بعيبين أساسيين من العيوب التى يلزم التخلص منها لدخول هذه العمليّة إلى دائرة الجودة، أو لنقل -كما قال التهانوى- لدخولها دائرة "التأليف الفصيح". ويتمثل هذان العيبان فى (ضعف التأليف - وتنافر الكلمات مجتمعة).

ويضيف "العلوى" عنصرًا جديدًا لمواصفات السجع الجيد متحركًا -هو أيضا- على المستوى السياقى التركيبى؛ بيد أنه لم يُعن -كغيره- بتركيب نحوى، وإنما عُنى بالتركيب السجعى والدلالة المتعلقة به، فقد اشترط "أن تكون تلك المعانى الحاصلة عن التركيب مألوفة غير غريبة، ولا مستكرهة، ولا ركيكة مستبشعة؛ لأنها إذا كانت غريبة نفرت منها الطباع، وكانت غير قابلة لها، وإذا كانت ركيكة مجّتها الأسماع، فكل واحدة من السجعتين دالة على معنى حسن بانفراده، ولكن انضمام أحدهما إلى الأخرى هو الذى ينافر من أجل التركيب".[2] فإن التناقض وغرابة المعنى لا يحدثان إلا عند الشروع فى المزاوجة بين العبارتين المسجوعتين لخلق تركيب سجعى، وحينئذٍ تكبر المسافة الدلالية بين زوجى السجع، وينغلق المعنى عن الفهم كنتيجة طَبيعية للمنافرة بينهما.

ويقدّم ابن الأثير شرطا ثالثا يتصل بالدلالة، مستلهما إياه من أقوال سابقيه. فهو يرى أن اللفظ المسجوع ينبغى أن يكون مقصورًا على إفراز الدلالة، وهو المطلب الذى عبّر عنه بأن يكون اللفظ فى الكلام المسجوع تابعا للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعًا للفظ.[3] فالبلاغيون اعتمدوا المستويين معًا: المستوى السطحى والمستوى الذهنى فى الحكم على جودة السجع، وإذا عدنا إلى مقولات "الباقلانى" وجدناها تنطوى على الشرط نفسه، حيث يميل إلى تغليب الدائرة الذهنية على الدائرة السطحية حاثا على ضرورة ارتباط المستوى السطحى بالمستوى العميق وترتّبه عليه؛ وانطلاقا من ذلك أخذ يفرّق بين السجع الحسن الذى ينبنى على اتباع اللفظ للمعنى، والسجع القبيح الذى ينبنى على اتباع المعنى

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجى، ص ١٦٤.

(٢) الطراز، العلوى، جـ٣، ص ٢٢.

(٣) انظر: المثل السائر، ابن الأثير، جـ١، ص١٩٨.

فيه للفظ الذى يؤدى السجع، ويقدّم الباقلانى قانونا عاما مصنوعا فى شكل مقدّمات تنتج عنها فرضيّة مزدوجة تنحو بالسجع صوب الحسن أو تنحرف به إلى التكلُّف، فيمضى قائلا: "متى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع، كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى".[1] ومن المحقق أن الدرسين البلاغى والنقدى يجعلان أصل الحسن فى المحسنات اللفظية -بل فى التشكيل الصياغى عمومًا- كون الألفاظ توابع للمعانى دون العكس.[2]

ولا نكاد نجد ما نعزوه من جديد لعبد القاهر الجرجانى. فقد انتهى من خلال النظم إلى تصوّر يروغ إلى اعتبار اللفظ وعاء لموعى فيه هو المعانى التى ينبغى أن تكون لها السيادة والأصالة والتبعية بحكم أوليتها فى النفّس، ومن ثم لم ينفلت الجرجانى من دائرة الثنائية المهيمنة على البحث البلاغى؛ أقصد ثنائية اللفظ والمعنى، صحيح أنه كان أبعد نظرًا غير أنه قدّم المعانى وأعلى من شأنها ونظر فى الألفاظ بوصفها توابع وخدمًا وأوعية بما يشير إلى أنها تخلو تارة وتمتلئ أخرى، يقول: "ومن ها هنا رأيت العلماء يذمّون من يحمله تطلب السجع والتجنيس على أن يضيم لهما المعنى، ويدخل الخلل عليه من أجلهما، وعلى أن يتعسّف فى الاستعارة بسببهما، ويركب الوعورة، ويسلك المسلك المجهول. كالذى صنع أبو تمام فى قوله:

سَيفُ الإمَـــامِ الذى سَمَّتْهُ هَيْبَتَهُ ... لَمَّا تَخَرَّمَ أَهـلَ الأرضِ مُخْتَرِمَا

قَرَّت بِقُرَّانِ عَيْنُ الدينِ وانشَتَرتْ ... بالأشْتَرَينِ عُيُونُ الشِّرْكِ فاصطلِمَا

وقوله:

ذَهَبَتْ بِمِذْهَبِهِ السَّمَــاحَةُ والْتَوَتْ ... فِيــهِ الظُّنُونُ أَمَذْهَب أم مُذْهَبُ

ويصنعه المتكلِّفون فى الأسجاع".[3]

---

(١) إعجاز القرآن، الباقلانى، ص ١١٢.

(٢) انظر: مفتاح العلوم، السكاكى، ص ٤٣٢.

(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانى، ت محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨٤، ص٥٢٣.

وفي كتاب "أسرار البلاغة" يحدد عبد القاهر المسلك الذى لابد منه للابتعاد عن التكلّف فى المحسنات اللفظيّة، فعنده أنه لا يوجد "تجنيس مقبول ولا سجع حسن حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغى به بدلا، ولا تجد عنه حولا".(١) فتلك النظرات المعتمدة على أحكام سيادة المعنى وأصالته وتبعية اللفظ له، إنما تساوق ازدواجية النظر السلفى إلى اللفظ والمعنى بوصفهما عنصرين منفصلين.

وتعبر فكرة الوعاء والموعى فيه عن طبيعة فكر فريق من القدماء فى تناول مشكلة اللفظ والمعنى. فقد اعتبروا الألفاظ أوعية للمعانى مثلما تبدّى لنا من خلال مذهب عبد القاهر، غير أن هناك خُلف فى القياس، والخُلف هنا راجع "إلى أن الرابطة بين اللفظ والمعنى تتجلّى فى وضع تزامن ومعيّة لا تسمح بانفصال أحدهما عن الآخر، وليس اللفظ وعاءً يخلو تارة ويمتلئ أخرى على نحو ما هو واقع فى الظروف والأوعية، ذلك أن كلاً منهما يخلق صاحبه بحيث يبدو تأمل أحدهما تأملا للآخر، وكما يكشف نسق الألفاظ عن نسق المعانى، تترتب المعانى فى بنياتها وفق ما تترتب الألفاظ، وهما فى نهاية الأمر وجهان متضامان لحقيقة واحدة".(٢)

وفى سياق رصد العيوب الدلالية التى تصيب التركيب السجعى، وقف ابن الأثير متابعا لها، منتقدًا تكرار المعنى الواحد فى جمل سجعيّة متتالية؛ ذلك لما فيه من تطويل. ومن ثم اشترط "أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها".(٣)

وقد يكون لنا أن نفكر فى طبيعة التكرار الذى جعله "ابن الأثير" واحدًا من محذورات التركيب السجعى، فنميّز بين نوعين منه: تكرار بإعادة العبارة الأولى

---

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجانى، ت محمد عبد المنعم خفاجى، مكتبة القاهرة، ط٣، ١٩٧٩، جـ١، ص ١٠٢- ١٠٣.

(٢) النص الشعرى ومشكلات التفسير، عاطف جودة نصر، مكتبة الشباب، ١٩٨٩، ص ١١٣.

(٣) المثل السائر، ابن الأثير، جـ١، ص١٩٩.

نفسها لفظًا وتركيبًا وبالتبعية معنى. وتكرار بإعادة المدلول مع اختلاف الدال. والتكرار بصورتيه كان مثار خلاف فى المؤلفات البلاغيّة؛ إذ أخذ جانبا من جدل القدامى، ووقفوا بين معارض له ومؤيد. فيرى "الخطيب القزوينى" التكرار عيباً فى قول ابن عباد "طاروا واقِين بظهورِهم صدورَهمْ، وبأصلابهم نحورَهُمْ".[1] وهذا المثال من نوع التكرار الذى عابه ابن الأثير؛ لما فيه من اتفاق المدلول بين عنصرى التركيب السجعى. والبحث إذ يستعرض الموقف من تكرار المدلول فإن له فيه رأيا."فالمدلول لا يمكن أن يتكرر بكل حمولته الدلاليّة والإيحائية دون تكرار الدال نفسه والنمط التركيبى للعبارة".[2] وقد حاول اللغويين العرب إظهار الفروق اللغوية الدقيقة بين المترادفات.[3] يقول ابن الأعرابى:

"كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد، فى كل واحد منهما معنى ليس فى صاحبه، ربما عرفناه فأخبرنا به، وربما غمض علينا، فلم نلزم العرب جهله".[4]

ففى مقولة ابن عباد سالفة الذكر يُحْمَل التكرار على أصل الدلالة المجرّدة، أو ما يرمى إليه الكلام بينما الواقع أن الكلمات فى العبارة الثانية تتحمل بدلالات وإيحاءات مختلفة بعض الشىء، وهذا ما أغفله "القزوينى" حينما رأى فى استخدام الدوال: (أصلابهم، نحورهم) تكرارًا معيبًا لمدلول العبارة الأولى، حيث نظر إلى هذه الدوال خارج وظيفتها البانية للإيقاع، وخارج الحركيّة التى يبعثها تفاعل المترادفات، أو لنقل -بتعبير أدق- تفاعل شبه المترادفات فيما بين بعضها البعض.

---

(١) الإيضاح، الخطيب القزوينى، جـ٢، ص ٥٤٨.

(٢) قضايا الأسلوب عند الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن، بركات رياض، رسالة ماجستير، مخطوطة، بكلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٩٨، ص٢٥٧.

(٣) تحدث فى هذا الأمر طائفة من العلماء منهم: أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابى (ت ٢٣١هـ)، وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (ت٢٩١هـ)، وأبو محمّد عبد الله بن جعفر بن درستويه (ت٣٣٠هـ)، وأبو على الفارسى (ت٣٧٧هـ)، وأبو الحسين أحمد ابن فارس (ت٣٩٥هـ)، وأبو هلال العسكرى (ت٣٩٥هـ).

(٤) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطى، ت محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، مكتبة دار التراث، ط٣، جـ١، ص ٣٩٩-٤٠٠. وانظر: الأضداد، أبو بكر بن الأنبارى، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، الكويت، ١٩٦٠، ص٧.

ويأخذ الجدل حول تكرار المدلول الواحد شكلا إيجابيًا، إذ حاول بعض البلاغيين الكشف عن معناه وفوائده، خاصة أنه حاضر بشكل واضح فى النص القرآنى، ونظرة فيه تشير إلى هذه الحقيقة، فعلى وجه التكرار جاء قوله تعالى: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى، ثُمَّ أَوْلَى لك فَأَوْلَى﴾.[1] وقوله: ﴿كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.[2] وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ، ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾.[3] وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.[4] وهذا ما دفع بالكثير من القدامى إلى الاهتمام بمسألة التكرار والبحث عن وظائفه. ومن هؤلاء "الباقلانى" الذى عقد بابا فى كتابه (نكت الانتصار لنقل القرآن) لدراسة معنى التكرار وفوائده، محاولاً تأويل التكرارات القرآنية بحسب السياقات التى وردت فيها. "ونجد التكرار عنده ينقسم –من حيث وقعه على المتلقى– إلى قسمين: أحدهما بليغ مستحسن موظف لأداء الدلالة فى النص، والآخر ثقيل مستقبح وذلك ما كان فى وقت واحد وسبب واحد، يجعل المتلقى ينفر منه".[5] ومن قبله؛ ربط الجاحظ الصياغة التكرارية بما تقتضيه الدلالة، فلا مانع عنده أن يتكرر المدلول فى جملتين متتاليتين –سواء كانتا مسجوعتين أم لا – إذا كان التكرار موافقًا لضرورة المعنى وتقريره، ومن ناحية أخرى؛ ربَطَ تكرار الصيغة أو الدلالة برغبات المبدع فى لفت المتلقى إلى القول والمراد منه.

وكما حرص البلاغيون على توافر مواصفات الفصاحة فى الكلام المسجوع، فقد اشترطوا كذلك وضع مجموع العوامل المصاحبة للخطاب من مقام ومقتضى حال فى الحسبان حتى يضمنوا للقول المسجوع نيل مواصفات البلاغة فضلا عن الفصاحة، فإن تحقيقها مرهون بإطار إضافى، يلزم فيه ملاءمة الصياغة للحالات الإدراكية والثقافية للمتلقى، ومراعاة البعدين الزمانى والمكانى ودورهما الفاعل فى توجيه حركة التركيب التعليقية توجيهًا داخليًا.

---

(١) سورة القيامة: ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة التكاثر: ٣– ٤.

(٣) الانفطار: ١٧– ١٨.

(٤) سورة الشرح: ٥–٦.

(٥) قضايا الأسلوب عند الباقلانى فى كتابه "إعجاز القرآن"، بركات رياض، ص ٢٥٧.

ويدلل أبو هلال العسكرى على الأهمية الأسلوبية لمراعاة البعد المكانى أو المقام، بأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- "قد اعتمد فى موضع تجنّب السجع وهو معرّض له وكلامه كان يطالبه (فقال) وما يدرك أنه شهيد... لعله كان يتكلم بما لا يعنيه ويبخل بما لا ينفعه... ولو قال بما لا يغنيه لكان سجعاً".(١) ويتدخل العسكرى فى إلقاء مزيد من الضوء على هذا الاختيار الذى يتعلق بنظام بنائى محدد يكون للمقام فيه فاعليته التوجيهيّة؛ فالصياغة هنا كانت محكومة بطبيعة المقام وبأطرافه، حيث تتحقق البلاغة من خلال حواريّة تراعى الآخر استمالة وإقناعًا عن وعى وقصد من قِبل متكلّمٍ دفعه وعيه بالمقام إلى تشكيل صياغته على نحو مخصوص، فالحكيم العليم بالكلام يتكلم على قدر المقامات، ولعل قول الرسول "ينفعه" كان أليق بالمقام فعدل إليه لما لذلك الدال من قدرة على إنتاج المعنى المراد.(٢) وما السجع إلا مدّخر من إمكانيات الصياغة والتعامل معه أو تركه مرهون بمسوّغات، إذ إن الكلام، وبخاصة البلاغى ليس صنعة بلا موجهات وإنما يتكئ على مرجعيات أساسية من أهمها مراعاة السياقات الخارجية المصاحبة لإنتاج الحدث اللغوى، وهو ما أدركه البلاغيون تحت مقولة (المقام والحال). ويركز ابن النفيس فى كتابه "طريق الفصاحة" على المقام باعتبار مراعاته خطّاً أساسيا فى الوصول إلى التأثير الاستحسانى للسجع ولغيره من الأدوات البلاغيّة، فيذكر أنه لا "يكفى فى حسن السجع ورود القرآن به، قال: ولا يَقدَح فى ذلك خلوه فى بعض الآيات، لأن الحَسن قد يقتضى المقام الانتقال إلى أحسن منه".(٣) فلكى نقيِّم عنصرًا تعبيريًا ما يلزمنا رصد البعد المكانى، وإقامة اعتبار له، فالسجع مثلاً ليست مزيَّته ذاتية بحيث نحكم بالحسن كلما واجهنا بل إن هذه المزيّة ترتكز على أمرين باعتبار أن السجع لا يبتعد تمامًا عن تشكيل الناتج الدلالى، أولهما: توافق الناتج المراد مع الصياغة. والآخر: التواؤم بين الناتج الدلالى والمقام والحال.

هكذا يؤسس التوافق بين الكلام وبين مقتضى الحال والمقام قاعدة تشكل

---

(١) الصناعتين، أبو هلال العسكرى، ص ٢٨٧.

(٢) انظر: المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن، جلال الدين السيوطى، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ١٩٦٧، جـ٣، ص٢٩٥.

ماهيّة البلاغة عند القدماء، وقد شاع بين الدارسين أن هذه الأحوال المقتضاة تتصرف عند القدماء إلى أمور تتعلّق بالمرسَل إليه دون المرسِل، والحق أنّ فى ذلك إغفالاً لجهود بلاغيّة عنيت بالمتكلم، وما له من دور فعّال فى إبداع الصيغ الأدبية وفق أحوال نفسيّة متنوّعة. فرجل مثل السكاكى يُعنى بكافة أطراف الاتصال، جاعلاً الصياغة انعكاسًا للأحوال الخاصة والعامة للمرسِل، الذى يقيم عملياته الاختيارية، ويضع تراكيبه وفق حالته الذاتية، وطبائعه النفسيّة والعمليّة، ووفق ما يحيط به من ظروف البيئة.

وبرغم الإشارات البلاغية إلى ارتباط الصياغة بمبدعها، فإنه "لا يمكن أن ننكر وجود نوع من الاهتمام البلاغى بالمتلقى على حساب المبدع أحيانًا، ذلك أن تفتح الدرس البلاغى جاء متأثرًا بالدراسات التى دارت حول القرآن من تفسير وتأويل، ومن نحو ولغة، حيث كان الاتكاء فى هذا الدرس على ارتباط النص القرآنى بمتلقيه، إذ كان هناك حرج شديد فى تناول الخطاب القرآنى بالنسبة لمصدره، وكان هذا موجهًا للدرس البلاغى -دون وعى- إلى الاتكاء على المتلقى وحالاته الإدراكية، وظل هذا الحرج الدينى مانعًا من التعامل مع المبدع تعاملاً حرًا طليقًا".(١)

وإذا كان من المحاذير البلاغيّة تبعيّة المعنى للفظ، فإن البلاغيين واصلوا الاعتداد بذلك المحذور خلال كلامهم عن مراعاة الاعتبار المناسب للحال، فكل حال تستدعى بناء لغويا معيّنًا يأتى ناتجه الدلالى بما يلائم أحوال المخاطبين ومطالب الأنماط النوعية للمواقف، ورعاية المعانى التى تناسب الوقائع على تفاصيلها هى فى النظر البلاغى القديم معيار البلاغة والقوّة والبراعة،(٢) وهى ركيزة الترجيح بين المبدعين بها يتبين الكامل من القاصر. من هذا المنطق أخذ شرّاح التلخيص على الصاحب بن عباد أنه كان يطوّع المعانى لاختياراته الصياغية، حيث يقصد قصدًا إلى المحسن البديعى فلا يواتيه التحسين فى بعض الأقوال إلا على معنى ليس مقصودًا ولا مطلوبًا ولا علاقة له بالواقع مطلقا. ومن الأمثلة التى اعتبرت نموذجًا للمحسن المتكلف؛ مجىء التسجيع على حساب المعنى ومقتضى الحال الواقعة اللذين صارا تابعين للألفاظ، وذلك فى قول

---

(١) البلاغة العربية قراءة جديدة، محمد عبد المطلب، ص ٢١٢.

(٢) انظر: مواهب الفتاح، ابن يعقوب المغربى، جـ٤، ص٤٧٠.

الصاحب "أيها القاضى بِقُمْ، قد عزلناك فَقُمْ" فقد أراد المجانسة بين كلمة (قم) وهى اسم المدينة، وفعل الأمر قم، فلم يواتيه ذلك إلا على حساب المعنى؛ إذ صاغ معنى ليس مقصودًا ولا واقعيًا؛ ولذلك قال القاضى "ما عزلنى إلا هذه السجعة" مشيرا إلى أن حاله لا تستدعى العزل، فليس ثمة خلاف بينه وبين الصاحب، ولا شكوى موجهة تجاهه من الرعيّة، ولكن العزل كان ناتجا من الحرص على التحسين اللفظى فحسب. والحق أن هذه الواقعة مما يتظرّف به فى كتب التراث، وفى فصول الفكاهة التى يتندّر بها، وهى أدخل فى باب المضحك اللغوى.

على أن ما سبق لا يعنى أن القدماء كانوا يُقيّمون الإبداع بما له من مرجعية فى الواقع، فالمقامات العربية مثلاً تتكئ بشكل لافت على أحوال تقديريّة مفترضة ربما لا يكون لها صلة بالواقع، ومع ذلك فإن القدماء كانوا يأبهون بها وبالمجيدين من مبدعيها من أمثال الحريرى والهمذانى، اللذين أولعا بالتحسين اللفظى فوجدوا فى الكتابة وفق أحوال تقديرية حقلاً يُرحّب بغرسهم التحسينى؛ إذ إن الكتابة على مقتضى الأحوال الواقعية ربما تحجّم ذلك الميل حيث يكون الاختيار والتأليف الصياغى مرهونًا بالمعنى الواقعى المراد التعبير عنه، والذى يصير قيدًا على هاتين العمليتين.

وبهذا الإدراك للفرق بين الكتابة وفق أحوال واقعيّة والكتابة وفق أحوال تقديرية مفترضة علّل ابن يعقوب المغربى عجز الحريرى عن القيام بمهمته فى ديوان الإنشاء ذلك أنه "لما رتب الحريرى فى ديوان الإنشاء أى كلف إنشاء معان بألفاظ تطابق بتلك المعانى المدلولة مقتضى الحال وتكون مع ذلك مع بديعياتها عجز، وقد كانت له قوة وكمال فى إنشاء ألفاظ لمعان مع بديعياتها تناسب أحوال مقدّرة تجتلب كما أراد فقال فيه ابن الخشّاب حينئذ: "الحريرى رجل المقامات"، أى رجل له قدرة على المعانى المستحسنة المطابقة للتقدير لا المعانى المستحسنة المطابقة للواقع؛ لأن المقامات حكايات تقديريّة، فإذا رام إيجاد البديعيات مع المناسبة البلاغية تأتّت له بفرض المستحيلات وفرض ما لم يقع، وبين هذا وبين ما إذا أُمِرَ أن يكتب فى قضية عينيّة واقعة ما يناسبها بَوْنٌ بعيد، فإن هذا أخص، يلزم من القدرة عليه القدرة على الأول دون العكس؛ لأن الأول من كتابة ما يريد الإنسان ويخترعه وهو سهل التناول بالتجربة، والثانى

من كتابة ما يؤمر به وهو صعب إلا على الأقوياء".[1]

وقد احتكم شراح التلخيص إلى هذا المعيار فى كل جهد إبداعى قصد إلى استخدام المحسنات البديعية، ومن ثَم رجحت لديهم كفة الصابى على الصاحب بن عباد، ذلك أن الأول كان يكتب ما يؤمر به ويطلب منه، أى أنه يقصد إلى المعانى التى تقتضيها الحال الواقعة ثم يطلب لها ما يناسبها من مفردات، ولا يقتصر على ذلك بل يحرص على توشية هذه المفردات بالمحسن البديعى وهو أمر صعب يشير إلى موهبة إبداعية فائقة، أما الثانى فكان يقصد إلى الألفاظ ذات المحسِّن البديعى أولا فتطابق الحال المفترضة التقديرية المتخيّلة التى يصنعها عقله بما يتكيّف مع ما يريد قوله.

حقيقة أن شراح التلخيص انطلقوا من نقطة مبدئية تشير إلى وجود تمايز فى القدرة التنفيذية على الكتابة وفق أحوال واقعيّة وأخرى تقديريّة لكنهم مع ذلك لم يوجهوا سهما عشوائيًا يطعن دائما فى القدرة الإبداعية لمن يكتبون وفق أحوال تقديرية مفترضة يتمثلها المتكلم، وينفعل بها، وينظم كلامه وفقا لما يناسبها من معنى بصرف النظر عن تعينها فى الواقع، وإنما كانت سهامهم موجهة بالدرجة الأولى إلى الكتابة وفق حال مفترضة تابعة للكلام المحسن دون أى قصد إليها فيكون الكلام الآتى على مقتضى المحسِّن الذى تتبعه الحال ممقوتًا.

يقول ابن يعقوب: "فإن قلت: عند تقدير الحال نظير الحاضرة فإنشاء ما يطابقها كإنشاء ما يطابق الحاضرة فلا فرق بين الحالين. قلت: هناك اعتباران: أحدهما أن يفرض الحال أولاً فكأنه يقول: كيف تخاطب من وقع له كذا؟ فلا شك أنّ من له قوّة على الأحوال التقديريّة على هذا الوجه عمومًا تكون له فى الوقائع الحاضرة غالبًا، والآخر إيجاد اللفظ ثم يفرض له ما يطابق ولو لم يقع، وهذا هو الأسهل كما وقع للملك مع القاضى فى قوله (أيها القاضى بقم...)".[2] وهذا التصوّر للحال التقديرية المناظرة للواقعية يتفق مع وعى تراثى شامل يرى أن الصدق ليس هو مطابقة الخبر للواقع فقط، ولكنه مطابقة الخبر للواقع ولو

---

(١) مواهب الفتاح، ابن يعقوب المغربى، جـ٤، ص٤٧٠- ٤٧١.

(٢) المصدر نفسه، جـ٤، ص٤٧١-٤٧٢.

بحسب الاعتقاد والشعور والإحساس.(١)

وأحسب أن شروط حسن السجع التى توسّع البلاغيون فى تفاصيلها لم تكن شروطا جمالية بقدر ما هى شروط معيارية. فالمواصفات التى تصل بالكلام المسجوع إلى مرتبتى الفصاحة والبلاغة هى مواصفات تدنى الكلام من معياريته، حيث تعتبر أيضا بمثابة شروط ضرورية للكلام العادى المعيارى.

وثمة مجموعة أخرى من الضوابط التى تتصل بكيفية الأداء، هدفها تحقيق قدر من جماليّة السجع، وقد وقفنا على بعضها أثناء الحديث عن أقسام السجع وعما ينبغى له من الطول والقصر، فالبلاغيون عدّوا المرصّع منه أعلى طبقة مما عداه؛ ذلك لما يحدثه من كثافة إيقاعية، وتتأتى هذه الجمالية بخاصة إذا كان السجع المرصّع خاليا من التكلّف. وقد أشار البلاغيون كذلك إلى أن أحسن السجع ما تساوت قرائنه فى عدد الكلمات ليكون شبيهًا بالشعر، مع منح القصير منه جمالية أعلى.

والواقع أن فريقًا من القدامى انتهى إلى نفى ورود السجع فى القرآن الكريم، حيث اعتمدوا فى توجههم النقدى على الضوابط المشروطة لحسن السجع وقبحه فالباقلانى يتجه إلى نفى استخدام النص القرآنى للسجع مدفوعا بوجود

---

(١) يتردد فى المجال الأدبى مصطلح الصدق الفنى، وليس المقصود به صدق المبدع فى التعبير عن الأمور الواقعية فحسب، وإنما صدقه فى التعبير عن أحاسيسه وانفعالاته سواء طابق الواقع أم لم يطابقـــه بأن انطلق من أمور متخيّلة، من هنا خرجت المقولة النقدية القديمة "أصدق الشعر أكذبه". وهذا وإن كان مشهوراً فى المجال الأدبى، فإن له أساسًا ومنطلقا أيضا فى مجالات أخرى. ورد فى حديث ذى اليدين ما يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يصلى صلاة رباعيّة فسلّم بعد ركعتين فى غير سفر، فقال له ذو اليدين أقصّرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ قال: كل ذلك لم يكن، قال ذو اليدين: بل بعض ذلك قد كان، فالتفت صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه قائلا: أحقا ما يقول ذو اليدين؟ قالوا نعم، فقام صلى الله عليه وسلم فأكمل الركعتين. أثار هذا الحديث إشكالا خارجا من عدم مطابقة قول الرسول للواقع وهنا شبهة الكذب مع أن الكذب مستحيل على الرسول، هنا يتصدى علماء الحديث بالتعليق على ذلك، بأن الصدق ليس هو مطابقة الخبر للواقع فقط، ولكنه مطابقة الخبر للواقع ولو بحسب الاعتقاد، وبذلك كان الرسول صادقًا وكذلك ذو اليدين.

أمثلة قرآنية غير خاضعة لما حدّدوه من ضوابط خاصة بالسجع، حيث يقول: "فبان بما قلنا أن الحروف التى وقعت فى الفواصل متناسبة موقع النظائر التى تقع فى الأسجاع، لا يخرجها عن حدّها، ولا يدخلها فى باب السجع. وقد بيّنا أنهم يذمُّون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء، فكان بعض مصاريعه كلمتين، وبعضها تبلغ كلمات، ولا يرون فى ذلك فصاحة، بل يرونه عجزا... فلو رأوا أن ما تلى عليهم من القرآن سجعٌ لقالوا: نحن نعارضه بسجع معتدل، فنزيد فى الفصاحة على طريقة القرآن، ونتجاوز حدَّه فى البراعة والحسن. ولا معنى لقول مَنْ قدر أنه ترك السجع تارة إلى غيره ثم رجع إليه لأنه لو كان من باب السجع لكان أرفع نهاياته وأبعد غاياته".(١)

ومع ذلك، فإن فريقا آخر ذهب إلى إثبات وجود السجع فى القرآن آخذًا فى استظهار ضوابط الحسن فيه من واقع نسيج النص القرآنى ذاته.

* * * *

(٤) القيمة التحسينية للسجع والجدل البلاغى حولها:

لما كان السجع واحداً من أفراد المبحث البديعى فقد أُلصقت به مسألة الإضافة التحسينية كما أُلصقت بغيره من الأدوات البديعيّة؛ إذ اعتبر زينة تضاف إلى القول، كما اعتبرت عملية التحسين غاية التأثير المنشود لهذه الزينة. ومثل هذه النظرة إلى السجع باعتباره زائدًا زخرفيا تحسينيّا تنطلق من بعد عقائدى إضافة إلى اتصالها بإشكالية الفصل بين اللفظ والمعنى فى إطار الفكر النقدى والبلاغى.

فقد كان للجانب العقائدى تأثيرات عميقة على تنمية الاعتراض تجاه السجع، مما حدا بالكثيرين إلى رفض وروده فى القرآن. فأصل ذلك الاعتراض أو النفور يئول فيما يبدو إلى حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- حين أمر فى جنين بغرّة عبد أو أمة. فقال المأمور بذلك: كيف ندى من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس دمه قد يطل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أسجعًا كسجع الكهان؟".

---

(١) إعجاز القرآن، الباقلانى، ص١١٩.

أثار ذلك النفور من سجع الكهان إشكالا تبارت أقلام البلاغيين فى تبريره، وكان مما ذهبوا إليه، أن سجع الكهان متكلف[١] ينبنى أساسًا على إضافة السجع كزائد تحسينى إلى الصياغة من غير أن يستدعيه المعنى ويتطلّبه، ولهذا رفضه الرسول، كما رفض أن يُصاغ على منواله. وفى ظل تلك الواقعة والحوار المحيط بها طُرحت لأول مرة قضيّة تحريم إطلاق السجع على ما فى صورته من القرآن؛ إذ صار السجع مرتبطا فى ذهن الدارسين له بسجع الكهّان الموسوم بالزيف التحسينى من حيث يكون السجع فيه مكونا فى البناء الشكلى ربما على حساب البناء المضموني، وانطلاقًا من ذلك التصور، وصف كل من الرمّانى والباقلانى السجع بأنه: يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع.[٢]

وهذا التحرّك البلاغى فى وصف السجع اعتمادًا على الفصل بين اللفظ والمعنى يمكن التماس ما يبرّره من وجهة نظر حداثيّة. فيبدو أن البلاغيين القدامى قد توصلوا مبكرًا إلى ما يُساوِق نظرية أرشيبالد مكليش المتعلقة برؤيته فى **بناء الصوت وبناء المعنى**. فهو يذهب إلى أن بناء الكلمات بوصفها أصواتا- منفصل عن بناء الكلمات بوصفها معانى، ويتضح ذلك حينما نجد بناء الأصوات دقيقًا. منتظمًا ترتاح إليه الأذن، بينما يكون المعنى غامضا خفياً يحتاج إلى اكتشاف العلاقات بين معانى الكلمات ومعانى التراكيب. وما ذهب إليه البلاغيون من الفصل بين طرفى بنية الكلام والقول بتبعية أحدهما للآخر، يمكن تأويله فى إطار وجهة النظر السابقة، باعتبار المقصود باللفظ مسألة "بناء الصوت" والمقصود بالمعنى مسألة "بناء المعنى" وعملية تبعيّة بناء كل منهما للآخر يتأتى تحديدها بالنظر إلى التوجه الإبداعى والأمر المعتبر فى التشكيل الصياغى، فإذا كان المعتبر العناية بالبناء الصوتى بكل وسيلة ممكنة وإن دخل خللٌ على الناتج الدلالى بما يُعمِّى على المعنى الأصلى المراد التعبير عنه أو يأتى به ركيكًا مبتذلاً عن غير قصد فإنه يمكن تقرير أن المعنى تابع لبناء

---

(١) هناك تأويلات بلاغية أخرى لذلك الحديث سوف نقف عندها فى موضع لاحق من البحث.

(٢) انظر: النكت فى إعجاز القرآنى، لأبى الحسن على بن عيسى الرمّانى، ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن، ت محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩١، ص ٩٧. وانظر كذلك: إعجاز القرآن، الباقلانى، ص١١١.

الصوت –أو بتعبير آخر– أنه تابع للفظ، أما إذا حافظ التحرُّك الإبداعى على المعنى المراد التعبير عنه وزاد على ذلك انتظامًا واتساقًا فى البناء الصوتى مع مجيء الألفاظ متمكّنة مستقرّة فى مواضعها أمكننا أن نقرر تبعية بناء الصوت لبناء المعنى أو –بتعبير آخر– تبعية اللفظ للمعنى[1].

وهكذا نستطيع أن نقرر تاريخيا أنّ السجع كان أوّل أصناف البديع التى أحاط به سياج تصوّرات حاصرته فى ركن الوظيفة الإضافية (التزيينيّة)، زاعمة أنه يناط به تجنيس الكلام دون تصحيح المعنى،[2] ولقد تضخمت هذه التصورات لدى البلاغيين والنقّاد المتأخرين لتعمّ كل مباحث البديع. ويبدو أن هذه التصورات نمت فعليًا مع تبلور تعريف البديع على لسان الخطيب القزوينى مستخلصًا إياه من كلام السكاكى، متجلية فى سياق الشروح التى قامت على تلخيصه. فالبديع –عنده– هو: "علمٌ يُعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية

---

(١) انظر: الشعر والتجربة، أرشيبالد مكليش، آفاق الترجمة، ت سلمى الخضراء الجيوشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ع١١، ١٩٩٦، ص٣٠ وما بعدها.

(٢) انطلاقا من ذلك رفض الباقلانى وقوع تلك القشرة التحسينيّة غير المقصود إليها فى القرآن، ذاهبًا إلى أن القصد هو مبعث التجانس الصوتى فى ختام الفواصل بيد أنه لم يستطع أن يمتثل لما راح يردده من أن ما على صورة السجع من القرآن مرتبطة كله بالمعنى ارتباطًا وثيقا، مسلّما بوجود مواضع معدودة يستجلب فيها لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى، ويتجلى ذلك فى قوله: "ثم إن سلّم لهم مسلم موضعًا أو مواضع محدودة، وزعم أن وقوع ذلك موقع الاستراحة فى الخطاب إلى الفواصل لتحسين الكلام بها، وهى الطريقة التى يباين القرآن بها سائر الكلام، وزعم أن الوجه فى ذلك أنه من باب الفواصل، أو زعم أن ذلك وقع غير مقصود إليه، وأن ذلك إذا اعترض فى الخطاب لم يعد سجعًا، على ما قد بيّنا من القليل من الشعر، كالبيت الواحد والمصراع، والبيتين من الرجز، ونحو ذلك يعرض فيه، فلا يقال إنه شعر، لأنه لا يقع مقصودًا إليه، إنما يقع مغمورًا فى الخطاب، فكذلك حال السجع الذى يزعمونه ويقدّرونه". إعجاز القرآن، الباقلانى، ص ١١٢. فكأنا به يقول مع من اعتقد بوقوع تلك القشرة التحسينية غير مقصود إليها فى بعض آى القرآن. وهذا يخالف زعمه المسبق بقدرته على أن يظهر ما لا يخفى من الفوائد فى المواضع التى يدعون أن اللفظة المسجوعة مجرد إضافة تحسينية يمكن الاستغناء عنها.

تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة".[1] والواضح من تعريف القزوينى للبديع أنه يقصد أنّ الكلام متى تحقق فيه البديع، فقد تحققت فيه البلاغة كل البلاغة، لأن البديع لا يعتد به ما لم يتحقق شرطا المطابقة، ووضوح الدلالة، على معنى أن التحسين الذى قصده القزوينى يكون تحسيناً ذاتيًا أساسيًا فى علاقته بالمعنى لاعرضياً طارئًا متكلِّفا كما تذهب بعض التصورات. وذلك هو المضمون نفسه الذى قصده السكاكى؛ فحين نزع إلى تبيين الخواص التى تعرض للتراكيب فتكسو الكلام حسناً ذاتيًا، ندَّ عن ذلك الغرض بعض الأمور المدرجة تحت اسم علم البديع، فكان لزامًا أن يفردها بالذكر بعد الانتهاء من علمى "البيان" و"المعانى"، ولا أحسبه قاصدًا بوظيفتها سوى التحسينى الذاتى المرتبط بالمعنى لا العرضى المستجلب لخلق الإيقاعية فحسب. قال السكاكى بعد ما تناول علمى البيان والمعانى: "وإذا قد تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأنّ الفصاحة بنوعيها؛ مما يكسو الكلام حلّة التزيين ويرقيه إلى أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوه مخصوصة كثيرًا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهى قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ".[2] ولقد راح أتباع القزوينى وأنصاره يلوون تعريفه للبديع عن قصده وقصد السكاكى من التحسين، وأخضعوه لنظرتهم للبديع على أنه توشية وزينة طارئة، وهذا ما دعا بعض الباحثين إلى تحميل القزوينى مسئوليّة تذييل البديع وتهميش دوره.

وربما كان عدّ السجع محسناً لفظيًا عرضيا أمرًا مشرّعًا من قِبَل نظرة فلسفية إلى اللفظ عمومًا تتمثل فى اعتباره طينيّاً متهافتاً.[3] ومع ذلك فإننا نعثر

---

(١) الإيضاح فى علوم البلاغة، القزوينى، جـ٢، ص ٤٧٧.

(٢) مفتاح العلوم، السكاكى، ص ٤٢٣.

(٣) وقد عبر أبو حيان التوحيدى عن مذهب أستاذه أبى سليمان طاهر بن بهرام السجستانى فى هذا الموضوع فقال: "إنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعى والمعنى عقلى، ولهذا كان اللفظ بائدًا على الزمان لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة، ولهذا كان المعنى ثابتا على الزمان لأن مستملى المعنى عقل، والعقل إلهى، ومادة اللفظ طينيّة، وكل طينى متهافت". الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، صححه وضبطه أحمد أمين، أحمد الزينى، دار مكتبة الحياة، بيروت، جـ١، د. ت، ص ١١٥.

فى المؤلفات البلاغية على بعض مقولات تجعل السجع ضرورة يقتضيها المعنى، فمنذ أوائل القرن الثالث الهجرى توقف الجاحظ فى كتابه "البيان والتبيين" عند ذلك البعد العقدى الذى فجّر مسلك الجدل والنفور من السجع، وكان له فى ذلك رأى معتدل، فقد أهلت نظرته للسجع الجيد، فى إطار تنبيه لوصايا عبد الصمد الرقاشى ومحدّثيه، إلى اجتياز موقف النفور والرفض للسجع، منطلقًا من مقارعة النماذج المتكلّفة بنماذج أخرى سلّم لها بالجودة. وأخذ يستقى منها العناصر التى تعد من مقومات السجع الحسن، فيذكر فى "البيان والتبيين" أن جودة السجع تتعيّن "إذا لم يَطُلْ ذلك القول، ولم تكن القوافي مطلوبة مجتلبة، أو ملتمسة متكلّفة، وكان ذلك كقول الأعرابى لعامل الماء "حُلِئت ركابى، وخرّقت ثيابى، وضربت صحابى"[1]... قال: أوسجع أيضا؟ فقال الأعرابى: فكيف أقول؟ لأنه لو قال: حُلِئت إبلى أو جمالى أو نوقى أو بعرانى أو صرمتى لكان لم يعبّر عن حق معناه، وإنما حُلِئت ركابه، فكيف يدع الرّكاب إلى غير الركاب؟ وكذلك قوله: وخرّقت ثيابى، وضربت صحابى؛ لأن الكلام إذا قل وقع وقوعا لا يجوز تغييره، وإذا طال وجدت فى القوافى ما يكون مجتلبا ومطلوبًا مستكرهًا"[2].

هكذا يرجع الجاحظ جودة السجع فى كلام الأعرابى إلى توافر قصر التراكيب السجعيّة. فكل جملة هى مكون تركيبى أصغر، إذ تتكوّن نحويًا من لفظتين [فعل مبنى للمجهول، ونائب عن الفاعل]. وقلّة عدد المفردات الداخلة فى تركيب الجملة كانت كفيلة –فى تصوّر الجاحظ– بأن توفّر للكلام نقاءه من صفة التكلّف.

فالقضية بالنسبة للأعرابى ليست قضية السجع ولا التأثير الصوتى، وإذا كان هناك قيمة جمالية تخلّفها المحافظة على التكرار الصوتى فإن تلك القيمة لا تظهر حرّة من الانشغال بمدلولات هذه الدوال التى لم يجد الأعرابى عنها حولا. فكلمة مثل (ركابى) تحمل معنى لا تستطيع المفردات (إبلى، نوقى، بعرانى) تأديته؛ ذلك أن تلك المفردات لا تمثّل معادلاً معنويًا مطابقًا لواقع إبل هذا الأعرابى التى لها دور محدد، وهو أنها تركب، وهذا ما توخى الأعرابى إبرازه

---

(١) حُلِئت ركابى: أى منعت إبلى من الماء والكلأ. والركاب: ما يركب من الإبل.
(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، جـ١، ص ٢٧٦.

باستخدام كلمة (ركابى). وكذلك قوله وشققت ثيابى، وضربت صحابى، مما يؤكد أن السجع جاء ملتحمًا بالمعنى.

ويؤيد عبد القاهر الجرجانى تصوّر الجاحظ لجودة هذا النموذج، حين يقول: "فقد تبيّن من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول، هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع، بل قاده المعنى إليهما، وعبر به الفرَقُ عليهما، حتى إنه لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى، وإدخال الوحشة عليه، فى شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره، والسجع النافر".[١]

(٥) المهمة الموكلة بالسجع:

تولّدت كافة أدوات التعبير نتيجة الإمكانات الهائلة لاستخدام اللغة وبدخول هذه الأدوات فى نسيج الكلام، وبتحولها من مجرّد إمكانات لغويّة إلى وسائل أسلوبيّة تبيّن لها بعض الأدوار، واتضح الأثر الذى تحدثه فى العمليّة الإبداعية، وبالممارسة استوعب المبدعون مهامها فى النصوص، بحيث يمكن أن نقول إنّ كل استدعاء ناجح لأى أداة من أدوات التعبير البليغ هو قرين فهم يقينى لدورها الوظيفى.

وحيث إن أولى مراحل استخدام السجع تجلت فى العصر الجاهلى، فإن ذلك يثير تساؤلاً مفاده: ما سر الحضور الواضح للسجع فى نصوص هذه المرحلة؟ المعروف جيدًا أن صيغة التواصل الأدبى فى المرحلة الجاهلية كانت الأداء الشفوى، وقد امتدت الشفاهية لتمثل صيغة التواصل فى مرحلة ما بعد الإسلام، متزامنة مع الكتابيّة فى عصور التدوين "فلزمن طويل كان الصوت البشرى أساس الأدب وشرطه ولحضوره فاعليّة فى تفسير الأدب الأول. ومن هنا أخذ الأدب القديم [شعرًا كان أو نثرًا] شكله وطابعه"[٢] فجاء متسمًا بالإيقاعية إذ ركّز على استعمال عناصر تعبيرية ذات خصائص سمعية مساعدة فى سياق الأداء

---

(١) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجانى، جـ١، ص ١٠٥- ١٠٦.

(٢) الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتى، محمد الماكرى، المركز الثقافى العربى، ط١، ١٩٩١، ص ١٢٧.

الشفوى، وهذا بالضبط ما نعثر عليه فى النصوص الشعرية والنثرية وبخاصة المسجوعة منها. فمن التعارض بين الشفرة المستخدمة (النطق- الإنشاد- التلاوة) وبين رغبة المبدع فى أن يجعل عمله خالدًا يحفظه الزمن برزت أشكال بلاغية عديدة وعلى رأسها السجع[(١)]، وقد أنتبه "والترج. أونج" إلى ذلك، إذ يقول: "فى الثقافة الشفاهية الأوّلية، عليك، لكى تحل مشكلة الاحتفاظ بالتفكير المعبّر عنه لفظيّاً واستعادته على نحو فعّال، أن تقوم بعمليّة التفكير نفسها داخل أنماط حافزة للتذكر، صيغت بصورة قابلة للتكرار الشفاهى... إما فى أنماط ثقيلة الإيقاع، متوازنة؛ أو فى جمل متكررة أو متعارضة؛ أو فى كلمات متجانسة الحروف الأولى أو مسجوعة؛ أو فى عبارات وصفية أو أخرى قائمة على الصيغة؛ أو فى وحدات موضوعيّة ثابتة... أو فى الأمثال التى يسمعها المرء باستمرار وترد على الذهن بسهولة، وقد صيغت هى نفسها على نحو قابل للحفظ والتذكر السهل، أوْ فى أشكالٍ أخرى حافزة للتذكر".[(٢)] والسجع يُعد واحدًا من هذه الأشكال، وأحسب أن استخدامه قديمًا كان راجعًا إلى وعى بقيمته، من حيث إنه يسهم فى منح النص طابعًا بنيويًا واضحًا ومنتظمًا، يفرض نفسه على الذاكرة؛ ومن هنا كان إدراجه -فى النظريات النقدية الحديثة- ضمن حيل الذاكرة كأحد بنيات "فن تقويتها"،[(٣)] فالسجع بوصفه بنية إيقاعية هو مطلب من مطالب التفكير الشفاهى الذى يميل "إلى أن يكون إيقاعيًا بشكل ملحوظ لأن الإيقاع -حتى من الناحية الفسيولوجيّة- يساعد على التذكر".[(٤)]

وعندما نعى تلك الأمور فإننا نفتح بابًا لتلمُّس ارتباط أدوات الإبداع بالسياق الخارجى وبمطالب مرحلة ما بعد الإبداع التى يوضع لها اعتبار منذ اللحظة الأولى من ميلاد النوع الأدبى. لكن الأدوات التعبيرية تتحرر بالتدريج من

---

(١) ولعل أوّلية الأداء الشفوى فى التلقى تبرر الاستمرار فى توظيف الأشكال البلاغيّة الإيقاعية فى نصوص مرحلة التدوين فى العصر العباسى، فاستخدام القافية والسجع وغيرهما من أدوات البلاغة ذو تعلّق بمسألة الإلقاء والإنشاد وبشفاهية التواصل فى محافل القول.

(٢) الشفاهيّة والكتابيّة، والترج. أونج، ت. حسن عز الدين، سلسلة عالم المعرفة، ع ١٨٢، فبراير ١٩٩٤، ص ٩٤.

(٣) هذه هى التسمية التى أطلقها "بارت" على البلاغة عمومًا، إذ يدعوها "فن تقوية الذاكرة".

(٤) الشفاهيّة والكتابيّة، والترج. أونج، ص ٩٤.

الالتصاق ببواعث استخدامها الأول، وتتحول إلى تقليد؛ وهذا يفسّر بقاء استخدام السجع على مر العصور بالرغم من غياب الوسط والباعث الشفاهى الذى استدعى استخدامه. فحسب "إيخنباوم" فى "نظرية المنهج الشكلى": "يختفى الوسط (التاريخى) بينما تبقى الوظيفة الأدبية التى ولّدها لا بوصفها إحدى المخلفات وإنما بوصفها إجراء يحتفظ بكامل معناه خارج علاقته بهذا الوسط".(١)

إننا حتى الآن نتحدّث عن إحدى المهام الموكلة بالسجع، وهى المهمّة العامة الثابتة التى يؤديها متى حلّ فى نص ما. وقد أدرك القدماء تلك المهمّة العامة التى يضطلع بها السجع، حيث يقول الجاحظ: "قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشى: لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد، لقلّ خلافى عليك، ولكنّى أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد، وبقلة التفلّت. وما تكلمت به العرب من جيد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره".(٢)

وكذلك ربط "ابن جنى" بين الأثر النفسى الناتج من التوظيف الجمالى للسجع وبين عمليات التلقى والحفظ، إذ يقول: "فلو لم يكن المثل مسجوعًا لم تأنس النفس إليه، ولا أنِقَت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له، وجىء به من أجله".(٣) فإن بنية المثل -عنده كما يبدو- ذات أثر سيكولوجى؛ على معنى أن تركيبها المعتمد على التسجيع يؤثّر فى النفس، ثم ينعكس هذا الأثر على عمليتى الاستيعاب والاسترجاع، وغياب هذه البنية فى المثل يصدم انتظار القارئ، ليس ذلك فحسب، بل يُصعّب عليه عملية الاسترجاع.

---

(١) النقد النصى، جيزيل فالانسى، ضمن مدخل إلى مناهج النقد الأدبى، ت. رضوان ظاظا، مراجعة: المنصف الشنوفى، عالم اللمعرفة، ع ٢٢١، مايو ١٩٩٧، ص ٢١٦.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، جـ١، ص ٢٧٥- ٢٧٦.

(٣) الخصائص، ابن جنى، ت محمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، جـ١، ص٢١٦.

والأداء الشفاهى من المسائل المهمة التى ينبغى اعتبارها حين نتشوّق إلى فهم حقيقة الدور الذى يضطلع به السجع فى النص القرآنى، فالتلاوة الجهريّة[1] كانت الأساس فى انتشار القرآن، ومن ثم كان لابد من احتواء النسيج القرآنى على دعامة لغوية تسهم فى استعادة ذلك النسيج بصورته لفظا ومعنى، فكان السجع بمثابة نتيجة طبيعية لشفاهيّة الأداء؛ وذلك لما به من جوهر موسيقى يعلق بالأفئدة. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِكْرِ فَهَل مِن مُدَّكِرٍ﴾.[2]

ولعل الحلاوة والطلاوة التى استشعرهما العربى فى النص القرآنى وحاول الجاحظ أن يبرز علتهما -كانتا إفرازًا لأمور؛ من بينها عناية النص بالجرس والإيقاع من خلال توظيف الأدوات الإيقاعية "كالسجع" الذى يضفى -فى موضعه- دلالة مستمدّة من الطبيعة الصوتيّة للحروف بما يحقق من موسيقى تتسق مع إطار الآية وإطار السياق وإطار السورة كلها.

وانشغال عبد القاهر الجرجانى (ت٤٧١هـ) بقضية النظم، التى لم تتخلص من الدوران فى إطار ثنائية اللفظ والمعنى، قد أخرج من حظوته الالتفات إلى فضيلة الجانب الصوتى حتى إنه استبعد أن يكون البرهان الذى بان للعرب، والأمر الذى بهرهم فى القرآن راجعًا إلى الفواصل وأواخر الآيات، كما رفض أن يكون قول ابن مسعود "إذا وقعت فى "آل حم" وقعت فى روضات دمثات أتأنّق فيهن"؛[3] رفض أن يكون ذلك القول من أجل الفواصل والتحسين الناتج من تشابه الحروف الأخيرة من الآيات.

---

(١) ثمة ضربان من قراءة النصوص: النصوص غير المكتوبة وتتسم قراءتها بكونها شفاهية جهرية. أما النصوص المكتوبة فالأساس فيها هو القراءة الصامتة عن طريق البصر. ولا شك أن التراث الدينى يستمر فى توثيق أولية الشفاهى حتى فيما كان منه قائما على نص مكتوب، ففى المسيحية نجد أن كتابها المقدس يقرأ بصوت عال أثناء الصلوات الشعائرية. وتظل الجهرية خاصية النص القرآنى حتى بعد تدوينه بين دفتى المصحف لأن شعائر الصلاة الجماعية تتم من خلال التلاوة الجهرية والسماع حيث تشكل المستمعين فى مجموعة ذات وشائج موحدة، ويتحقق من خلال التلاوة الجهرية حضور الخالق عز وجل كمخاطِب يتحدث إلى البشر.

(٢) سورة القمر: ٢٢.

(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانى، ص٣٨٨- ٣٨٩.

(٦) السجع والفواصل:

نهضت حساسية كارهة للسجع، نبتت جذورها فى بيئة الإعجاز القرآنى، مدفوعة، بالأخص، بنهى النبى -صلى الله عليه وسلم- عن السجع نهيًا صريحا مما خلق إشكالا؛ إذ كيف ينهى عنه بالرغم من أن صورته ذات تجل وحضور فى النص القرآنى. والبحث معنى بدّيا بتحديد أبعاد الرأى البلاغى فى هذا الإشكال الذى تمخّض عن اثنين من التوجهات هى:

التوجه البلاغى الأول: ويرفض أصحابه إطلاق مصطلح "السجع" على ما ورد فى القرآن من تماثل الحروف الأخيرة من الآيات المتتالية، وينصرف ذلك الفريق إلى استحداث بديل آخر لمصطلح "السجع" يضمن به فصم عرى أى علاقة بين النص القرآنى وما ورد من قول فى البيئة الجاهليّة خاصة على ألسنة الكهنة، فاستبدلوا بمصطلح السجع مصطلحا آخر هو "الفاصلة"، وتشددوا فى التمييز بين المصطلحين.

والراجح أن مصطلح "الفاصلة" انبثق من رحم علم القراءات، ثم انتقل من أئمة القراءات إلى الدرس البلاغى وعلم التفسير. والتحوّل إلى استخدام ذلك المصطلح بدلاً من "السجع" راجع إلى أسباب سوف يلى تفصيلها.

وإذا تتبعنا دلالة لفظة "الفاصلة" وجدنا صاحب كتاب "العين" يورد فى مادة سجع ما نصه "سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل، كقوافى الشعر من غير وزن".[(١)] فمن الواضح أن لفظة "فاصلة" تعنى -عند الخليل- الكلمة التى عندها موضع انفصال العبارات. ويذهب صاحب المصباح المنير إلى أن الفاصلة تنطوى على بعد مكانى يقول: "يأتيك بالأمر من مفصله، أى من منتهاه"[(٢)] والمعنيان السابقان يدخلان فى إهاب الدلالة اللغوية للفظة، فلا تتعداهما الفاصلة إلى ما يتضمن معنى السجع إلا إذا تأكد فيها التشاكل الصوتى للأحرف الأخيرة الذى يعد

---

(١) العين، الخليل ابن أحمد، مادة (س.ج.ع)، ص ٢٤٤. وقد سبق أن توقفنا عند تلك العبارات فى التعريف الاصطلاحى للسجع.

(٢) المصباح المنير، أبو العباس أحمد بن محمد بن على الفيومى، طبعة وزارة المعارف، جـ٢، ص ٨٣.

جوهر القوافى أيضًا.

وبتعمّق تعريف الخليل يتبيّن أن السجع يعنى -عنده- صفة الكلام، أما الفواصل فإنها شبيهة بالقوافى فى أمرين: أولهما، أن الفاصلة تمثل اللفظة التى تنتهى عندها العبارة من النثر وتنفصل عن العبارة التالية، مثلما تعتبر "القافية" اللفظة التى ينفصل عندها البيتان من الشعر. وثانيهما، التشابه الصوتى بين أحرف الروى، وبناء على هذا فالفاصلة -عند الخليل- تُعد جزءًا من السجع.

والفاصلة عند سيبويه (ت١٨٠هـ) تعنى ما ينفصل عنده الكلام سواء أكان رأس آية أم لم يكن، يقول: "جميع ما لا يحذف فى الكلام، وما يختار فيه أن لا يحذف، يحذف فى الفواصل والقوافى. والفواصل قول الله تعالى "والليل إذا يسر" و"ما كنا نبغ" ويوم التناد".(١) فكلمة (نبغ) من قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾(٢) ليست من فواصل السجع حيث إنها وقعت فى حشو الآية، وكذلك لفظة التناد. وقد تنبه الجعبرى إلى أن مراد سيبويه هو "الفواصل اللغويّة لا الصناعيّة".(٣) والمعنى نفسه نقابله لدى أحد أئمة القراءات، حيث يفرّق الإمام "عثمان بن سعيد أبو عمرو الدانى" بين الفواصل ورءوس الآى، منتهيًا من ذلك إلى أن "الفاصلة هى الكلام المنفصل عما بعده. والكلام المنفصل قد يكون رأس آية، وغير رأس، وكذلك الفواصل يكنّ رءوس آى وغيرها؛ وكلّ رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية"،(٤) فذلك هو المفهوم الذى ظل ملازمًا لكلمة "الفاصلة" فى أحضان علم القراءات قبل أن تصير مصطلحا ذا سمات جديدة فى ظل استخدام الدرس البلاغى لها.

وثمّة تساؤل يطرح نفسه على البحث، وهو: لماذا كانت "الفاصلة" -على وجه الخصوص- هى المصطلح البديل للسجع؟ يجيب "الجعبرى" على ذلك الاستفسار،

---

(١) الكتاب، سيبويه "أبو بشر عمرو بن عثمان قنبر، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩، جـ٤، ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) سورة الكهف: ٦٤.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن، السيوطى، جـ٣، ص ٢٩٠.

(٤) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٢٩٠.

فقد جعل لمعرفة الفواصل القرآنية طريقتين: أولهما، توقيفي عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- "فما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم وقف عليه دائمًا تحققنا أنه فاصلة، وما وصله دائمًا تحققنا أنه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرّة ووصله أخرى، احتمل الوقف أن يكون لتعريف الفاصلة، أو لتعريف الوقف التام أو للاستراحة. والوصل أن يكون غير فاصلة أو فاصلة وصلها لتقدّم تعريفها".(١) ويشير "الجعبرى" إلى طريق آخر لمعرفة الفواصل القرآنية وذلك من خلال القياس. فلما كان معروفا استحواذ الأسجاع والقوافى على الوقفة -بوصف كل منهما يمثل لحظة السكوت المؤقت حتى يستأنف المخاطب كلامه ويستعيد قدرته على الاستطراد-(٢) فقد أصبحا الأدوات التى يقاس عليها الفواصل القياسية من منطلق كونهما القرين المناسب.(٣) ويبدو أن هذا الإجراء القياسى كان الإرهاصة الأولى لإحلال الفاصلة محل السجع، ولتشكل الدلالة الاصطلاحية لها فى الدرس البلاغى بأن صارت علامة على شيء آخر غير الوقف، ألا وهو التشاكل الصوتى الحاصل بين الحروف الأخيرة من الآيات. فيعرفها "الرمانى" بأنها "حروف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن إفهام المعانى"(٤) ويتشدد فى التفريق بين السجع والفواصل ناظرًا إلى السجع على أنه نقيصة أسلوبية وعيب بينما يصف الفواصل بأنها بلاغة، ولم يلتفت إلى الطريق القياسى -الذى تحدثنا عنه- والذى يؤكد وجود حلقة وصل بين السجع والفاصلة، فالطريق القياسى لمعرفة الفاصلة -والذى اعتبرناه بداية ميلاد جديد لهذا المصطلح- يؤكد أنه ليس لأحد المصطلحين -(السجع والفاصلة)- فضل دون الآخر، لكن "التخوّف على القرآن وتقديسه وتنزيه إعجازه عن النقائص، أمور أفضت بالوجدان الإسلامى رَدْحًا من الزمن إلى أن يلوذ بما لا ينور النص القرآنى، ولا يجلى بلاغته الرفيعة ونظمه المتلاحم، ونسقه الأسلوبى الذى يسقى بماء واحد، وهى فى الحقيقة مخاوف وتوجسات، استنبتت بذرتها فى تربة الجدل على أيدى

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٩٠- ٢٩١. إن الجعبرى يتحدث -هنا عن الفواصل بمعناها الذى تم إيضاحه فى علم القراءات، وليس المعنى الذى اصطلح عليه فى الدرس البلاغى القديم.

(٢) فهناك قانون بلاغى يؤكد أن مبنى السجع على الوقف.

(٣) انظر: الإتقان فى علوم القرآن، السيوطى، جـ٣، ص ٢٩١.

(٤) النكت فى إعجاز القرآن، الرمانى، ص ٩٧.

المشتغلين بعلم الكلام، ولم تلبث أن امتدت آثارها ونتائجها إلى الدرس البلاغى".[1] الذى نمّاها، فأخذ كل من الرمانى والباقلانى يبذل جهودًا كبرى -غير مقنعة- ليثبت أن القرآن لا يتضمّن سجعًا، وأن السجع معيب فى ذاته، وهو أمر لا يمكن التسليم به، خاصة مع ثبوت نسبة أقوال مسجوعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ لو سلمنا معهم بما ذهبوا إليه فإن هذه الأقوال تصير عرضة للطعن، كما أن قرونًا من الأدب العربى ستكون عرضة للإدانة كذلك.

وقد أخذ القدماء ينتصرون لمصطلح الفاصلة، ويؤكدون وروده فى القرآن دون مصطلح السجع، مشيرين إلى الأدلة الداعمة للمصطلح الأول. وكان رفض السجع يأتى من منطلق الرفض لإطلاق اسم أو صفة لم يقع بهما إذن شرعى فى القرآن. والظاهر أنهم قد وجدوا ما نشدوا من إذن شرعى يؤيد مصطلح "الفاصلة" فى قوله عز وجل ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.[2] وانتصار الفريق المعارض للسجع لمصطلح "الفاصلة" جاء استجابة لمأرب آخر، وهو استقصاء كل أبعاد التشاكل الصوتى، خاصة أنهم حصروا السجع فى المماثلة الصوتية، وقد وجدوا فى استخدام الفاصلة القرآنية توسيعًا للأفق الدلالى باستغراق المتماثل والمتقارب صوتيًا معا. وفى كلام "الرمانى" صورة لما كان يعتمل من نقاش يتعلق باتساع الأفق الدلالى لمفهوم الفاصلة ليتضمن التقارب الصوتى بخلاف القافية فى الشعر أو السجع من النثر. يقول معللاً لذلك: "وإنما حَسُن فى الفواصل الحروف المتقاربة لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد فى تمييز الفواصل والمقاطع، لما فيه من البلاغة وحسن العبارة. وأما القوافى فلا تحتمل ذلك لأنها ليست فى الطبقة العليا من البلاغة، وإنما حسُّن الكلام فيها إقامة الوزن ومجانسة القوافى، فلو بطل أحد الشيئين خرج عن ذلك المنهاج، وبطل ذلك الحسن الذى له فى الأسماع، ونقصت رتبته فى الأفهام".[3] وبغض النظر عن مدى الاقتناع بهذا القول فإن ما ذكره الرمانى بالنسبة للقافية يمكن أن ينطبق على السجع كذلك، الذى يتوازى مع القافية من حيث إنه ليس فى الطبقة العليا من البلاغة وإذا أضفنا وسمه بالتكلّف، تأتّى من خلال ذلك الذهاب إلى أن الكلام لا يكتنفه من البيان ما يدل على

---

(١) مقال، البديع فى تراثنا العربى، دراسة تحليلية، عاطف جودة نصر، ص ٧٤، ٧٥.

(٢) سورة فصلت: ٣.

(٣) النكت فى إعجاز القرآن، الرمانى، ص ٩٨-٩٩.

المراد فى وجود السجع وإنما تكون مرجعية تحسين الكلام فيه ماثلة -كما هو حال القافية- فى تجانس الأصوات. فالتشاكل السجعى يعنى أصواتًا متماثلة فقط.

وتعتبر تلك المقولة بحثًا فى تقنيات الخطاب التى تسمح بإثارة انتباه المتلقين للكلام الذى يقدّم لهم. فالرمانى يضع النص القرآنى -صياغة ومعنى وأدوات صانعة لهذا النسيج المحكم- فى قمة سلّم البلاغة، أو كما يقول "فى الطبقة العليا منه"؛ وذلك لأنه ينقل المعنى إلى المتلقى فى أحسن صورة من اللفظ دون أن يحتاج إلى إجراء بلاغى مبالغ فى تحسينه، بما يعنى أن مجيء الفواصل على أحرف متماثلة أمر ليس حتميا فى نظر الرمانى، وإذا حدث ذلك كان إضافة إلى بهاء الصياغة واكتمالها. أما خطاب البشر فهو -عند الرمانى- واقع فى طبقة متوسطة أو دنيا من سلّم البلاغة ولذا يكون بحاجة إلى إجراء بلاغى مفتعل، يستدرج المتلقى إلى الخطاب، ويوقع به فى المقول الذى لا يستطيع أن يستحوذ عليه إلا إذا كان ذا إيقاع واتساق، ومن ثم لا تحسن القوافى والأسجاع إلا إذا جاءت على أحرف متماثلة صوتيا.

التوجه البلاغى الثانى: أما عن والتوجه البلاغى الثانى الباحث فى قضية السجع والفاصلة فإنه يتحرك فى اتجاه نقيض لزاوية النظر السابقة، إذ لم يتوقف أصحابه عند نفى السجع عن القرآن، بل إنهم أقروا وجوده فيه، وهو مذهب أبى هلال العسكرى، وابن سنان الخفاجى، وضياء الدين بن الأثير، وآخرين. يقول العسكرى: "جميع ما فى القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج، مخالف فى تمكين المعنى، وصفاء اللفظ، وتضمن الطلاوة والماء لما يجرى مجراه من كلام الخلق".[١] إنّ أبا هلال العسكرى، الرجل المعاصر لميلاد تيار البديع، لم ير ما يستدعى معارضة ورود السجع فى القرآن؛ لأنه بالفعل أداة أسلوبية ذات وجود مؤكد فى نسيج النص.

وفى سر الفصاحة رأى معتدل فى قضية السجع والفاصلة، ففيه أن الفاصلة القرآنية على ضربين؛ "ضرب يكون سجعًا وهو ما تماثلت حروفه فى المقاطع، وضرب لا يكون سجعًا وهو ما تقابلت حروفه فى المقاطع ولم تتماثل، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين أعنى المتماثل والمتقارب من أن يأتى طوعًا سهلاً وتابعاً

---

(١) كتاب الصناعتين "الكتابة والشعر"، أبو هلال العسكرى، ص ٢٨٥.

للمعانى وبالضد من ذلك؛ حتى يكون متكلفاً يتبعه المعنى، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدال على الفصاحة وحسن البيان، وإن كان من الثانى فهو المذموم المرفوض. فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود لعلوه فى الفصاحة وقد وردت فواصله متماثلة ومتقاربة".[١] ومن تحليل ابن سنان لأضرب الفواصل تبرز المعايير التى بواسطتها تتفاضل أنماط الفواصل، فالمحك الأساسى فى ذلك هو أن تفضى المعانى إلى أى ضرب منهما إفضاء طبيعيًا بحيث تأتى الفاصلة متمكنة فى مكانها، أما إن كانت الألفاظ هى المفضية إلى الفاصلة فإن ذلك يجعل الكلام بعرض الاستكراه والضعف والتكلف. وتلفتنا فطنة ابن سنان إلى أن "المحذورات التى من أجلها كان ذم السجع ليست ذاتيّة له ولا ناشئة من طبيعته، وإنما هى أمور عارضة يمكن أن ينفصل عنها ويتجرد منها فلا يكون مذمومًا".[٢] فعنده أن "المذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأجله ورد ليصير وصلة إليه".[٣] وثنائية معيار التقييم هذه هى المذهب المجمع عليه لدى المشتغلين بالبلاغة القديمة، والملاحظ "أن التصورات القديمة عالجت محسنات البديع، بَلْهَ الموضوعات البلاغيّة الأخرى، انطلاقًا من هذه القسمة الصارمة؛ فهذه كومة من الألفاظ، وتلك كومة من المعانى".[٤]

وفى "المثل السائر" يتجلى موقف دارسى تقاليد البيان العربى من وقوع السجع فى القرآن –وهو موقف معارض بشكل ظاهر لموقف دارسى إعجاز النص القرآنى ومفسريه– يقول ابن الأثير: "وقد ذمه بعض أصحابنا من أرباب هذه الصناعة، ولا أرى لذلك وجهًا سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذمومًا لما ورد فى القرآن الكريم؛ فإنه قد أتى منه بالكثير، حتى إنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة، كسورة

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجى، ص ١٦٥. وعبارة ابن سنان عاليه، توحى ضمنياً باستخدام مصطلح "الفاصلة" فى غير النص القرآنى.

(٢) مقال: السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك فى القرآن الكريم، الشيخ عبد الرحمن تاج، مجلة مجمع اللغة العربية، ع٣٦، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٣٤.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجى، ص ١٦٣- ١٦٤.

(٤) البديع فى تراثنا الشعرى، دراسة تحليلية، عاطف جودة نصر، ص ٧٥.

الرحمن، وسورة القمر، وغيرهما، وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور".[1] والأمر الغريب ذهاب ابن الأثير إلى أنّ ثم فريق من القدماء للسجع نابع من إخفاقهم في الصياغة على منواله، فيراه غير مكروه لذاته. غير أنه لم يأخذ من رفضهم للسجع منطلقا إلى إعادة تفسير لنظرتهم المناوئة له؛ "إذ ليس من اللازم أن الإنسان إذا عجز عن شيء كرهه دائما، بل قد يعجز الإنسان مثلا عن قول الشعر مع إعجابه به وبمن يقوله".[2]

ويبدو أن اعتدال النظرة إلى السجع قد نشأ من الإقرار بأعراف إبداعية جديدة. فتلك المؤلفات التي لم تمانع من ورود السجع في القرآن ولم تر فيه نفورًا ولا استكراهًا قد عاصرت استيعاب تيار البديع بعد أن اختفت وطأة النقد والمعارضة التي وجهت إليه وانبهر به عدد من المبدعين والقراء، وقد شكل استيعاب تيار البديع نقطة انطلاق التمرّد على الموقف القديم من السجع، وأخذ الموقف اتجاها معاكسًا لما كان عليه من قبل، إذ درج النقّاد والبلاغيون على تنصيب الشاهد القرآني بوصفه أعلى ما وصلت إليه البلاغة- حكمًا ومقياسًا وزنوا عليه التقدُّم في توظيف ضروب البديع، وفي مقدمتها السجع. ومن هنا جاءت المراقبة الواعية لتشكلات السجع في نصوص العربية عامة وفي النص القرآني بصفة خاصة، كما جاءت العناية بالشروط الواجب توافرها في السجع الجيد.

وأقول بعبارة أخرى إن تأمل أدوات الإبداع اقترن على مر العصور بتأمل موازٍ في النص القرآني، فهو الخطاب المهيمن، وهو الخطاب الذي يُوجَّه لمتلق عام ومن هذا المنطلق أصبح هاجس البلاغيين والنقاد التدليل على أن بنية النص القرآني لا تتوقف عن انفتاحها وأنها مؤهلة لأن يلحظ داخلها كل تحوّل إبداعي جديد، وكان ذلك التدليل حتميًا خاصة بعد أن تم استيعاب ذلك الإبداع، والتف حوله حواريوه.

السجع في القرآن بين المعارضة والقبول، وتفنيد كل فريق لأدلته: وبين معارض لورود السجع في القرآن ومؤيد، راح كل فريق يقدّم الأدلة الداعمة لمذهبه في الرفض أو القبول. وتوقفوا عند حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي

---

(١) المثل السائر، ابن الأثير، ص١٩٥.

(٢) دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، عبد الجواد طبق، دار الأرقم للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م، ص٤٧.

قدمنا من قبل، والذى نهى عن السجع بقوله: "أسجعًا كسجع الكهان". فقد شغل هذا الحديث القائمين على شرح قضايا الإعجاز القرآنى والتفسير البلاغى، وأول ما يعثر عليه فى هذا الصدد ما قدمه أبو عثمان الجاحظ فى سياق الحوار الدائر بين عبد الصمد بن عيسى الرقاشى ومحدثيه من المسجديين بالبصرة، حيث تأمّل "عبد الصمد" ما فى حوزته من عبارات الرجل التى أنشأها على غرار أسجاع الجاهلية فلم يجد فيها شبهة تكلّف من حيث الصياغة بيد أنه ربطها بمقصد الرجل إلى إبطال الحق المأمور به متوسلاً طريق التشادق فى القول. أورد الجاحظ قول الرقاشى: "لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن، لما كان عليه بأس، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالا لحق فتشادق فى الكلام".[1]

وقد اتخذ "الباقلانى" من ذلك الحديث مؤيدًا لنفى السجع من القرآن، ويعلل نفيه بعيدًا عن الصياغة جاعلاً من الكهانة وحدها دافعًا لذلك قال: "كيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب؟ ونفيه من القرآن أجدر بأن تكون حجة من نفى الشعر؛ لأن الكهانة تنافى النبوات وليس كذلك الشعر".[2]

أما أبو هلال العسكرى فإنه يتجه بصورة تعسّفية إلى تأكيد سيادة التكلّف فى عبارات الرجل انطلاقا من موقف مسبق ينهض على الاعتقاد التام فى تفشّى التكلف فى سجع الكهان.[3] ويذهب ابن الأثير إلى مثل هذا القول: "فالسجع إذا ليس بمنهى عنه، وإنما المنهى عنه هو الحكم المتبوع فى قول الكهان؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أسجعاً كسجع الكهان؟ أى: أحكما كحكم الكهان؟"،[4] إذ "لو كره النبى صلى الله عليه وسلم السجع مطلقا لقال: "أسجعًا. ثم سكت، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لِمَ كان، فلما قال: "أسجعًا كسجع الكهان" صار المعنى معلقاً على أمر".[5] فالسجع عند ابن الأثير ليس مذمومًا فى ذاته، وكذلك كلام الرجل "فالسجع الذى أتى به... كلام حسن من حيث السجع، وليس بمنكر لنفسه؛ وإنما

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، جـ١، ص ٢٧٦.

(٢) إعجاز القرآن، الباقلانى، ص ١١١.

(٣) انظر: الصناعتين، العسكرى، ص٢٨٦.

(٤) المثل السائر، ابن الأثير، جـ١، ص١٩٧.

(٥) المصدر نفسه، جـ١، ص ١٩٦.

المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يدى الجنين بغرّة عبد أو أمة". [1]

وفى ظل حركة النقد والبلاغة والتفسير، التى اتخذت من إثبات إعجاز القرآن وتفرّد نصه بخروجه على المعهود من نظام جميع كلام العرب -مدخلاً للرد على أرباب عقيدة التوحيد والعدل من المعتزلة ومن اتبع سبيلهم، ممن قالوا بالصرفة كمحصلة منطقية لإيمانهم بكون كلام الله مخلوقًا صرف عن معارضته أنه إلقاء فى الروع. ومن هذا المنطلق اتجه النقاد والبلاغيون إلى إلحاق الدونيّة بمفهوم السجع ليكون فى درجة مغايرة لما هو فى تقدير السجع من القرآن.

ويبدأ الرمانى فى طرح أدلته على نفى السجع من القرآن إذ يقول: "إنما أخذ السجع فى الكلام من سجع الحمامة، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة، كما ليس فى سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة؛ إذ كان المعنى لما تُكلِّف من غير وجه الحاجة إليه والفائدة فيه لم يعتد به، فصار بمنزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة"[2] يبنى الرمانى وجهة نظره فى رمى السجع بالعرضية من خلال رجوعه إلى جذره المعجمى أو الاشتقاقى. والغريب أن الرمانى قد جعل الأصل الاشتقاقى محددًا لقيمة المصطلح -باعتبار أن الاصطلاح يكون قائما على عملية واعية- على أن "الباقلانى" يرفض رد تكلف المصطلح الاشتقاقى وحده، ويقرر أنه لا معنى لهذا الاتجاه "لأن ما جرى هذا المجرى لا يبنى على الاشتقاقى وحده، ولو بنى عليه لكان الشعر سجعا؛ لأن رويّه يتفق ولا يختلف، وتتردد القوافى على طريقة واحدة". [3]

وإذا كان الباقلانى لا يقبل التصوّر السابق، فإنه يقدّم تصوّرات ومبررات أخرى وذلك من خلال تحليله لعدد من الأدلة التى يراها مؤهّلة لرفض ورود السجع فى القرآن. ويخرج الدليل الأول من المفاضلة بين القرآن الكريم والقول البشرى. فلو "كان القرآن سجعًا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز. ولو جاز أن يقال سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا: شعر معجز...

---

(١) المصدر نفسه، جـ١، ص ١٩٧.

(٢) النكت فى إعجاز القرآن، الرمانى، ص ٩٨.

(٣) إعجاز القرآن، الباقلانى، ص ١١٥.

ولو كان الكلام الذى هو فى صورة السجع منه لما تحيروا فيه، وكانت الطباع تدعو إلى معارضته، لأن السجع غير ممتنع عليهم، بل هو عادتهم... ولو كان عندهم سجعا لم يتحيروا فيه ذلك التحير حتى سماه بعضهم سحراً، وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به، ويصرفونه إليه ويتوهَّمونه فيه، وهم فى الجملة عارفون بعجزهم على طريقه، وليس القوم بعاجزين عن تلك الأساليب المعتادة عندهم، المألوفة لديهم".[1]
ويرى البحث أنه لو كان الهدف هو تفرّد النص القرآنى بمصطلحه دون غيره من القول العربى، لما قلنا بورود التشبيه والاستعارة والجناس وما إليها من البنى البلاغية التى لم يتعلل القدماء لوقوعها فى النص القرآنى. "ومما يؤسف له أن هذه [الأدلة] الضعيفة... لا تتفق مع اللغة العربية وما تميزت به من مرونة واتساع وتفنن فى التعبير. وليس فى القرآن آية واحدة تدل على أنه كلم العرب بما لا يفهمونه إذ يقول تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[2]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[3]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.[6] هذه الآيات وأمثالها تدل على أن القرآن إنما كلم العرب وَفقَ ما كانوا يتعاطون من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز وسجع وتجنيس ومقابلة".[7]

والدليل الثانى من أدلة الباقلانى فى نفى السجع عن القرآن هو: أن السجع مما كان يألفه الكهان من العرب ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر، لأن الكهانة تنافى النبوات وليس كذلك الشعر.

والدليل الثالث: نحى إلى تعيين الانفصال بين السجع وما جرى على مثاله من

---

(١) إعجاز القرآن، الباقلانى، ص١١١- ١١٤.

(٢) سورة النحل: ١٠٣.

(٣) سورة إبراهيم: ٤.

(٤) سورة يوسف: ٢.

(٥) سورة الزخرف: ٢.

(٦) سورة الشورى: ٧.

(٧) البديع فى تراثنا الشعرى العربى، عاطف جودة نصر، ص ٧٤.

القرآن من خلال ما لاحظه الباقلانى من عدول القرآن عن الضوابط التى وضعت للسجع الحسن. وقد نشأت نظرته هذه من اعتماد الضوابط بداية ثم يليها تطبيق ما فى النص القرآنى عليها. وهذا الدليل لا يفى بغرضه فى نفى ورود السجع فى القرآن الكريم، إذ لا يستطيع أن ينفى ورود بعض الآيات ملتزمة لهذه الضوابط التى رآها أصلاً فى السجع.

ويذهب أحد المستشرقين وهو –ديفين استيوارت– إلى أن سبب رفض الباقلانى لوقوع السجع فى القرآن هو اعتقاده بأن "أيّة محاولة للقول بوجود قواعد شكلية تنال من قدرة الله".(١) ونسأل: ألا يرى أن ذهاب الباقلانى إلى القول بالفواصل هو من قبيل الاعتراف بالقواعد الشكليّة لا نفيها كما يدعى.

والدليل الرابع: ويتصل بالمصطلح المناسب للقول بوجوده فى القرآن. وقد أعرض الباقلانى عن مصطلح السجع انطلاقاً من التحديد الاشتقاقى له، وهو إدبار يرتوى من منبع دينى بحت.

ويرى القائلون بوجود السجع فى القرآن أنه مما يبين به آثار الصناعة، وتتجلّى الفصاحة فى استخدامه؛ ذلك أن براعة استخدامه يتضح بها فضل الكلام. وقد استشهدوا على كثرته فى النص القرآنى. ورغبة فى تنزيه القرآن عن أن يكون مماثلاً لأى نص بشرى فقد شددوا على أن ما جرى على القرآن من السجع والازدواج مخالف لأى نص بشرى فقد شددوا على أن ما جرى على القرآن من السجع والازدواج مخالف فى تضمن الطلاوة والماء لما يجرى مجراه من كلام الخلق.

والخلاصة أنه قد بان من دراسة قضية السجع والفواصل على هذا النحو الذى قدمناه، أن رَفْضَ السجع انبثق من أصل عقائدى، حاول بعض البلاغيين والنقاد والمفسرين التماس ما يؤيد مذهبهم، بَيْدَ أنهم تعسفوا نتيجة لهذا البعد العقائدى فلم يتجهوا إلى النص مباشرة للمقارنة بين ما ورد فيه وما هو من السجع، ولكنهم سلكوا طريقا آخر باعد بينهم وبين العمق فى إثارة القضية بشكل علمى موضوعى.

---

(١) السجع فى القرآن بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ص١٠.

كانت هذه وقفات حول مفهوم السجع فى التراث ووظيفته مع مناقشة آراء المعارضين لوجوده فى القرآن، والقائلين بوجوده. ونحاول فيما يأتى الوقوف أمام النص القرآنى لاستجلاء هذه السمة الأسلوبية ومدى تجليها فيه وذلك من خلال دراسة تحليلية تتخذ منحى أسلوبيًا.

الفصل الثانى

السجع القرآنى (كميا – صوتيا – شكليا)

[١] الإحصاء الكمى ودلالته

[٢] البناء الصوتى

[٣] البناء الشكلى

[أ] الإحصاء الكمى ودلالته

يهتم البحث فى هذه الجزئية من الدراسة برصد مجموع البنى السجعية مقارنة بمجموع البنى المرسلة؛ للوقوف على نسبة كل منهما واستخلاص الدلالة الكلية التى يمكن أن تحدد موقف الخطاب القرآنى فى الميل إلى إحدى الطريقتين: السجع أو الترسل.

وقد يطعن البعض فى قيمة العناية بهذه المعالجة الإحصائية، مشيراً إلى أن ميل النص القرآنى إلى استخدام السجع أمر يبدو واضحا ليس فى حاجة إلى إحصاء للتدليل عليه. وبالنسبة لرؤية البحث فإن لها توجهًا آخر، فالتصورات المبدئية الموجهة من قِبَل الشعور والإحساس تبقى فى عداد الافتراض الذى يحتاج إلى الكشف عن مدى كفاءته، وقد نجانب الصواب إذا قنعنا بالحدس وحده عاملا يوجه الاستنتاجات والأحكام العلمية، وإذا تعاملنا مع الاستنتاجات المؤسسة على الحدس على أنها حقائق قاطعة. ويصدُق هذا الكلام -بصفة خاصة- على الأحكام التى تقطع بترجيح كفّة ظاهرة أسلوبية على بدائلها من ناحية الكم، وذلك دون أن تعمد إلى استخدام إجراء حاسم يحوّل الحدس إلى يقين. إن هذه الأحكام تظل افتراضات فحسب؛ وهنا تتمثل الحاجة إلى اختيار وسيلة علمية منهجية يختبر بها ثبات الحكم الافتراضى، ومن ثم تصبح للمعالجة الإحصائية قيمتها؛ حيث إنها تفيد فى قياس مدى كفاءة الافتراضات المطروحة، كما تمنح فرصة اكتشاف العديد من النتائج التى تتوارى خلف التصوّر المبنى على الحدس، وذلك من خلال استكناه الدلالات الإحصائية للأرقام.

بيد أن الحكم المعتمد على الحدس والحكم المؤسس على الإحصاء ليسا حتما أن يكونا على طرفى نقيض، فالغالب أن يتفقا، ومع ذلك فإن الإحصاء يظل له مبرراته أيضا، إذ لا يمكن الجزم عن طريق الحدس بأن التفوق الكمى لظاهرة أسلوبية على بدائلها هو تفوق دال أو ذو قيمة، ولا يمكن التأكد من ذلك إلا بتحديد دقيق لمدى كثافة الظاهرة وبدائلها فى النص، فقد يكون تفوقها محدودًا للغاية لا يُمكن الاعتماد عليه فى القطع بمسألة الاختيار الأسلوبى، أو بتعبير آخر، لا يعتد به فى تحديد الإيثارات اللغوية للنص. علاوة على ذلك فإن تقييم دور الظاهرة فى التشكيل الأسلوبى للنص لا يتحدد بشكل جاد وصارم إلا بعد تعيين درجة شيوعها وطرق توزيعها.

ودراسة السجع القرآنى تستدعى قبل بدء الإحصاء أنْ يقوم البحث بتحديد مفهوم السجع الذى سيتبناه التطبيق، خاصة بعد أن تكشف من متابعة آراء البلاغيين والنقاد القدامى وجود عدة مفاهيم تطليق عليها جميعا لفظة سجع، وبعد أن رأينا بنيتى الموازنة والالتزام تجتازان بوابة السجع، وتصحبان جزءًا منه على يد بعض البلاغيين مع أنهما بنيتان مختلفتان عنه تمامًا.

فالسجع: من التنويعات اللغوية التى تتأتى على المستوى السطحى للصياغة، ويتسم بكونه بنية بديعية إيقاعية يرتكز إيقاعها على التكرار الصوتى المنتظم، إذ يعتمد على تكرار الحرف الأخير من الفقرة فى نهاية الفقرة التالية لها. ويسمى الحرف الذى يتولد السجع من تكراره "رويًا"، كما تسمى الكلمة موطن الروى "فاصلة". وهناك مجموعة مصطلحات أخرى مصاحبة، يتعين على البحث تحديدها؛ ذلك أنها تشكل بعضا من معجمه اللغوى الذى سيطالعنا كثيرا فيما يلى من صفحات. فالسجع يقسِّم الكلام إلى عبارات يطلق على الواحدة منها فقرة أو "عبارة مسجوعة"، ويطلق على العبارات المسجوعة فى علاقتها بعضها ببعض داخل الكلام مصطلح "تراكيب سجعية"، والتراكيب نفسها تنتظم فى كيان كلى هو وحدة؛ وهو المصطلح الذى ردده "ديفين ج ستيوارت" فى دراسته لبنية السجع فى القرآن.(١)

وإذ يتوجه البحث إلى إحصاء السجع القرآنى ومعاينة تجليه فى النص فى مقابل تجلى الترسُّل، فإنه يضع نصب تحركه قضيّة ينبغى مناقشتها أولاً.

فالتعريف المتقدِّم يوضح الركيزة الجوهرية لحضور بنية السجع فى النص، فهى تقوم علي تكرار الحرف الأخير من عبارات تدخل فى تركيب أساسه هذا التكرار، وتَولُّد السجع يعتمد –على الأقل– على ثنائية بوصفها حدًا أدنى للاشتراك فى الصوت الختامى؛ ومن ثَم يتجلى مفهوم الوحدة متمثلا فى بنية السجع. ويرى البحث ضرورة استثمار هذا المفهوم لتحديد الآيات المسجوعة الداخلة فى وحدة من الآيات الأخرى غير المسجوعة، وفى هذا الصدد تتقدّم بعض التساؤلات لتطرح نفسها على البحث، منها: هل يُكتفى فى تحديد الوحدة

---

(١) انظر: السجع فى القرآن بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ص ٢٠.

السجعية بملاحظة تكرار الحرف الختامى من الآيات فحسب؟ وهل سورة تنتهى آياتها بالحرف نفسه تعد وحدة سجعية واحدة؟ ما عدد الآيات فى الوحدة السجعية القرآنية؟ يلاحظ أن فى القرآن الكريم آيات تحتاج إلى إنعام نظر لتحديد وضعها الإحصائى أهى من السجع أم الترسُّل؛ ذلك أنها قد تتفق مع الآية التالية فى الحرف الأخير بينما تختلف مع السابقة أو العكس، والطريق الأمثل لتحديد وضعها الإحصائى هو التوجه إلى النص لرصد إجراءاته فى تجميع الآيات القرآنية المسجوعة فى وحدات يتعيّن بتحديدها معرفة الآيات الأخرى غير المسجوعة التى تتخلل بناء النص.

ولقد شغلت هذه المسألة "ديفين ج. ستيوارت". فقام فى مقال "السجع فى القرآن: بنيته وقواعده". باقتراح عدة أسس تجميعية لأجزاء الوحدة السجعية القرآنية.(١) فهو يرى أن تماثل مقاطع الفصول فى السجع ليس العامل التجميعى الأساسى فى عملية الربط بين الآيات، "فالقرآن يمدنا بأعداد كبيرة من السطور المتوالية المتحدة القافية بحيث يصل عددها إلى أربعين أو أكثر أحيانا غير أنه من الواضح فى بنيتها أن السطور تنقسم إلى وحدات أصغر".(٢) كما يذهب ستيوارت إلى أن الاعتماد على التماثل الحرفى فى تحديد عدد الأجزاء المشاركة فى تكوين الوحدة السجعية يعد غير كاف ولا دقيق، ويعلل ذلك بأننا قد نجد مجموعتين من السجعات مميزتين تمييزا واضحا ولهما مع ذلك نفس القافية. وبناء عليه اتجه "ستيوارت" إلى تقديم بعض الاقتراحات بالأسس التجميعية فى الوحدة السجعية القرآنية استخلصها من المتابعة الرصدية للقرآن، كما قام بمتابعة القواعد التى يمكن أن تُتخذ مؤشرا على الانتقال من وحدة سجعية إلى أخرى، وفيما يلى تلخيص للأسس التى اقترحها بوصفها إجراءات يقوم بناء عليها تقسيم السجع القرآنى إلى وحدات سجعية.

الأساس التجميعى الأول: المطلع

والمطلع: عبارة افتتاحية يتعلق بها دلاليا بقية الآيات بعدها. ويذهب "ستيوارت" إلى أن الإتيان بمطلع جديد معناه بدء تلقائى لوحدة جديدة.

---

(١) انظر: السجع فى القرآن: بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ص ٢٢-٢٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢-٢٣.

وقد ورد فى القرآن الكريم أمثلة كثيرة يكون فيها المطلع هو العنصر التجميعى، ومثّل ستيوارت(١) لذلك بقوله تعالى: ﴿[الْحَمْدُ للّهِ] رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.(٢) فالعبارة الموضوعة بين قوسين تمثل الرابط الذى يشد أجزاء الوحدة إليه. والملاحظ أنها تتكرر على المستوى الذهنى، فتمتد ذهنيا فى الآيتين الثانية والثالثة وإن لم تتكرر خطيّاً. وقد أتى ستيوارت بهذا المثال السابق حيث إنه يعتمد فى تعريف السجع النوعين المتماثل والمتقارب معًا. ومع ذلك فإن الإجراء الذى رصده له حضوره فى آيات قرآنية تنتهى بالتماثل الحرفى مثال قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾.(٣) ويلاحظ فى النص القرآنى أن العبارة الافتتاحية قد تكون كلمة أو كلمتين أو فقرة كاملة تمثل العامل المعنوى المشترك الذى يجمع أجزاء الوحدة، وهذه الفقرة قد تكون عنصرًا من عناصر السجع، أو مستقلة عنه. ونمثل للحالة الأولى بقوله تعالى: ﴿[كَلا إِنَّهَا لَظَى]، نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى، تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى، وَجَمَعَ فَأَوْعَى. [إِنَّ الإِنسَانَ] خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.(٤) نرى هنا كيف جاءت كل وحدة على روى واحد، تجمع بين أجزائها علاقة معنوية وثيقة، ونمثل للحالة الثانية بقوله تعالى: ﴿[فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ]، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا، وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا، [وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ]، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا، وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾.(٥) فإن الآية الأولى من بداية كل وحدة تظهر مستقلة بذاتها غير داخلة فى السجع، ومع ذلك تمثل مركز انطلاق العامل المعنوى المشترك الذى تسرى فاعليته فى بقية الآيات المكونة للوحدة.

الأساس التجميعى الثانى: طول الفقرة. فالوحدة السجعية تتغير بتغير طول السجعة حتى وإن لم يختلف الروى. ويمثل "ستيوارت" لذلك بقوله تعالى: ﴿[قُلْ أَعُوذُ] بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ، مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ،

---

(١) انظر: السجع فى القرآن: بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ص١٧.

(٢) الفاتحة ٢-٤.

(٣) الغاشية ١٣-١٤.

(٤) المعارج: ١٥- ٢١.

(٥) الانشقاق: ٧-١٢.

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾(1) فبالرغم من اتفاق الروى فإن السورة تنقسم إلى وحدتين، وتمثل أطوال الآيات الأساس التجمعى فى كل وحدة سجعية منهما، فالوحدة الأولى مكونة من مطلع يعقبه كلمتان فى كل آية، أما الوحدة الثانية فإنها مكوّنة من كلمات أربع ثم خمس ثم ثلاث.

الأساس التجميعى الثالث: توازى التركيب النحوى. ولدينا فى سورة التكوير أربع عشرة عبارة مسجوعة تكون وحدة متماسكة، ونلحظ فيها أن هناك درجة عالية من التوازى بين العبارات التى ينتظمها تركيب نحوى واحد من أولها إلى آخرها. ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ، وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ، وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ، وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ، وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ، عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾.(2)

الأساس التجميعى الرابع: استخدام آية تقريرية أو فاصلة، ونسميها آية فاصلة؛ لأنها تفصل بين الوحدات، وتعين حدود الوحدة. ونرصد تكرار الآية الفاصلة فى ثلاث سور قرآنية برزت فيهن هذه الظواهر الأسلوبية بشكل لم يبدو فى غيرها. والسور الثلاث هى "الرحمن– القمر– المرسلات". فقد تكررت ﴿فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فى الرحمن إحدى وثلاثين مرة. و﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فى القمر أربع مرات، و﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مرتين. وتكررت ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ فى سورة المرسلات عشر مرات.

الأساس التجميعى الخامس: حرف الروى. فإن تغيير حرف الرويّ بعد عدد من الآيات هو أحد وسائل فصل النص بين وحداته السجعية، "ولدينا فى سورة العاديات مثل واضح لهذا النوع فى البناء ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا، إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ، وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ، أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ،

---

(1) سورة الناس: ١– ٦.

(2) التكوير: ١– ١٤.

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ، إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾.[1] تنقسم السورة إلى أربع وحدات مسجوعة، لكل واحدة منها روى مختلف".[2] هو على الترتيب (الحاء، والعين، والدال، والراء).

هذه هى الأسس التجميعية التى رصدها "ستيوارت" فى دراسته للسجع القرآنى. ويلاحظ أن غالبية تحركات "ستيوارت" كانت على مستوى السطح الصياغى معتمدًا على التغيرات الشكلية فحسب، وهذا جهد لا يمكن إغفاله، بيد أنه لا يكفى لرصد كل الوحدات السجعية فى القرآن الكريم. فمن الواضح أنه لا يمكن القيام بمسح شامل للسجع القرآنى بالاعتماد على هذه الملاحظات الشكلية فقط، فثمّة حاجة إلى أساس تجميعى يمكن إجراءه فى النص بكامله لتحديد الآيات المسجوعة وتمييزها من الآيات المرسلة، وقد راح البحث يستقصى فى نص القرآن الكريم عن إجراء عام أو يمكن تعميمه.

فإذا عدنا إلى سورة العاديات التى مثّل لها ستيوارت على تصنيف الوحدات السجعية وفقا لتغير حرف الروى إذا عدنا إليها وقرأنا وحداتها كلا على حدة، فسنرى ماهية العلاقة التى تربط بين فقرات الوحدة، والتى بدت –هنا– واضحة كل الوضوح. فإن ما يمسك حبل مجموعة من الفقرات وينتظمها جميعا فى وحدة سجعية واحدة ليس فقط تماثل أحرف الروى، بل إن بين الفقرات رابطا آخر لم يتعرض له التحليل البلاغى ويبدو أن الدراسات الحديثة –أيضا– لم تلتفت لوجوده عدا دراسة محمود المسعدى لإيقاع السجع العربى.[3] فمن الظواهر اللافتة فى هذه السورة، أن الخروج من وحدة سجعية إلى أخرى، كان يرتبط بالخروج من فكرة إلى فكرة، أو من مقام إلى مقام. فالآيات الثلاث الأولى تتبنى على القسم؛ إذ يقسم الله سبحانه وتعالى بالخيل الغازية حتى تعدو فتضبح، ويمتد المشهد الذى تكون فيه الخيل هى المحور الأساسى للحديث

---

(١) العاديات: ١-١١.

(٢) السجع فى القرآن بنيته وقواعده، ديفين ستيوارت، ص٢٦.

(٣) يقول محمود المسعدى: "فينبغى التأكيد على أن ظاهرة المزاوجة المعنويّة لها فى السجع أهمــية تحمل على ترك القول بأن القافية هى العنصر الأساسى فيه والتأكيد على أنها مجرّد عنصــر إيقــاعى لا يعدو الوظيفة الإضافية التى بينّاها". الإيقاع فى السجع العربى محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدى، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٩٦، ص٤٩.

مصورا أثر عدوها حين تتقدح النار من حوافرها، وهى تسعى جاهدة للوصول إلى مكان الإغارة فى الوقت المحدد (أى فى الصباح). وينتقل محور الحديث فى الوحدة الدلالية الثانية من الخيل والقسم ووصف صفات هذه الخيل فى عدوها إلى الوادى الذى حدثت فيه الإغارة ليصور شكله بعد عدو الخيل به، وقد علاه الغبار، والتقت فى وسطه الخيل العاديات بجموع الأعداء. ثم يأتى الجواب على القسم مُمثّلا محورا معنويا جديدا يتأكد من خلاله كفران الإنسان بنعمة ربه، حيث تتصرف الألف واللام فى كلمة الإنسان (التعريف) للعهد دون الجنس، إذ ليس كل الناس كنودين كفرة جحدة. والإنسان هنا هو مركز الحديث، هو نفسه شاهد على كفره بنعم الله مع حبه الشديد لها حبًّا ينسيه آخرته وما يحدث يوم البعث من حساب وجزاء على ما قدمه من عمل. واختيار المقسم به يراعى فيه الصفة التى تناسب الموقف المقسم عليه؛ فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: "الخيل معقود بنواصيها الخير"[1]، وفى هذا القول كناية عن الغنائم التى ينعم الله بها على المنتصر بعد انتهاء الغارة، فالعلاقة الدلالية العرفية بين الخيل والخير هى علاقة السبب بالمسبب، وقد تسمَّى الخيل خيرًا لتعلق الخير بها، وجاء ذلك فى قول رب العزة فى خبر سيدنا سليمان: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾.[2] غير أن الإنسان يفرِّط فى شكر ربه على ما أنعم به عليه وينشغل عن المنعم بالنعم من مال وخيرات، فهو "لحب المال وإثار الدنيا وطلبها قوى مطيق، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس".[3] وفى ختام السورة يتوجه الخالق عز وجل بسؤال توبيخى يتوعد فيه الإنسان الذى بدا جاهلا بمصيره، كأنه لا يعلم أنه مبعوث بعد موته، وأن الله سبحانه وتعالى مطلع على ما يفعله بنو الإنسان، مجازيهم يومئذ بأعمالهم.

هكذا يتضح أن كل وحدة سجعية تتمتع بمحور معنوى خاص يمثل الرابط الذى تتماسك به أجزاء الوحدة داخليا، ويعتبر السجع –هنا– علامة هذا الارتباط

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، الزمخشرى، دار المعارف، د.ت، جـ٣، ص ٣٢٨.

(٢) سورة ص: ٣١– ٣٢.

(٣) الكشاف، الزمخشرى، جـ ٤، ص ٢٢٩.

خارجيا؛ ولذا نقول إنه يؤدى دوراً أكبر من إنتاج الصوتية وتحسين الكلام حيث يعمل مؤشرًا على حركة المحتوى. ومن البيّن أن هناك تلاؤما واضحا بين الوحدات المسجوعة على مدار السورة بأكملها ويرجع ذلك إلى وجود معنى عام ينتظمها، وليس هذا قاصرًا على سورة العاديات، فإن المناسبة[1] تتجلى فى كل سورة قرآنية ومتابعتها تؤكد تحقق التماسك بين الوحدات.

ومن ثم نرى أن الصياغة فى السورة عبارة عن سبيكة متلاحمة العناصر، فالصوت الموحد فى نهاية الفواصل عامل ربط ظاهرٌ، يشغل وجدان المتلقى بصفة دائمة بمنطقة الرنين الصوتى، كما يشغل عقله -كذلك- من حيث إنه يحدد البداية الدلالية ونهايتها، بما يتيح للمتلقى الذى يدرك هذا النظام أن ينتبه بعد كل تغير فى السجع إلى أن هناك حركة ذهنية جديدة عليه متابعتها.

وإذا كان هذا المبدأ يظهر بوضوح فى سورة العاديات، فإن له -أيضا- حضوره فى غالبيّة المواضع فى النص القرآنى، التى تفرض علينا نظامها الذى يتفق مع المبدأ الملاحظ؛ وهو أن المحتوى يمثل الأساس التجميعى الذى يربط العبارات المسجوعة ويخلق منها وحدة. ويبدو ذلك المبدأ فى صورة جلية فى السور الآتية: الشرح، البلد، الفجر، الطارق، البروج، الانشقاق، الانفطار، التكوير، النازعات، ... وغيرها من السور القرآنية المكية لمن يمعن النظر وبخاصة فى مثل هذه النماذج التى اتسمت بتنوع أحرف الروى.

وإذا رجعنا إلى السجع الذى كان ينشئه الخطباء والكتاب فى الجاهلية أو فى صدر الإسلام أو فيما بعد ذلك، وبحثنا فيه عن مدى صحة وجود رابط بين المستوى السطحى للصياغة والمستوى الذهنى فإننا نستخلص الأمور الآتية:

أ- أن الخطيب أو الكاتب كان يخرج من سجع إلى آخر، فينتقل بعد عدد من الفقرات يبنيها على روى معين إلى روى آخر يبنى عليه سلسلة أخرى من الفقرات.

---

(١) يقصد بالمناسبة: أن ترتيب آيات القرآن داخل السورة الواحدة حسب وروده عن النبى - صلى الله عليه وسلم- جاء متناسبًا متلائمًا متلاحمًا بحيث تمثل كل سورة قرآنية وحدة دلالية كبرى بذاتها.

ب- أن الفقرات المتتالية التى أتت على حرف واحد فى نهايتها، كان ينتظمها محور معنوى واحد.
جـ- أن الخروج من سجع إلى آخر كان يرتبط بالانتقال من محور معنوى إلى آخر.

ولنستدل على هذا ببعض الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر. نطّلع فى مقولات الجاهلية على بعض فقرات من خبر خروج خمسة نفر من طيء إلى سواد بن قارب ليمتحنوا علمه. "فتكلم برج وكان أسنّهم قال: جادَك السحابُ، وأمرَعَ لك الجَنَابُ، وضَفَتْ عليك النعم الرِّغاب؛ نحنُ أولو لآكال، الحَدَائق والأغيَال، والنَّعم الجُفَال؛ ونحن أصهار الأَمْلاك، وفرسان العرَاك... فقال سواد: والسماءِ والأرض والغَمْرِ والبَرْضِ، والقَرْضِ والفَرْضِ؛ إنّكم لأهل الهضَاب الشّمّ، والنخيلِ العُمّ، والصخور الصُّم؛ من أجأ العَيْطَاء، وسَلْمى ذات الرَّقَبة السَّطْعَاء. قالوا: إنا كذلك. وقد خبّأ لك كل رجل منا خبيئا لتخبرنا باسمه وخَبيئه. فقال لبُرْج: أقسم بالضياء والحلك، والنجوم والفلك، والشروق والدّلك؛ لقد خبأت بُرثُنَ فَرج، فى إعليط مَرْخ، تحت آسرَة الشّرْخ. قال: ما أخطأت شيئًا، فمن أنا، قال: أنت بُرْج بن مُسهِر، عُصْرَةُ المُقْعِر، وثِمَال المُحَجَّر".[1]

وأول ما يُلحظ فى هذه العبارات هو خروج المتكلم من سجع إلى آخر، وفى ذلك تحسين للكلام؛ لأن للنفس فى النقلة من صوت إلى صوت -أو بتعبير أدق- من روى إلى روى راحة شديدة، واستجدادًا لنشاط السمع بالخروج من حال إلى حال.

وعند قراءة هذا الخطاب نجد أن محور المعنى يبادر إلينا وقد قاده السجع

---

(١) الأمالى، أبو على القالى، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٧، جـ٢، ص ٢٨٩.
أمرع: أخصب. الجناب: ما حول الدار. الآكال: الحظ والرزق فى الدنيا. الأغيال: جمع غيل وهو الماء الجارى على وجه الأرض. الجفال: الكثيرة. الغمر: الماء الكثير. البرض: الماء القليل. الشم: الطوال. العُمّ: الطوال. أجأ: جبل بطيّء وكذلك سلمى. العيطاء: الطويلة. السطعاء: الطويلة. الدّلك: اصفرار الشمس عند المغيب. البرثن: ظفر كل ما لا يصيد. إعليط: وعاء ثمر المرخ. مرخ: شجر تقدّم منه النار. آسرة الشرخ: القد الذى يشد به خشب الرحل، الممعر: الذى ذهب ما له. والمحجر: الملجأ المضيّق عليه.

ووشى بحدوده. فإن انقسام القول إلي وحدات سجعية يتوافق مع تعدد المحاور المعنوية، بحيث يمثّل كل محور رابطًا تجميعياً بين جملة من الفقرات السجعية، يعمل على تماسكها فى وحدة سجعية واحدة، ومن ثم يتضح لنا أن الرابط فى الوحدة السجعية رابط معنوى باطنى -من ناحية- ورابط شكلى سطحى من ناحية أخرى. وبالعودة إلى فن المقامة يتأكد أن ذلك نظام عام أو قانون يحكم كل نماذج السجع وأنماطه وليس خاصية للنص القرآنى، وهذا ما أقره "محمود المسعدى" خلال تحليله للمقامات العربية.[1] ومن الأمثلة الدالة على ذلك قول الهمذانى فى المقامة العاشرة: "رأيته صلى الله عليه وسلم فى المنام، كالشمس تحت الغمام، والبدر ليل التمام/ يسير والنجوم تتبعه، ويسحب الذيل والملائكة ترفعه/ ثم علمنى دعاء أوصانى أن أعلم ذلك أمته/ فكتبته على هذه الأوراق بخلوق ومسك، وزعفران وسُك/ فمن استوهبه منى وهبته، ومن رد علىّ ثمن القرطاس أخذته".[2] وفى هذا المثال يتضح "أن بنية السجع عند الهمذانى أساسها فى غالب الحالات الازدواج الإيقاعى مقترنا بازدواج المعنى؛ أى بارتباط المعنى الوارد فى الفقرة الأولى من الزوج بالمعنى الوارد فى الفقرة الثانية".[3] والأساس نفسه نجده فى مقامات الحريرى كما نجده فى المقامات اللزومية للسرقسطى، وفى غير ذلك من أنواع الخطابات المسجوعة.

ويبدو أن انشغال القدماء بالسجع من الناحية الشكلية دون التعمّق ناحية المدلول، أو إيجاد علاقة بين الناحية الشكلية والناحية الدلالية للتراكيب بعضها بالبعض الآخر، كان راجعًا إلى تصوّرهم القائم على الفصل بين الشكل والمعنى وهو فصل منهجى استلزمه البحث والتبويب لمقولات البلاغة بشكل منظم وإن أخفى وراءه حقيقة إدراك البلاغيين للأساس التجميعى الذى يربط التراكيب السجعية كما يبدو من خلال الأمثلة التى ذكروها للسجع.

ومما سبق يمكن إدراك الدور الذى يضطلع به السجع فى النصوص

---

(١) انظر: الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد محمود المسعدى، ص ٤٩، وما بعدها.

(٢) مقامات الهمذانى: المقامة العاشرة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ١٩٢٤، سطر ٢٦-٣٠ من ص ٥٩.

(٣) الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدى، ص ٧٥- ٧٦.

المسجوعة، فهو يؤدى دوراً فى إنتاج الصوتية وتحسين الكلام، هذا وقد استغلّت الوظيفة العملية فى اللغة إمكانات اللغة فى صورتها الخاصة بأداء الوظيفة التحسينية، فقامت بتوظيف السجع وهو أحد متطلبات تحسين الكلام –على حد تعبير القدماء– فى إبراز الحدود الفاصلة بين فكرة وأخرى.

ولبروز المبدأ السابق ملاحظته فى مواضع من النص القرآنى وفى المؤلفات العربية المسجوعة وفى شواهد السجع التى اجتزأتها البلاغة أثناء متابعتها الرصدية فى النصوص؛ لذا فإن البحث يعتبره إجراءً يصلح تعميمه والعمل به لتحليل السور التى جاءت مسجوعة من أولها إلى آخرها على الحرف نفسه، والسور التى تتخللها آيات مرسلة، فالمعنى الواحد هو الذى يراكب بين جملة من العبارات المسجوعة ويخلق منها وحدة سجعيّة، وبناء على هذا فإن تحليل السورة القرآنية إلى وحدات دلاليّة هو خطوة ذات قيمة؛ إذ تتعيّن فى إطار الوحدة الدلالية أين تبدأ الوحدة السجعية وأين تنتهى، كما تتحدد الآيات المرسلة غير المسجوعة.

والمبرر الإحصائى لتقسيم السجع القرآنى إلى وحدات يتجلى من خلال أمرين؛ الأول: أننا نقابل فى القرآن الكريم آيات مفردة فى دلالتها، تبدو مسجوعة إذا ما نظرنا إليها فى إطار الآيات المحيطة بها، ولكن كل آية تمثل كيانًا منفردًا يستقل بمحتوى خاص، ومن ثم نرى إخراج هذه الآيات من السجع، لأن طبيعته التى تعرفنا عليها، أن يكون معتمدًا على الثنائية كحد أدنى؛ ثنائية من عبارات تتماثل فى الحرف الختامى ويربط بين طرفيها رابط دلالى. ويظهر من الإحصاء الذى قام البحث بإجرائه على النص القرآنى أن الآيات المفردة –غير المسجوعة– وردت فى النص القرآنى خمسا وثمانين مرة. وهذا الإحصاء له دوافعه التى تبرر القيام به فإن أول ما بدأ به البحث هو افتراض وجود آيات مفردة تخلق إشكالاً أهى تنتمى إلى السجع أم لا تنتمى إليه؟ فهى تستقل بمحتواها وإن تماثلت قافيتها مع القوافى المحيطة، وهذه الآيات التى تمثل إشكالاً فى انتمائها إلى السجع أو الترسل وردت فى النص القرآنى سبع مرات فقط، ومن أمثلتها قوله سبحانه وتعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ

وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.[1]

إن ما يثير الإشكال هو أن الآية أتت مختومة بنفس قافية الآية السابقة عليها التى انتهت بقوله تعالى: ﴿...، وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2] وذلك التكرار الصوتى لن يعتد به البحث مع غياب شرط وحدة المحور المعنوى الذى اعتمدناه إجراءً أساسيا فى تراكب الآيات المنتهية بالصوت نفسه، والجدول الآتى يبين نسبة وقوع الآيات المفردة إلى مجموع الآيات غير المسجوعة فى القرآن الكريم.

مجموع الآيات الخالية من السجع	مرات تردد الآيات المفردة غير المسجوعة	النسبة المئوية	مرات تردد الآيات التى مثلة مشكلة فى انتمائها إلى السجع أو الترسل
١٤٠٩	٨٥	٩٥و٥%	٧

إن هذه النسب –مع قلتها– تؤثر فى الإحصاء العام للسجع. ويمكننا أن نرصد صور الوحدات المفردة فى القرآن الكريم؛ وهى:

١- الحروف المقطّعة إلا إذا دخلت دائرة السجع.

٢- فى القصص عندما يستقل كل مشهد عن تاليه بمحور معنوى له اتصال خفى بالدلالة العامة، ومن الإعجاز الصوتى فى القرآن أنه يتم فى الغالب توظيف حرف مختلف تبعا لاختلاف المشاهد ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ، وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) البقرة: ٢٨٤.

إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[١] فإن كل آية تبدأ بلفظة "إذ"، تلك التى تحيل على مشهد مستقل عن تاليه، وقد جاء اختلاف الصوت الذى تنتهى به كل آية مؤشرًا على هذا الاستقلال.

٣- آيات مفردة تتخلل السور مستقلة بمحورها الدلالى فى إطار الدلالة العامة للسور، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[٢]

٤- ونرصد صور الوحدات المفردة كذلك فى الآيات التى تتناول الأحكام، حيث استقل كل حكم بذاته، والغالب فيها أن تكون على أحرف مختلفة أيضا، وقد تكون فى إطار الموضوع نفسه ولكن كل حكم ينقطع عما قبله أو ما بعده. مثل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ، فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.[٣] فهذه الآيات على أحكام مختلفة، والملاحظ أن تغاير صوت الروى كان قرينا لتغاير الأحكام.

٥- أشكال متفرقات من الأوامر الموجهة من قبل الخالق عز وجل، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾[٤]

---

(١) البقرة: ١٢٤- ١٢٦.

(٢) سورة البقرة: ١٥٨.

(٣) سورة البقرة: ٢١٩- ٢٢١.

(٤) سورة النساء: ١٣٥- ١٣٦.

فاختلاف الأمر فى الآيات منح علامة تظهره على المستوى السطحى من خلال استخدام حرف مختلف. فى كل آياته.

والآيات المفردة ليست سوى شطر من الإجابة على السؤال الذى يهمنا هنا وهو مسألة الآيات، التى تبدو مسجوعة وهى فى الحقيقة داخلة فى بنية الترسّل. ويعنينا هنا أن نعرض لجانب من العلاقات بين الوحدات. يقول الخالق عز وجل:

﴿[أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ،]. وحدة دلالية أولى.

[فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ]﴾.(١) وحدة دلالية ثانية.

هذه الآيات تنقسم وفقا لمحتواها المركزى إلى وحدتين دلاليتين؛ الوحدة الأولى: سلسلة تحتوى على ثلاث آيات، أما الثانية فمكوّنة من أربع آيات مسجوعة. ويلاحظ توافق الآية الأخيرة من الوحدة الأولى، والآية الأولى من الوحدة الثانية كل على حرف واحد فى الآخر، لكن كلا منهما تنتمى إلى محور معنوى مختلف، ويوهم التوافق الصوتى فى نهاية الآيتين أن الآية رقم (٣) من الوحدة الأولى مسجوعة مع أنها ليست كذلك؛ إذ تسبقها آية منتهية بحرف الميم. والتتبع الكلى للنص القرآنى يكشف عن الإحصاء الآتى:

وردت هذه الآيات التى تبدو مسجوعة ستاً وستين مرة؛ تكون فيها الآية الأولى نهاية وحدة، والثانية بداية وحدة جديدة. وجاءت الآية الأولى غير مسجوعة والثانية مسجوعة -كما فى المثال السابق- ثمان وعشرين مرة.

وثمة نمط آخر تكون فيه الآيتان -نهاية الوحدة الأولى، وبداية الثانية- غير مسجوعتين. كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ

---

(١) سورة الماعون: ١- ٧.

سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. (١)

عندما نتأمل كل آية منهما فى إطار الوحدة الدلالية التى تحتويها نجد أن الآية الأولى تعد نهاية وحدة، وهى غير مسجوعة؛ إذ إن الآية السابقة عليها ختمت بحرف الراء، والأمر نفسه يبدو فى الآية الثانية فهى بداية وحدة دلالية جديدة يدور فيها الحديث حول الإنفاق وقد تلتها آية مختومة بحرف النون، ومن ثم فهى غير مسجوعة أيضا فى إطار محتواها. ويظهر الإحصاء أن تردد هذا النمط قد بلغ تسع عشرة مرة.

وأخيرا نرى نمطاً ثالثا تكون فيه الآية الأولى مسجوعة والثانية غير مسجوعة ونلاحظ ظهور هذا النمط فى النص القرآنى تسع عشرة مرة أيضا. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ، إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾(٢)

يلاحظ أن كل آية من الآيتين السابقتين تندرج فى وحدة دلالية مختلفة، بدت الآية الأولى مسجوعة فى وحدتها، فى حين كانت الثانية غير مسجوعة فى نطاق الوحدة التى تنتمى إليها؛ إذ يعقبها آية مختومة بحرف الميم. وهكذا يبدو أن تقسيم النص إلى وحدات دلالية هو ضرورة لها ما يبررها إحصائيا، حيث يبين من خلاله ما هو مسجوع مما ليس كذلك.

عدد العبارات المسجوعة فى الوحدة الواحدة:

ومما يستوقفنا فى هذا العرض مقولة مشهورة لابن الأثير فى كتابه، "المثل السائر" وذلك قوله: "واعلم أن التصريع فى الشعر بمنزلة السجع فى الفصلين من الكلام المنثور".(٣) ثمة سؤال يطرح نفسه انطلاقا من هذه المقولة مفاده: ما

(١) سورة البقرة: ٢٦٠- ٢٦١.

(٢) سورة الأنعام: ٩٤- ٩٥.

(٣) المثل السائر، ابن الأثير، جـ١، ص ٢٤٢.

عدد الفقرات التى يمكن أن تكوّن وحدة سجعية؟ إن الفصلين من السجع يماثلان فى نظر ابن الأثير بيتًا مصرعا من الشعر، والبيت الشعرى كما هو معروف يعد وحدة أساسية مكتملة، نخلص إذا اعتمدنا على ذلك القياس إلى أن الوحدة السجعية تتكون أيضا من فقرتين باعتبار أنها مناظرة لبيت مصرّع من الشعر بما له من سمة الوحدة. لكن هذه النتيجة تهتز إذا تحققنا منها بعيدًا عن المناظرة لنوع أدبى مختلف فى خصائصه، فإن الطريق الأمثل للإجابة عن ذلك السؤال المطروح هو الرجوع إلى النتاج الأدبى المكتوب فى شكل نثر مسجوع.

وعند مراجعة الأمثلة المسجوعة التى قدّمها ابن الأثير نفسه فى أثناء دراسته للسجع باعتبار الطول والقصر تبيّن أن الوحدة السجعية لا تنحصر فى كم محدّد من الفقرات. فقد ذكر ابن الأثير أربعة قوالب لوحدات سجعية مكوّنة من فقرتين أو ثلاث فقر، متخذاً من التغيير فى أطوال الفقرات أساسا تجميعيا لكل وحدة. وهذا يعنى أن القدماء قد أدركوا أن الوحدة السجعية ليس لها كمٌّ ثابتٌ، وإن كانوا قد ركزوا فى غالبية الأمثلة التى ذكروها على الوحدة المؤلفة من زوج من العبارات.

لنعد الآن إلى سؤالنا: ما عدد الفقرات التى يمكن أن تتضمنها وحدة سجعية؟ إن رصد الطابع التكوينى للسجع العربى وسجع القرآن يؤكد أن متتالية من ثلاث أو أربع أو عشر فقرات أو أكثر يمكن أن تقيم وحدة سجعية واحدة. ولا نستطيع –على نحو مؤكد– التنبؤ بعدد الفقرات المكونة للوحدة السجعية؛ لأنها لا تخضع لقواعد جاهزة، فالوحدة ترفض أن تنقاد للتقنين إذ تتعدد أشكالها، واختلاف الأشكال على هذا النحو راجع إلى ارتباط طول الوحدة بالمحور المعنوى الذى يشد أجزاءها.

هناك على أية حال حقيقة تؤكدها المؤلفات المسجوعة؛ إذ تنبئ طريقة القدماء فى الكتابة –وبخاصة كتّاب المقامات– عن أن الثنائيات المسجوعة كانت أكثر أنواع الوحدات السجعية شيوعاً فى نصوصهم. ويحق القول بأنه ليس ثمة حتى الآن سوى محاولات قليلة ترصد تباين أشكال الوحدات فى السجع العربى، وتتابع وجودها فى نصوصه.

وقد قام "حاييم ى. شينين" بإحصاء للوحدات السجعية ودراسة نظامها فى

ثلاث مقامات طويلة لكل من الهمذانى والحريرى "ومن هذه الإحصاءات يظهر أن استخدام عبارتين مسجوعتين فى كل وحدة يمثل ٤٨,٩٧% عند الهمذانى، واستخدام ثلاث عبارات فى الوحدة يمثل ٢٩,٨٣%، على حين أن استخدام أربع عبارات فى الوحدة يمثل ١١,٠٤%، أما الوحدات التى تطول عن ذلك فتمثل ٤٢,٠٢%، وتلك المؤلفة من ثلاث عبارات تمثل ٢٩%، على حين أن الوحدة المؤلفة من أربع عبارات تمثل ١٧و٥٣%، أما الوحدات الأكبر من ذلك فتمثل ١١,٤٥%".(١) وتشير الإحصاءات التى عملها شينين إلى تفوق نسبة الوحدات المكونة من زوج من الفقرات عند كلا الكاتبين.

وقد تتبع الهادى الطرابلسى هذه الظاهرة فى نص للسيوطى بعنوان "ليلة عاصفة"، ونجد من واقع الإحصاء، أن النص يقوم على سبع وأربعين فقرة، تتجمع فى واحد وعشرين زوجا وخماسية واحدة، أى أن نسبة الأزواج المسجوعة فيه تبلغ ٨٩,٣٦%.(٢)

ويلاحظ أن الدارسين الذين تناولوا الوحدات السجعية بالدراسة اهتموا، بصفة عامة بالأرقام، أكثر من اهتمامهم باستيضاح الدور الإيقاعى لنمط الوحدات السجعية المستخدم بكثافة فى النص المدروس، أو بتتبع صدى ذلك الاستخدام فى طبيعة التلقى وجمالياته من ناحية، وإبداع الدلالة والإبانة عنها من ناحية أخرى.

والسؤال الآن: هل الوحدة المكونة من زوج من الفقرات هى الأكثر شيوعا أيضا بين جملة الوحدات السجعية فى القرآن، أم لا؟

لقد كان للبحث وقفة مع النص القرآنى خرج منها بالإحصاء التالى الذى يتبين منه أكثر الوحدات السجعية تواترًا من حيث عدد الآيات المكوّنة لها.

---

(1) Aprosodic study of Saj "in classical Maqamat" shaynin part II. P.115. (un published papers, univ. Of pennsylvania, 1982).

نقلا عن السجع فى القرآن، بنيته وقواعده، ديفين، ج. ستيوارت، ص٢١.

(٢) انظر: تحاليل أسلوبية، محمد الهادى الطرابلسى، ص ١٥٩- ١٦٠

يضطلع هذا الجدول برصد تقسيم نص القرآن الكريم إلى وحدات سجعية، وتوضيح عدد الآيات فى كل وحدة

عدد الآيات فى الوحدة	مرات ترددها فى	نسبتها
٢	٢٥٠	%٤٠,٧٨
٣	٢٦٧	%٢٠,٩٤
٤	١٦٨	%١٣,١٧
٥	١٠٩	%٨,٥٥
٦	٧٢	%٥,٦٥
٧	٣٥	%٢,٧٤
٨	٣٣	%٢,٥٩
٩	٢٠	%١,٥٧
١	١٣	%١,٠٢
١١	١٣	%١,٠٢
١٢	٨	%٠,٦٣
١٣	٦	%٠,٤٧
١٤	٣	%٠,٣١
١٥	٤	—
١٦	—	%٠,٠٨
١٧	١	%٠,٠٨
١٨	١	—
١٩	—	—
٢٠	—	%٠,٠٨
٢١	١	%٠,٠٨
٢٢	—	—
٢٣	—	—
٢٤	١	%٠,٠٨
المجموع الكلى	١٢٧٥	

ومن الإحصاء السابق يمكننا استنتاج ما يأتى:

١- الوحدة السجعية فى القرآن الكريم تبدأ بآيتين وتنتهى إلى أربع وعشرين آية.
٢- أكثر الوحدات شيوعًا فى النص القرآنى هو الوحدة المكونة من زوج من الفقرات المسجوعة، فقد استمرت هذه الظاهرة متحققة على مستوى النص القرآنى بكامله، لها وجودها الظاهر فى كل سورة من سوره، ما عدا سورة نوح. وتبلغ الوحدات المزدوجة فى القرآن -خمسمائة وعشرين وحدة، يختلف معدّل ترددها من سورة إلى أخرى. فقد بلغ معدّل ترددها فى سورة "البقرة" تسعًا وعشرين مرة، وفى "الرحمن" ستا وعشرين مرة، وفى الجن مرّة واحدة فقط.

وقد ذكر شندلين ضمن كتابه "الشكل والتعبير فى شعر المعتمد بن عباد" بعض الملاحظات الخاصة بتحليل السجع القرآنى، ذاهبا إلى أن القرآن لا يشتمل على كثير من السجعات المزدوجة،(1) فى حين أن الإحصاء الذى قام به البحث يظهر خلاف ذلك، ولعله كان يعتبر الآيات المسجوعة من أولها إلى نهايتها على الحرف نفسه بمثابة وحدة سجعية واحدة.

ويمكن أن تزدوج الوحدة وقد تكون داخلة فى الوقت ذاته فى نظام أوسع، مثل "نظام رباعي" كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا، وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا، فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلا عَذَابًا﴾.(2) أو "نظام خماسى" كما فى قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا، وَيَصْلَى سَعِيرًا، إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا، إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ، بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾.(3)

٣- إذا نظرنا إلى الوحدات الطويلة بقصد ملاحظة الشكل والمحتوى، فسوف نجد أن أكثر ورودها كان فى القصص القرآنى، وأنها أتت -فى الغالب- على شكل آيات قصيرة مصحوبة بإيقاع سريع.

---

(1) See: “forme and structure in the poetry of al-mutamid Ibn Abbad”. Sheindlin.

نقلا عن السجع فى القرآن: بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ص٢١.

(٢) سورة النبأ: ٢٧- ٣٠.

(٣) سورة الانشقاق: ١١- ١٥.

وفى سورة النجم، ألفينا وجدة النغم تتكرر بين مجموعة كبيرة من الآيات، بلغت أربعا وعشرين آية، جمع بينها محور معنوى واحد. (١)

إن نظام الوحدة السجعية القرآنية –على هذا النحو– يتجلى متفردًا بأسلوب خاص، يحطم أو يتجاوز محاذير بلاغية ظلت قارة فى مؤلفات البلاغيين العرب فى القرون الأولى، وظلت البلاغة العربية (التعليمية) تنهى عنها الكتاب منذ ذلك التاريخ حتى الآن، إذ ذهبت إلى أن الوحدة السجعية ينبغى ألا تطول درءًا للملل.

وليس ثمة تفسير منطقى لطول الوحدة السجعية سوى أنه وليد خط الدلالة، فنظام النص ينحصر داخله، وهو الذى يمارس سلطانه على القارئ، وهذا يفضى إلى اعتبار أن النص القرآنى يبنى بصورة يراقب فيها عملية تفكيكه إلى وحدات سجعية، ويصنع بنفسه مفاتيح هذا التفكيك، فلا تبقى لقارئه حرية كبيرة فى ذلك، ولا حيلة لقارئ النص إلا الطواعية له، فيلزم أن تكون الطواعية هى أساس التحليل. لكن ما معنى الطواعية للنص؟ إننى أعنى بها، بناء التحليل وفقًا للأنماط التى تفرض نفسها وحدها، ومما تفرضه الطواعية؛ تقسيم النص إلى وحدات سجعية تقسيماً يراعى خصوصية إجراءات النص، كما يراعى بناء الظاهرة الأسلوبية على نحو ما تتجلى فى نصها. وقد بان لنا السجع مرتبطًا بوحدة المحور المعنى.

السجع والترسُّل:

يتحدث ابن خلدون فى مقدمته عن المحسنات البديعية بوصفها زائدة عن الإفادة لتمثل زينة تعبيرية، يقول: "وألحقوا بهما –يقصد علم البلاغة وعلم البيان– صنفًا آخر وهو النظر فى تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق إما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقع أوزانه أو توريه عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما وأمثال ذلك، ويسمى عندهم علم البديع".(٢) ويميل بن خلدون إلى الجزم فى أكثر من موضع

(١) سورة النجم: ٣٣– ٥٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربى، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د. ت، ص٤٠٧.

من مقدّمته بأن السجع مجرّد "زينة"، وهذه الكلمة مازالت تشتمل على أسئلة.

وهناك عدد كبير من الناس يحملون هذا الاعتقاد عن السجع بأنه زينة، بالرغم من أن كلمة زينة لا تخلو من مراوغة إذ إنها تطرح علينا تصورين مختلفين للسجع: الأول كون السجع زينة يفهم منه كونه جميلا، وبالإمكان أن تمتد الكلمة إلى كل ما هو هامشي ومن ثم، نبدأ إثارة التساؤلات المتعلقة بمفهوم الزينة، السجع جميل! هل هذه صفة ملازمة له دون قيد أو شرط؟ هل يجب أن يكون الكلام البليغ جميلا؟ أيكون جميلا بالنسبة لقارئ لم ينتبه بعد إلى إمكاناته؟ أيكون جميلا بالنسبة لقارئ لم يتحمس له أبدا؟ أيكون جميلا فى نوع أدبى يتطلب تقليص قوى الانفعال حتى يعلو صوت الطاقة الفكرية التأملية كما هو الحال فى الرواية؟ ألا يودّع السجع جزءا من بهائه حين يكون مجرّد زينة أو حلية خارجية خالية من البهاء لا دور لها فى إبداع الدلالة؟

إن النص الجيد يحاول استخدام أى سمة فنية بقدر حاجة المعنى لها وليس الأمر راجعا إلى كونها زينة. وهذا ما حدث فى النص القرآنى، فنص القرآن الكريم ينهض على الجمع بين بنيتى السجع والترسّل، ولا يعنى ذلك أنه قد تخلى عن تزيين المواضع التى جاءت مرسلة –استغفر الله– فكل من السجع والترسّل عناصر فى بناء النص، يجب أن يتناولا بهذا المفهوم. ويُفترض أن استخدام البنيتين معًا فى التشكيل الأسلوبى للنص القرآنى كان استخدامًا ذا مغزى، ولم يكن عفويا أبدا، كما يُفترض أن البنيتين تتحركان داخل النص فى نظام منضبط نعاين خلاله فاعليتها وكيفية إسهامها فى تكوين أثر معين واستجابة معينة لدى القارئ، ولكن قبل أن نمضى قدمًا فى اختبار هذه الفروض علينا أن نتوجه إلى النص، وندعه يعبِّر عن اختياراته وإيثاراته، من خلال رصد شيوع هذين المتغيرين الأسلوبيين فيه.

ويدلنا النظر الإحصائى إلى البنى السجعية والبنى المرسلة فى القرآن الكريم على الآتى:

مسلسل	السورة	عدد آياتها	الآيات المسجوعة	الآيات الخالية من السجع		النسبة المئوية للآيات المسجوعة
				نهايات متقاربة فى مخارجها وصفاتها	نهايات متباعدة فى مخارجها وصفاتها	
١	الفاتحة	٧	٢	٥	—	%٢٨,٥
٢	البقرة	٢٨٦	٢٠٨	٥٢	٢٧	%٧٠,٩
٣	آل عمران	٢٠٠	١٢٨	٣٩	٣٢	%٦٥
٤	النساء	١٧٦	٧٠	٥٧	٤٩	%٣٦,٦
٥	المائدة	١٢٠	٨٩	٢٣	٨	%٧٥
٦	الأنعام	١٦٥	١٤٢	٢٢	١	%٨٦
٧	الأعراف	٢٠٦	١٩٣	١٠	٣	%٩٣,٦
٨	الأنفال	٧٥	٥٤	٩	١٢	%٦٩,٣
٩	التوبة	١٢٩	١٠٦	٢٢	١	%٨٠,٦
١٠	يونس	١٠٩	٩٨	٩	٢	%٨٨
١١	هود	١٢٣	٨٥	١٦	٢٢	%٧٠,٧
١٢	يوسف	١١١	٩٣	١٧	١	%٨٣,٧
١٣	الرعد	٤٣	٢٠	١١	١٢	%٤١,٨
١٤	إبراهيم	٥٢	٣٢	٥	١٥	%٥٥,١
١٥	الحجر	٩٩	٨٣	١٦	—	%٨٦,٨
١٦	النحل	١٢٨	١٠٥	٢٣	—	%٨٢
١٧	الإسراء	١١١	٦٣	٢٩	١٩	%٥٥,٨
١٨	الكهف	١١٠	٥٠	١٧	٤٣	%٤٧,٢
١٩	مريم	٩٨	٨٨	—	١٠	%٩٣,٨
٢٠	طه	١٣٥	١١٣	٧	١٥	%٨٨,٨
٢١	الأنبياء	١١٢	١٠٥	٧	—	%٩٣,٧
٢٢	الحج	٧٨	٣٣	٩	٣٦	%٤١
٢٣	المؤمنون	١١٨	١١٤	٤	—	%٩٧,٤
٢٤	النور	٦٤	٤٥	١٦	٣	%٧١,٨
٢٥	الفرقان	٧٧	٦٣	١٣	٣	٧٩,٢
٢٦	الشعراء	٢٢٧	١٩٥	٢٧	٥	%٨٦,٣
٢٧	النمل	٩٣	٨٥	٨	—	%٩٠,٣
٢٨	القصص	٨٨	٨٣	٤	١	%٩٤,٣
٢٩	العنكبوت	٦٩	٥٩	٩	١	%٨٥,٥
٣٠	الروم	٦٠	٥٦	٤	—	%٩٣,٣
٣١	لقمان	٣٤	٢٤	٦	٤	%٧٣,٥
٣٢	السجدة	٣٠	٢٧	١	٢	%٩٠

٣٣	الأحزاب	٧٣	٢٩	٣٢	١٢	٤١%
٣٤	سبأ	٥٤	٤٠	١٢	٢	٧٠,٣%
٣٥	فاطر	٤٥	٣٦	٦	٣	٨٠%
٣٦	يس	٨٣	٧٣	١٠	—	٩٠,٣%
٣٧	الصافات	١٨٢	١٥٣	٢٦	٣	٨٥,١%
٣٨	ص	٨٨	٦٥	١١	١٢	٧٣,٨%
٣٩	الزمر	٧٥	٥٧	١٣	٥	٧٦%
٤٠	غافر	٨٥	٥٢	١٣	٢٠	٦٠%
٤١	فصلت	٥٤	٤٠	٦	٨	٧٤%
٤٢	الشورى	٥٣	٢٧	١٥	١١	٤٩%
٤٣	الزخرف	٨٩	٧٩	٨	٢	٨٩,٨%
٤٤	الدخان	٥٩	٥٠	٨	١	٨٤,٧%
٤٥	الجاثية	٣٧	٣٥	٢	—	٩٣,٣%
٤٦	الأحقاف	٣٥	٢٨	٧	—	٨٢,٨%
٤٧	محمد	٣٨	٣٦	٢	—	٧٨,٩%
٤٨	الفتح	٢٩	١٣	١٣	٣	٤٤,٨%
٤٩	الحجرات	١٨	٦	١٢	—	٣٨,٨%
٥٠	ق	٤٥	٢٨	٩	٨	٦٢,٢%
٥١	الذاريات	٦٠	٥٠	٤	٦	٨٣,٣%
٥٢	الطور	٤٩	٤٤	٢	٣	٨٩,٧%
٥٣	النجم	٦٢	٦٠	—	٢	٩٦,٧٧%
٥٤	القمر	٥٥	٥٥	—	—	١٠٠%
٥٥	الرحمن	٧٨	٦٧	١١	—	٨٥,٨%
٥٦	الواقعة	٩٦	٧٠	١٤	١٢	٧٠,٨%
٥٧	الحديد	٢٩	١٨	٧	٤	٦٢%
٥٨	المجادلة	٢٢	١٢	٦	٤	٥٤,٥%
٥٩	الحشر	٢٤	١٤	٦	٤	٥٨,٣%
٦٠	الممتحنة	١٣	٤	٥	٤	٣٠,٧%
٦١	الصف	١٤	٩	٤	١	٦٤,٢%
٦٢	الجمعة	١١	٩	٢	—	٨١,٨%
٦٣	المنافقون	١١	١١	—	—	١٠٠%
٦٤	التغابن	١٨	١٢	٥	١	٦١,١%
٦٤	الطلاق	١٢	٨	—	٤	٥٨,٣%
٦٦	التحريم	١٢	١٢	—	—	٩١,٦%
٦٧	الملك	٣٠	٢٨	٢	—	٩٣,٣%
٦٨	القلم	٥٢	٤٧	٥	—	٨٦,٥%
٦٩	الحاقة	٥٢	٤٣	٩	—	٨٤,٦%

٧٠	المعارج	٤٤	٣٥	٦	٣	٧٩,٥%
٧١	نوح	٢٨	٢٠	٢	٦	٧١,٤%
٧٢	الجن	٢٨	١٧	٦	٥	٦٠,٧%
٧٣	المزمل	٢٠	١٧	—	٣	٩٠%
٧٤	المدثر	٥٦	٥٤	—	٢	٩٦,٤%
٧٥	القيامة	٤٠	٣٧	٢	١	٩٢,٥%
٧٦	الإنسان	٣١	٢٨	٣	—	٩٠,٣%
٧٧	المرسلات	٥٠	٤٦	١	٣	٨٨%
٧٨	النبأ	٤٠	٢٥	٦	٩	٦٥%
٧٩	النازعات	٤٦	٣٥	—	١١	٨٠,٤%
٨٠	عبس	٤٢	٣٤	—	٨	٧٨,٥%
٨١	التكوير	٢٩	٢٥	٤	—	٨٦,٢%
٨٢	الانفطار	١٩	١٧	—	٢	٨٩,٤%
٨٣	المطففين	٣٦	٢٣	١٣	—	٧٥%
٨٤	الانشقاق	٢٥	٢٠	٢	٣	٨٤%
٨٥	البروج	٢٢	١٥	١	٦	٦٨%
٨٦	الطارق	١٧	١٤	—	٣	٨٢,٣%
٨٧	الأعلى	١٩	١٩	—	—	١٠٠%
٨٨	الغاشية	٢٦	٢٠	—	٦٠	٧٦,٩%
٨٩	الفجر	٣٠	٢٠	٦	٤	٧٣,٣%
٩٠	البلد	٢٠	١٦	٣	١	١٠٠%
٩١	الشمس	١٥	١٥	—	—	١٠٠%
٩٢	الليل	٢١	٢١	—	—	١٠٠%
٩٣	الضحى	١١	١٠	—	١	٩٠,٩%
٩٤	الشرح	٨	٨	—	—	١٠٠%
٩٥	التين	٨	٧	١	—	٨٧,٥%
٩٦	العلق	١٩	١٦	—	٣	٩٤,٧%
٩٧	القدر	٥	٥	—	—	١٠٠%
٩٨	البينة	٨	٢	٥	١	٢٥%
٩٩	الزلزلة	٨	٧	١	—	٨٧,٥%
١٠٠	العاديات	١١	١١	—	—	١٠٠%
١٠١	القارعة	١١	٩	—	٢	٨١,٨%
١٠٢	التكاثر	٨	٥	٣	—	٥٠%
١٠٣	العصر	٣	٣	—	—	١٠٠%
١٠٤	الهمزة	٩	٨	—	١	٨٨,٨%
١٠٤	الفيل	٥	٥	—	—	١٠٠%
١٠٦	قريش	٤	—	—	٤	—

١٠٧	الماعون	٧	٤	٣	—	%٥٧,١
١٠٨	الكوثر	٣	٣	—	—	%١٠٠
١٠٩	الكافرون	٦	٢	—	٤	%٣٣,٣
١١٠	النصر	٣	—	—	٣	—
١١١	المسد	٥	٤	١	—	%٨٠
١١٢	الإخلاص	٤	٤	—	—	%١٠٠
١١٣	الفلق	٥	٤	١	—	%٨٠
١١٤	الناس	٦	٦	—	—	%١٠٠

النتيجة الكلية للإحصاء:

مجموع آيات القرآن	مجموع الآيات المسجوعة	النسبة المئوية	مجموع الآيات الخالية من السجع	النسبة المئوية	الأصوات المتقاربة	نسبتها فى القرآن	نسبتها إلى الأصوات المتباعدة	الأصوات المتباعدة	نسبتها فى القرآن	نسبتها إلى الأصوات المتقاربة
٦٢٣٦	٤٨٢٧	%٧٧,٤١	١٤٠٩	%٢٢,٥٩	٨٧٦	%١٤,٠٢	%٦١,٢٩	٥٥٢	%٨,٨٥	%٣٨,٧١

يشير النظر الإحصائى إلى سيطرة البنى السجعية على مساحة الأداء فى النص القرآنى فنسبة السجع إلى الترسُّل ≃ $\frac{٤}{١}$ (1)، وهذا يشى على المستوى الأسلوبى بسيطرة "الإيقاع التكرارى أو ما يمكن أن نطلق عليه "المؤالفة" على المخالفة. فالنص القرآنى اتسم بالتشدد على شكل الرسالة، فآثر المؤالفة مؤكدًا القيمة الإيقاعية للسجع، فالبنى المرسلة ليست القاعدة، إنما البنى السجعية هى القاعدة بحيث لا يُرد الترسل إلا عرضا بين آيات كثيرة مسجوعة. ولننظر فى الإحصاء التالى، حيث جعل فى كل قسم من الجدول عدد السور التى يوافق تسجيعها النسب المئوية الموضوعة.

نسبة حضور السجع	%١٠–%١٩	%٢٠–%٢٩	%٣٠–%٣٩	%٤٠–%٤٩	%٥٠–%٥٩	%٦٠–%٦٩	%٧٠–%٧٩	%٨٠–%٨٩	%٩٠–%٩٩	%١٠٠
عدد السور	—	٢	٤	٦	٧	١٠	١٨	٣٢	١٩	١٤

(1) ≃ علامة رياضية تعنى يساوى تقريباً.

يبلغ عدد سور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة، المسجوع منها – فقط- هو مائة واثنتا عشرة صورة، إذا قمنا بتوزيعها على النسب المئوية الموضوعة فإن نصيب كل نسبة مئوية سوف يساوى تقريبا إحدى عشرة سورة، لكن الجدول أتى دالا إحصائيا؛ فإن ما يزيد على ثلاثة أرباع القرآن الكريم يأتى مسجوعًا، وتراوحت نسبة السجع فيه من ٧٠% إلى ١٠٠%، وفى هذا دليل ظاهر على هيمنة البنى السجعية، وعلى اعتمادها قاعدة فى نص القرآن الكريم كما يشى بذلك الإحصاء السابق.

فالسجع –وسوف أستعير بعض كلمات الأستاذ الدكتور شكرى عياد فى حديثه عن القافية–[١] نوع من المؤالفة يختص بأواخر الآيات أو الفقرات، ويعنى تركه نهائيا الاستغناء عن نوع من المؤالفة، ولكن إذا تم إسقاطه من فقرة أو فقرتين بين فقرات أخرى مسجوعة، فإن ذلك يعنى أن صفة المؤالفة لم تعد وحدها المتحكمة فى أواخر الفقرات، بل أصبحت تقوم بجانبها صفة مناقضة وهى المخالفة.

ويجب ألا يغيب عن بالنا فى تقييم كلا العنصرين: السجع والترسل، أن نربطهما بجملة من العناصر هى: الإيقاع والمعنى. فالبنيتان تدخلان فى تحديد فاعلية النظام الإيقاعى للقرآن الكريم وتوجيهها؛ إذ ينشأ عن تضافر البنى السجعية والبنى المرسلة تلوين إيقاعى. فالترسل يكتسى صبغته الإبداعية من كسره لتوقع القارئ أو السامع، فإن الآيات تتحرك فى انتظام يزداد بتوقع سماع الصوت المسجوع فى نهاية الآية ثم يأتى الترسل فيكسر فجأة توقع القارئ، ويقتل الرتابة التى قد يحدثها تحقق انتظار القارئ لتكرار الصوت المسجوع.

واللافت للنظر أن النقد العربى درس عناصر من نظام السجع فى استقلاله، ولم يتطرق إلى العلاقات ما بين السجع والترسل فينظر فى النظام؛ والنظام ليس معادلا للعناصر، ولا لمجموعها، إنما هو ما يحكم حركة العناصر فيما بينها، والنظر فيه هو النظر فى أنماط العلاقات التى تنتظم وفقها البنيتان الأسلوبيتان، ومن ثم النظر فى انفصالهما أو تضافرهما. أو هو –بتعبير آخر– النظر فى

(١) انظر: موسيقى الشعر العربى، شكرى محمد عياد، دار المعرفة، القاهرة، ط١، ١٩٦٨، ص ١٣٩- ١٤٠.

الفضاء الذى استراحة فيه العلاقات لحركتها فأخذت تتكرر بانتظام. ولكن ثمة أسئلة تبقى مطروحة منها: بأى كيفية تتحرك البنيتان فى النص؟ هل من منطق يعلل حركتهما؟ وهل هى حركة محكومة بنظام؟

يعمد النص القرآنى إلى تصريف المسالك الأدائية فيجمع بين السجع والترسل، لكن السجع يمثل القاعدة، بينما يمثل الترسل العدول. فكيف يقوم العدول عن المؤالفة إلى المخالفة بتشكيل أسلوبية النص وخدمته جماليا ودلاليا؟ إننا لا نستطيع أن نفهم دلالة التخلى عن السجع لصالح الترسل إلا فى نطاق النص ككل، والنظر. فى النص القرآنى يشير إلى أنه قد اكتفى فى بعض مواضعه بتوظيف إحدى البنيتين، وفى مواضع أخرى كان يضافر بينها. يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ، وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ، قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾(١)

هذه الآيات تمثل وحدة دلالية واحدة لكن الروى لم يأت متماثلا فالآية الأولى مختومة بحرف "الجيم" بينما تنتهى بقية آيات الوحدة بحرف "الدال"، ومبررات المخالفة الصوتية بين نهايات الفواصل لا تظهر إلا بوضعها فى علاقة مع السياق الذى يبرز اختلافات دلالية دقيقة بين القسم فى الآية الأولى والقسم فى الآيات التالية، فالواقع أن المشاهد المقسم بها تنتمى إلى حلقات زمنية متباينة، فالسماء ذات البروج مشهد يطالعنا فى الحلقة الزمنية الأولى "زمن الحياة الدنيا" بينما يتصل "الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ، وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ" بالحلقة الزمنية التى يمكن أن نعتبرها حلقة ثالثة بعد الموت، وهى حلقة الحياة الآخرة، ومن ثم يمكن اعتبار الأذن مدخلا أساسيا من مداخل تأمل الفروق الدلالية الدقيقة فى التعبير القرآنى.

وهذا الدرب من توظيف التقارب الصوتى داخل الوحدة الدلالية الواحدة –لا يعد غريبًا على معمار السجع العربى، فقد أورد القالى فى كتابه "الأمالى" حديثا لمصاعب بن مزعور وخروجه فى طلب الذود، وما أخبره به الجوارى الأربع الطوارق بالحصى، ويعننا فى هذا الموضع، مقولة الجارية الرابعة: إذ تقول: "ليهبط الغائط الأفيح، ثم ليَظْهَر الملا الصَّحْصَح، بين سَدير وأمْلَح؛ فهناك الذَّوْدُ

---

(١) سورة البروج: ١– ٧.

رتّاغٌ بِمُنْعَرَجِ الأَجْرع".[1] هذه جملة دلالية[2] واحدة، يتجسد موضوعها من خلال ثلاث جمل نحوية شارحة تدعو مصاعب إلى التوجه إلى منخفض واسع، حيث تظهر أرض مستوية محصورة بين نبع للماء وموضع للندى. ولكن الجملة الدلالية لم تكتمل بعد، ولم تجب على السؤال الآتى: ما العلة التى تدعو ذلك الرجل إلى خوض الرحلة المشار إليها؟ هكذا تأتى الجملة التفسيرية الرابعة والأخيرة، لتكمل الكلام بمحموله المطلوب. واللافت أنه قد تم توظيف التقارب الصوتى للعب دور مهم يتمثل فى إبراز كل من موضوع الجملة الدلالية ومحمولها؛ فما زالت الجارية على حذو واحد من السجع حيث يتجسد الموضوع فى الجمل الثلاث الأولى المنتهية بصوت "الحاء"، فلما أرادت الإخبار (محمول الكلام) توجهت إلى حرف مغاير وهو حرف "العين" لتنتهى به العبارة، ويبدو أن استخدامها لصوت مقارب "للحاء" راجع إلى كون العبارات جميعها تجتمع تحت لواء الجملة الدلالية نفسها. وهنا -أيضا- أستطيع القول بأن العلة الحقيقة وراء التقارب الصوتى الحادث فى الوحدة السجعية السابقة -لم تكن لتظهر إلا بالنظر فى السياق.

---

(١) الأمالى، أبو على القالى، جـ١، ص ١٤٣.

الغائط: المنخفض الواسع من الأرض. الصحصح: الأرض المستوية الواسعة. سدير: نبع الماء. أملح: الندى الذى يسقط بالليل على البقل. الذود: القطيع من الإبل بين ثلاث وعشر. الأجرع: الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل.

(٢) ورد مصطلح الجملة الدلالية فى مدرسة براغ، وتقوم فكرتها على التمييز فى الكلام بين وظيفتين إخباريتين لهما أهمية دلالية، "وهاتان الوظيفتان تتمثلان فى تلك التى يخبر عنها وهى الموضوع (المسند إليه) Thema، والتى تَخْبر عن الموضوع، وهى المحمول (المسند أو الخبر) Rhem ". علم اللغة والدراسات الأدبية، برند شبلنر، ت: محمود جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٨٧، ص١٨٥.

[٣] البناء الصوتى

توقفت الدراسة وقفات كشفية عديدة تستقصى البناء الصوتى للسجع القرآنى، وقد كشف التتبع الكمى والكيفى عن وجود ظواهر صوتية ذات تردد واضح، اكتنز بها نص القرآن الكريم، مما يعنى أنها تمثل ملامح أسلوبية فاعلة فى التشكيل الأسلوبى لسجعه. والدراسة مهتمة بتعريف هذه الظواهر وكشف مهامها الإنتاجية فى النص.

وبداية أشير إلى الإجراء التنظيمى الذى اتبعته الدراسة فى عرض تلك الظواهر الأسلوبية، فبوسعنا مراقبة انتمائها إلى صنفين أساسيين سبق أن تحدث عنهما "هنريش بليث" فى النموذج النظرى الذى اقترحه لتحليل النصوص أسلوبيا[١]، والذى قدم فيه تصورًا حول كيفية إنتاج الأدوات البلاغية. فهو يسلّم بأن جميع الصور البلاغية: صوتية، وصرفية، وتركيبية، وخطّية متولدة، فى الأصل عن عمليتى عدول رئيستين:

(١) عدول يتأسس على تقوية الانتظام الملازم للنظام اللغوى، ولكى يحقق النص تلك التقوية فإنه يعتمد على عدة أمور أبرزها: التراكم، والتكرار، والتعادل، والتشابه؛ فالتعبيرات التى جاءت على الأصل يمكن أن تعد تعبيرات بلاغية إذا ما عززت بواحدة من وسائل التنسيق والاستخدام الفائق للعادة.

(٢) عدول يقوم بخرق المعيار متوسلاً ببعض العمليات اللسانية المساعدة من

---

(١) يتبنى "بليث" نموذجا قائما على أسلوبية العدول، يهتم بكل عناصر التواصل، ويدمج بعضها فى بعض، فقد بدا له أنّ بناءً سميائيا يعنى بالعناصر الأربعة: الدليل، والمرسل، والمتلقى، وبالعلاقات الحادثة بينهم، هو الكفيل ببناء أسلوبية تستوعب اجتهادات القدماء والمحدثين فى مستوى البنية الداخلية للنص وأبعاده الدلالية والتداولية، وهذا الاعتقاد هو ما حدا به إلى استلهام أفكار السيميائى "تشارلز موريس" مميِّزا بين ثلاثة أصناف من العدول: ١-عدول فى التركيب: وهو يخص العلاقة بين الدلائل. ٢-عدول فى التداول: ويخص العلاقة بين الدليل والمرسل والمتلقى. ٣-عدول فى الدلالة: ويخص العلاقة بين الدليل والواقع. انظر: البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائى لتحليل النص، هنريش بليث، ت: محمد العمرى، دراسات سال، ط١، ١٩٨٩، ص ٤١- ٦٥.

زيادة، وحذف، وتعويض، وتبادل دلائل.

والبحث يتفق مع "بليث" فى أن هاتين العمليتين هما اللتان تتحكمان فى تشكيل أسلوبية أى نص أدبى؛ إذ يتولّد عنهما كافة أشكال الصور البلاغية التى تمثل متغيرات أسلوبية متاحة -من جهة الإمكان العقلى- أمام الكاتب ليعمل فيها بالاختيار أو التنحية، وبالتكثيف أو التقليل، وباتباع طرق مختلفة فى التوزيع حتى تصير عناصر فاعلة فى تشكيل أسلوبية نصّية، أو بتعبير آخر، لتكون خصائص أسلوبية مائزة لهذا النص.

ويصنف "بليث" المتغيرات الأسلوبية إلى صنفين، وذلك تبعا للعملية المولدة لها، فيطلق على المتغيرات الناتجة عن تقوية المعيار اسم "التوازنات"، بينما يطلق على تلك التى تخرج عن المعيار اسم "الرخص".(١)

والنشاط التحليلى يبدأ برصد أهم صور التوازنات التى تعد خصائص أسلوبية مائزة للسجع القرآنى، ثم يتوجه إلى الكشف عن الرخص التى يمكن أن توصف بأنها اختيار النص، مستعينا بالمعالجة الإحصائية التى تبرز مدى شيوع هذه الاختيارات، وأنماط توزيعها.

ولاستكمال دائرة التحليل الأسلوبى تتوجه الدراسة إلى الإبداع السجعى عمومًا، لتحديد المتغيرات الأسلوبية التى جاءت مشتركة فى أغلب النصوص المسجوعة، وبذا تتمثل فى الوعى مجموعة من القواعد الأصيلة بوصفها أدوات التعبير السجعى، وفى ظل عدم معرفة تلك القواعد ربما تعثر الوصول إلى هدف الدراسة الأسلوبية؛ وهو تحديد الخاص غير المتكرر فى السجع القرآنى، هذا الخاص الذى يمكن اعتباره عدولاً ثالثا يهدم آلية التوقع لدى القارئ. والمعيار الذى يَعْدِل النص عنه -فى إطار هذه المقارنة- ليس اللغة العادية وإنما هو "العرف الأدبى"، لو سُمح لى باستخدام تعبير غير دقيق أو مريب فى سياقه كهذا التعبير، فما دام القصد هو البحث عن الخصائص الأسلوبية للسجع القرآنى فى اختلافها، فإن مثل هذا القصد يضطر البحث أن يرتد، بشكل أكثر تفصيلاً، إلى

(١) إن تسمية العدول عن القاعدة الأصلية "بالرخصة" تسمية لافتة؛ إذ يبدو أن "بليث" حينما استخدم هذه اللفظة كان صادرًا عن إدراك واضح لضرورة أن تكون هناك حكمة ما وراء الخروج عن القاعدة، وتلك الحكمة هى الشرط الذى لا يتم الترخص إلا فى إطاره.

السجع العربى؛ للنظر فى نظامه، وفى خصائص عناصره، وتحديد القواعد التى تمثّل عناصر مكوّنة فى بنية النظام. ونحن اليوم فى حوزتنا عدد لا بأس به من الدراسات المعنيّة بالسجع العربى وتحديد مواصفاته، وهذا بالطبع جدير بأن يوفر على الباحثة كثيرا من الجهد.

وفى مستوى البناء الصوتى للسجع القرآنى تتابع الدراسة مناطق الإنتاج الصوتى، وبخاصة نهايات الجمل السجعية ومدى انسجامها انسجاماً كاملاً أو ناقصاً. كما تتابع الحروف كثيرة الورود فى منطقة الثقل السجعى، والمهيئات الصوتية التى تسبق تلك المنطقة، من التزام فونيمات ومقاطع بعينها، ومن استخدام حروف قريبة من حرف السجعة. والدراسة تهتم تحديدًا بالوظيفة الإيقاعية الناتجة من كل ذلك، فتقف على الدور الذى تؤديه تلك المؤثرات الصوتية فى التشكيل الإيقاعى للنص القرآنى، من حيث التخفيف من حدّة الإيقاع، أو تكثيفه، أو وضعه فى منطقة محايدة بين الحدّة والخفّة. ويظل الحديث عن الدور الذى تضطلع به تلك المؤثرات الصوتية حديثاً ناقصا ما لم يكتمل بالتوجّه إلى منطقة بحثية أهملت فى بعض الدراسات التى وجّهت كل عنايتها إلى بحث الأثر الإيقاعى فحسب؛ مما وقف حائلا دون الكشف الشامل عما تحمله تلك المؤثرات الصوتية إلى القدرة الإبداعية للنص. فالدور الممنوح عادة للمؤثرات الصوتية، هو أن تكون منتجة للإيقاع. وجدير بالذكر أنها بهذه الصفة الرسمية تشترك بصورة غير مباشرة، فى تأسيس المعنى الدلالى الذى يطرحه النص؛ فالإيقاع الناتج عنها يمثل وحدة إيحائية، ومن ثم يمكن من خلاله الوصول إلى عدد من الدلالات السطحية والعميقة فى السورة.

ومظاهر التأثير الصوتى فى السجع القرآنى كثيرة ومتنوّعة غير أنه يمكن تصنيفها تبعا لمقاييس العدول إلى صنفين كبيرين سبقت الإشارة إليهما؛ أولهما: التوازنات، والثانى: الرُّخص.

ويهتم البحث أولا بالظواهر الصوتية المنتمية إلى التوازنات، تلك الظواهر الناتجة عن عمليات لسانية من شأنها أن تجعل بناء الأصوات منتظما وإيقاعيا. والبحث فيما سبق قد أشار إلى عمليات التكرار، والتوازى، والتراكم، والتشابه، بوصفها العمليات الخالقة لصور التوازنات فى النص.

أولا: التوازنات الصوتية فى السجع القرآنى:

لقد تطرقت أبحاث عدّة قديمًا وحديثًا -لمؤلفين عرب ومستشرقين- إلى دراسة تكرار الأصوات اللغوية فى النص القرآنى. واستأثرت فواصل الآيات بالجانب الأكبر من عناية الباحثين الذين أسهبوا فى الحديث عن قيمتها الموسيقية والإيحائية فى النص. فالزركشى يحدثنا عن أثر الفاصلة القرآنية فى تحسين الكلام إذ يقول: "واعلم أن إيقاع المناسبة بين الفواصل حيث تطرد متأكد جدا، ومؤثر فى اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه فى النفس تأثيرًا عظيما".(1)

ويظل السجع والفاصلة القرآنية موضع جذب لكثير من الدارسين فى العصر الحديث كذلك فهناك كتاب مصطفى صادق الرافعى "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية".(2) وهناك مقالات أحمد الحوفى فى مجلة مجمع اللغة العربية. التى انصبت على معرفة الفرق بين السجع والفاصلة.(3) ومقالة محمد الحسناوى أوّل من سمّى الفاصلة.(4) ومقالة الشيخ عبد الرحمن تاج "السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك فى القرآن الكريم"(5)... وغيرها من الدراسات الجادة.

ويلاحظ من مقارنة الدراسات المذكورة بعضها بالبعض الآخر، ومقارنتها

---

(1) البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، بدر الدين محمد بن عبد الله، ت محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٥٧، جـ١، ص ٦٠.

(2) راجع: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعى، دار الكتاب العربى، بيروت، د. ت، ص ١١٥- ١٢٠.

(3) راجع: سجع أم فواصل، أحمد الحوفى، مجلة مجمع اللغة العربية، ع ٢٧، ١٩٧١، ص ١١٤- ١٢٨. وراجع أيضا: سجع القرآن فريد، أحمد الحوفى، مجلة مجمع اللغة العربية، ع ٢٩، ١٩٧٢، ص ٩١- ٩٦.

(4) راجع: أول من سمى الفاصلة، محمد الحسناوى، مجلة مجمع اللغة العربية، ع٣١، ١٩٧٣، ص ١٣٧- ١٤٧.

(5) راجع: السجع وتناسب الفواصل، وما يكون من ذلك فى القرآن الكريم، عبد الرحمن تاج، ص ٢٠- ٣٩.

بما أنتجته الدراسات البلاغية القديمة، أنها جاءت -فى الغالب- بلغة القدماء وأحكامهم الانطباعية التذوّقية المجملة.

والأمر اللافت للانتباه فى دراسة المستشرقين للسجع القرآنى، برغم ما قد يسجل عليها، ابتعادها عن الانطباعية إلى حد بعيد، وانشغالها برصد نظام النص فى كليته مما أفرز ملاحظات ذات قيمة ويذكر فى هذا الصدد دراستى "كارل فوللرز"، و"ديفين ستيوارت".

قام فوللرز بدراسة السجع القرآنى ضمن كتابه "اللغة الشعبية واللغة الأدبية فى الجزيرة العربية"، وقد قسم السور القرآنية إلى ست مجموعات وفقًا لنهايات الفواصل، هى:

المجموعة الأولى: وتضم هذه المجموعة السور القرآنية التى بنيت بكاملها أو أغلبها على النهاية "الياء والنون" أو "الواو والنون" وعددها ثمان وعشرون سورة هى: الفاتحة/ الأنعام/ الأعراف/ التوبة/ يونس/ يوسف/ الأنبياء/ المؤمنون/ الشعراء/ النمل/ القصص/ العنكبوت/ الروم/ السجدة/ يس/ الزخرف/ الدخان/ الجاثية/ الأحقاف/ الحجرات/ ق/ الجمعة/ المنافقون/ القلم/ نوح/ المطففين/ التين/ الماعون.

المجموعة الثانية: عددها أربع وثلاثون سورة وتضم السور التى تنتهى فواصل آياتها بنهايات منتظمة -بقدر ما- إلى جانب النهايتين "الياء والنون" و"الواو والنون" وهى: البقرة/ آل عمران/ المائدة/ الأنفال/ هود/ الرعد/ إبراهيم/ الحجر/ النحل/ الحج/ النور/ لقمان/ سبأ/ فاطر/ ص/ الزمر/ غافر/ فصلت/ الشورى/ والطور/ الرحمن/ الحديد/ المجادلة/ الحشر/ الممتحنة/ الصف/ التغابن/ التحريم/ الملك/ البروج/ الفيل/ قريش/ الكافرون/ الناس.

المجموعة الثالثة: وهى تحتوى على تسع عشرة سورة تنتهى جميع فواصلها أو معظمها بصوت صائت، وهى: النساء/ الكهف/ مريم/ طه/ الفرقان/ الأحزاب/ الفتح/ الجنّ/ القيامة/ الإنسان/ والنازعات/ عبس/ الأعلى/ والشمس/ والليل/ والضحى/ البينة/ الزلزلة/ الهمزة/ وفى سور: النساء/ الإسراء/ فاطر/ المزّمل/ النصر/ تبدو النهايات حركة غير أساسية.

المجموعة الرابعة: وهى المجموعة التى تنتهى سورها تارة بصوت صامت، وتارة أخرى بصائت وعددها ثمانى عشرة سورة هى: الصافات/ والذاريات/ والنجم/ الواقعة/ الطلاق/ الحاقة/ المعارج/ المزّمل/ المدثر/ المرسلات/ النبأ/ التكوير/ الانفطار/ الانشقاق/ والفجر/ البلد/ والعاديات/ القارعة. والملاحظ أن السور السابقة جميعها مكية فيما عدا سورة الطلاق.

المجموعة الخامسة: وعددها عشر سور بُنيت فواصلها على حركة قصيرة وصوت صامت، وهى: محمد/ القمر/ الطارق/ القدر/ والعصر/ الكوثر/ النصر/ المسد/ الإخلاص/ الفلق.

المجموعة السادسة: سور بنيت فواصلها على نهايات متنوعة من المجموعة الأولى، والثالثة، والخامسة.(١)

ويعتبر بحث "ديفين ستيوارت" أحدث ما وصلنا من كتابات المستشرقين الدائرة حول السجع القرآنى. وتأتى خصوصية هذا البحث من كونه يكرس جهده لدراسة هذه المسألة دون غيرها. فالسجع هو مدار الحديث فى الدراسة بكاملها، بخلاف غيرها من الدراسات التى انصبت على موضوعات وقضايا عديدة متنوعة، والحديث عن السجع لا يمثل فيها سوى جانب قد يكون هامشيا إذا ما قيس بالقضية الأم.

وعلى عكس الدراسات التقليدية التى توجهها الانطباعات، جاءت محاولة "ديفين ستيوارت" موضوعية فى وصف الظاهرة؛ إذ اعتمدت على التحليل الإحصائى. فقدمت إحصاء وافيا لسجع القرآن ولأنماط الفواصل فى كل سوزة من سوره.(٢) لكنّ بحثى "فوللرز" و"ستيوارت" قد وقفا عند الجداول، دونما اكتراث –فى الغالب– بإظهار الدلالة الإحصائية، فلم يحاولا أن يستكشفا ما تتضمنه هذه الجداول ولا ما توحى به، ولم يعتنيا بإلقاء الضوء على أمور مهمة، مثل: اختيار النص للأسلوب، وتلقى القارئ له.

---

(1) See: volkss prache und Schrifts prache im alten Arabien, Karl Vollers: veriag von Karl J. Trubner, strassburg. 1906 p: 56- 57.

نقلا عن: من صور الإعجاز الصوتى فى القرآن الكريم، محمد العبد، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع ٣٦، م٩، ١٩٨٩، ص ٩١.

(٢) انظر: السجع فى القرآن: بنيته وقواعده، ج. ديفين ج. ستيوارت، ص ٣٣- ٣٤.

وفيما يلى أقدم الإحصاءات التى أجراها البحث على السور القرآنية -مكية ومدنية- مقدمة لتحليل كمى لأصوات السجع القرآنى.

جدول (١)

الصوامت الواقعة فى السجع القرآنى

عدد الآيات المسجوعة المنتهية بصامت	الصوت	مرات تردده	النسبة المئوية
٤٤٦٩	النون	٢٩٥٧	٦٦,١٧%
	الراء	٥٧٣	١٢,٨٢%
	الميم	٣٥٧	٧,٩٩%
	الدال	٢٠٤	٤,٥٦%
	الباء	١٢١	٢,٧١%
	اللام	٩٧	٢,١٧%
	الهاء	٤٠	٠,٩٠%
	التاء	٣٦	٠,٨١%
	القاف	٢٢	٠,٤٩%
	العين	٢٢	٠,٤٩%
	السين	١٠	٠,٢٢%
	الفاء	٩	٠,٢٠%
	الكاف	٦	٠,١٣%
	الجيم	٥	٠,١١%
	الهمزة	٣	٠,٧%
	الحاء	٣	٠,٧%
	الثاء	٢	٠,٤%
	الظاء	٢	٠,٤%

* لم تعتبر الدراسة ألف التنوين المفتوح رويا وإنما الاعتبار للحرف الأخير دون الألف، كذلك لم تعتبر الألف الملحقة بالهاء فى (ها) روياً وإنما الاعتبار للهاء، وهى لا تعتد أيضا بهاء السكت، أو الهاء المنقلبة عن تاء تأنيث متحركة ولا تعتبرها رويّا وسوف يأتى بيان العلة فى ذلك.

جدول (٢)

الصوائت الواقعة فى السجع القرآنى

الآيات المسجوعة المنتهية بصائت	الصوت	مرات تردده	النسبة المئوية
٣٥٨	الألف	٢٣٩	%٦٦,٧٦
	الياء	١١٩	%٣٣,٢٤

جدول (٣)

الأصوات الممثلة للسجع فى السور المكية

عدد الآيات المسجوعة فى السور المكية	الصوت	مرات تردده	النسبة المئوية
٣٧٧٩	النون	٢٣٢١	%٦١,٤٢
	الراء	٤٤٣	%١١,٧٢
	الألف	٢٣٩	%٦,٣٢
	الدال	١٨٧	%٤,٩٥
	الميم	١٤٩	%٣,٩٤
	الياء	١١٩	%٣,١٥
	الباء	١٠٣	%٢,٧٢
	اللام	٦٧	%١,٧٧
	التاء	٣٦	%٠,٩٥
	الهاء	٣٣	%٠,٨٧
	القاف	٢٢	%٠,٥٨
	العين	٢٠	%٠,٥٣
	السين	١٠	%٠,٢٦
	الفاء	٩	%٠,٢٤
	الكاف	٦	%٠,١٦
	الجيم	٥	%٠,١٣
	الحاء	٣	%٠,٠٨
	الهمزة	٣	%٠,٠٨
	الثاء	٢	%٠,٠٥
	الظاء	٢	%٠,٠٥

جدول (٤)
الأصوات الممثلة للسجع فى السور المدنية

عدد الآيات المسجوعة فى السور المكية	الصوت	مرات تردده	النسبة المئوية
١٠٤٨	النون	٦٣٦	٦٠,٦٩%
	الميم	٢٠٨	١٩,٨٥%
	الراء	١٣٠	١٢,٤٠%
	اللام	٣٠	٢,٨٦%
	الباء	١٨	١,٧٢%
	الدال	١٧	١,٦٢%
	الهاء	٧	٠,٦٧%
	العين	٢	٠,١٩%

من الإحصاءات السابقة يمكن استنتاج ما يأتى:

١) تميل حسبة الروى فى السجع القرآنى إلى الحرف الصامت. فقد بلغت نسبة ظهوره فى أواخر الفواصل القرآنية ٩٢,٦%، بينما لم تتجاوز نسبة ظهور الحروف الصائتة (الألف والياء)[١] نحو ٧,٤٢%.

واللافت للانتباه أن بعض الدراسات التى أجريت على كل من الشعر والسجع العربى تؤكد ميل نصوص العربية إلى استخدام حروف المعجم الصامتة بوصفها رويا؛[٢] فشيوع الصوامت فى ذلك الموضع يفوق بكثير شيوع أصوات

(١) لم يرد حرف "الواو" سوى مرتين اثنتين فحسب فى مواضع غير مسجوعة.

(٢) لنا أن نرجع على سبيل المثال فحسب – إلى الإحصاء الذى قام به الدكتور عبد الرحمن السيد عن كتاب "الأمالى"، وفيه نجد أن نسبة استخدام الأصوات الصامتة روياً تصل إلى ٩٤,٤%، بينما لا تتجاوز نسبة استخدام أصوات اللين [الواو – الألف – الياء] ٥,٦%، ولست اعتقد أن الأمر راجع فى ذلك إلى تفوّق حروف المعجم الصامتة عددياً على حروفه الصائتة. انظر: العروض والقافية: دراسة ونقد، عبد الرحمن السيد، مطبعة قاصد خير، ط١، د. ت، ص ١٠١– ١٠٢.

اللين الطويلة. وهذه المسألة كانت خليقة بأن تجد من يحاول تفسيرها وتعليلها. وقد تصدّى لهذا الأمر باحثون، انصبت دراستهم على الشعر بخاصة، وخرجوا بآراء متنوعة فى هذا الصدد.

فقد قام الدكتور "إبراهيم أنيس" فى كتابه الرائد "موسيقا الشعر" بمحاولات إحصائية لتحديد حروف المعجم التى تقع روياً ونسبة شيوعها فى الشعر العربى، وهو يؤكد أن كثرة مجىء الحرف رويًا –سواء أكان صامتًا أو صائتًا– لا تعزى إلى ثقل فى الصوت أو خفّة بقدر ما تعزى إلى نسبة وروده فى أواخر كلمات اللغة.(١) ويختلف معه الدكتور شكرى عياد الذى ذهب إلى أن الروى الصامت ألزم للقافية من جميع أصوات اللين، وأن هذا اللزوم لا يأتيه من طبيعة معجمية كما قال "إبراهيم أنيس" وإنما يرجع إلى اعتبار الصوامت ركيزة فى ضبط الإيقاع؛ إذ تمثّل فى موضعها منبهًا قويًا يشبه وظيفة القرع.(٢) ولكن هذا التفسير أيضا لا يكفى فهو لا يفسر –مثلا– لماذا يُمثل الحرف الصامت –بخلاف الحرف الصائت– منبها قويا فى موضعه؟ ما الخاصية التى يستأثر بها دون غيره إذا ما تمثل روياً؟ غير أن باحثا آخر قام بتتبع الأسباب التى من أجلها انفرد "الصامت" بكونه ركيزة إيقاعية، حيث يقول: "وما نراه من حكم لزوم الروى أنه فى معظم الورود يعتمد على كونه مقطعا قائما بذاته. والصامت من الأصوات يتحقق فيه ذلك تمامًا؛ لأننا إذا اعتبرنا الحركة سابقة عليه أو تابعة له؛ فإنه يكوّن من خلال ذلك وحدة مقطعية أيا كان متقيّدا أو مفتوحًا أطلق مجراه؛ ومن أجل ذلك لم يقبل الصائت رويًا؛(٣) لأنه لا يمثل وحدة مقطعية مستقلة. فهو كمال مقطع ولن يصبح جزءا من تشكيل مقطعى إلا من خلال اعتماده على صامت لا حركة أخرى قصيرة؛ لأن الكم مهما طال يعود نهاية إلى الاعتماد على الصامت. ومعنى أن يشكل الصامت مقطعًا مستقلاً. أن يكون وحده

(١) انظر: موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٩٧٢، ص ٢٤٨. وقد تابعه كثير من الباحثين فى القول بأن شيوع صوت دون غيره يعد ذا طبيعة معجمية، ونذكر منهم هنا "جمال الدين بن الشيخ" "الشعرية العربية"، ص ٢٠٩، والهادى الطرابلسى "خصائص الأسلوب فى الشوقيات"، ص ٤٦.

(٢) انظر: موسيقى الشعر العربى، شكرى عياد، ص ١١٥.

(٣) يعنى بالصوائت ألف المد، وواوه، وياءه.

ظاهرة الإيقاع إذا ما حدث التزام فهو قيمة نطقيّة أو كتلة نطقية يبرز دورها فى تمام الإيقاع".[1]

وبرغم أن هذه الفكرة شائقة فإن هناك أمورًا تطعن فى القطع بصحتها. فالصوت الصائت يتسم هو أيضا بخصائص تجعل منه قيمة نطقية وإن لم يكن كتلة نطقية -وأحب أن أفرق بين التعبيرين- فهناك خصائص لم يأخذها الدكتور أحمد كشك فى الاعتبار، ولكن المهتمين بعلم الأصوات توقفوا عندها كثيرا. فقد لاحظوا أن أصوات اللين بطبعها أكثر وضوحاً فى السمع من الأصوات الصامتة؛ ولهذا السبب يمكننا تمييزها على مسافات بعيدة. أفلا يمكن اعتبار تلك السمة من السمات المؤهلة للحروف التى يمكن ترشيحها من أجل التقفية والسجع؟!

كما أنه، إذا كانت أبسط صورة لكتلة نطقيّة هى أن نصدر صوتًا صامتًا تليه حركة -أى مقطع من النوع الأول (٧)- فلنا من هذه الزاوية أن نعدّ الحركات الطوال مقطعًا مستقلاً كذلك؛ فقد لاحظ العالم "هلمهولتز" أحد رواد علم الأصوات الفيزيقى "أن إصدار صوت اللين -أى حركة [قصيرة أو طويلة]- يكون مصحوبا دائمًا وعلى طول مداه بنوع من الضوضاء. وهى جلبة متولّدة عن احتكاك الهواء بأقصى الفم وجانبيه من الداخل. وهذه الجلبة هى بطبيعة الحال صوت ساكن خفيف".[2] إذن، فالحركة المتجرّدة عن الساكن عبارة عن تصور محض "فليس إلا من قبيل التجريد أن يستطيع الإنسان تصور حركة منفردة (أى صوت لين لا يخالطه صوت ساكن)".[3] لكن ما يدعونا إلى عدم اعتبار الأصوات الصائتة وحدات مقطعيّة مستقلة بالرغم من بنائها المزدوج المشار إليه؛ هو قلّة الوضوح السمعى للصوت الصامت المختلط بالحركة. فالحد الصوتى للضوضاء المسموعة يكون ضعيفاً فى الصوائت الطوال، وأكثر ضعفاً فى القصار منها.

---

(١) القافية تاج الإيقاع الشعرى، أحمد كشك، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٥٣.

(٢) نظرية جديدة فى العروض العربى، م. ستانسيلاس جويار، ت. منجى الكعبى، مراجعة عبد الحميد الدواخلى، الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٦، ص ٢٠.

(٣) نظرية جديدة فى العروض العربى، م. ستانسيلاس جويار، ص ٢١.

أعود ثانية إلى غلبة الحروف الصامتة فى السجع القرآنى، وهذه الكثافة إنما ترجع -كما سبق إيضاحه- إلى أمور منها: رحابة العطاء المعجمى المنتهى بالصوامت، وأن الصوامت تمثّل قوة ارتكاز إيقاعى ومن ثم كان توظيفها أحد إجراءات التأثير على السامع، هذا والمفاضلة بين الصامت والصائت إنما تئول قبلاً إلى اختيار النص لدال الفاصلة القادر على أداء المعنى الدلالى وخدمة مقام الحديث.

٢) ويُسلِم ذلك إلى الملاحظة الثانية، فبالاطلاع على الجداول السابقة نجد أن حروف المعجم لا تتساوى فى الإتيان روياً للسجع القرآنى، فهناك ثمانية حروف مهيمنة، هى على الترتيب.

١- النون: وتبلغ نسبتها ٦١،٢٦% من مجموع ٤٨٢٧ آية هى جملة الآيات المسجوعة فى القرآن.

٢- الراء: ١١،٨٧% (٥٧٣) آية	٦- الباء: ٢،٥١% (١٢١) آية	٤٦٦٧ آيـة
٣- الميم: ٧،٤٠% (٣٥٧) آيـة	٧- الياء: ٢،٤٧% (١١٩) آية	
٤- الألف: ٤،٩٥% (٢٣٩) آية	٨- اللام: ٢،٠١% (٩٧) آية	
٥- الدال: ٤،٢٣% (٢٠٤) آية		

والملاحظ أن هذه الحروف لا تتعادل فى درجة شيوعها وطرق توزيعها داخل النص. ففى التصنيف السابق نجد أن فونيم "النون" يؤكد هيمنة لا جدال فيها، فهو أكثر الصوامت العربية وقوعًا فى السجع القرآنى، وتتعادل تقريبا نسبة توزيعه فى كل من السور المكية والمدنية -ويمكن التأكد من ذلك بالرجوع إلى الجداول أرقام (٣، ٤).

والحقيقة أن "النون" واحدة من أسرة صوتية يَمْثُل كافة أفرادها داخل تصنيف الأصوات المهيمنة فى السجع القرآنى وإن اختلف حظ كل منها من حيث الشيوع. وتسمى هذه الأسرة باسم "الأصوات المتوسطة أو المائعة" وهى تتكون من: النون، والراء، والميم، واللام. ويميل بعض الدارسين إلى تسميتها "أشباه أصوات اللين"؛ والاختلاف فى تسميتها على هذا النحو يرجع إلى كونها "حلقة وسطى بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين. ففيها من صفات الأولى أن مجرى النفس معها تعترضه بعض الحوائل، وفيها أيضًا من صفات أصوات اللين أنها لا يكاد يسمع لها أى نوع من الحفيف، وأنها أكثر وضوحا فى

السمع".[١] ويمكننا أن نتأكد من مركزها السمعى بالرجوع إلى البيان الذى قدّمه "يسبرسن"[٢] حول قوة إسماع الأصوات. وفيه نجد أن صوت الراء يحتل المركز الرابع من حيث قوة إسماعه، يسبقه فى ذلك العلل الطويلة التى جاءت فى المراكز الثلاثة العليا، ويلحقه فى المركز الخامس كل من "النون" و"الميم"، تليهما "اللام" فى المركز السادس.

هنا تتجلى الحكمة الباعثة على كثرة إلحاق هذه الأسرة الصوتية بالفاصلة القرآنية؛ فهى أشد الصوامت العربية وضوحا فى السمع، وأكثرها إسهامًا فى التمكن من التطريب. والسؤال: لماذا استحقت النون -كميا- أن تكون أكثر أفراد هذه الأسرة حضورا فى فواصل القرآن الكريم؟ بماذا تتميز عن غيرها من الصوامت؟ هل ترجع كثافة استخدامها بوصفها رويًا للسجع القرآنى إلى أسباب منطقية؟ تعد النون فيما يرى البحث أنسب الصوامت العربية وقوعًا فى ختام الفاصلة القرآنية، ومرجع ذلك إلى عدة أمور:

أ- يتميز فونيم النون عن أصوات العربية -عامة- والأصوات المتوسطة -خاصة- بأنه يجمع بين خاصيتى الوضوح السمعى، والحد الأعلى للتوسط فى الطول. فبرغم أن "النون" تصنّف تقليدياً ضمن الساكن إلا أن لها تركيبا سمعيا -أى مادياً- يشبه ذلك الموجود فى العلل، وهذا التركيب هو الذى منحها -كما ذكرنا- وضوحها السمعى. ولئن كان هذا الوضوح لا يرتقى إلى درجة الوضوح السمعى للراء، التى نراها من هذه الجهة جديرة بأن تتقدم تصنيف الأصوات المهيمنة فى السجع. إلا أن "النون" تتميّز بشىء آخر على أقرانها من "أشباه الصوائت"، فهى أطول الحبيسات الأربعة من حيث المدة الزمنية التى تستغرقها فى النطق؛ إذ يتراوح المدى الزمنى السمعى لها بين $\frac{٨٠-١٠٠}{١٠٠٠}$ م/ث[٣]. وبذا يجتمع فى صوت النون خاصيتان مميزتان هما: الوضوح السمعى، والحد الأعلى للتوسط فى الطول.

---

(١) الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط٣، ١٩٦١، ص ٢٨.

(٢) انظر: دراسة الصوت اللغوى، أحمد مختار عمر، ص٣١٣.

(٣) راجع: التشكيل الصوتى فى اللغة العربية -سلمان العانى- ترجمة ياسر الملاح، النادى الثقافى بجدة، جدة، ط١، ١٩٨٣، ص ٥٢. وهذا هو الحد الأعلى للتوسط فى الطول. وفى

ب- وتتمتع النون بميزة موسيقية ظاهرة فى الغنّة، فهي -كما لاحظ الليث- صوت فيه ترخيم نحو الخياشيم.[1] وقد لجأ القرّاء إلى الغنّة لإعطاء النون بعض حقها الصوتى مع غيرها من الأصوات التى كانت تَغنُّ فيها؛ وما ذلك إلا احتراز من أن يقرأ القرآن كما يتكلم الناس فى أحاديثهم الدارجة التى مالت النون فيها إلى الفناء فى غيرها من الأصوات دون أن تخلّف أية إشارة تنبئ عنها.

والغنّة هى: إطالة للصوت مع ترديد موسيقى محبب. ومن ثم كان الزمن الذى يستغرقه النطق بنون الغنّة ضعف ما تحتاج إليه النون المظهرة، فالفرق بين الاثنين فرق فى الكمية من ناحية، وتطور النون وميلها إلى مخرج الصوت المجاور من ناحية أخرى.[2]

والغنّة ليست صفة ملازمة للنون فقط بل للميم أيضا بيد أن ما يميز صوت النون عن الميم بحق، ويجعل تفوقه الكمى فى السجع القرآنى مبررًا هو كون الغنّة فى النون أشد وأوضح من الميم.

ج- ويتفق الحضور المكثف لكل من "النون" و"الميم" فى السجع القرآنى مع القاعدة التى تقضى بأن مبنى السجع على الوقف؛ ذلك أن الغنّة الموجودة بهما -حتى وإن كانتا ساكنتين- تعطى إحساس المد، وتعادل قيمته الموسيقية.

بناء على ما تقدم، نرى أن النون كانت أنسب الأصوات العربية وقوعًا في السجع القرآنى، ويليها فى ذلك "الراء" التى تتميز بكونها أكثر الحروف دورانًا فى أواخر الكلمات العربية، وبأنها صاحبة أعلى وضوح سمعى بين الصوامت.[3]

العربية -كما نعلم- كثير من الأصوات التى يفوق مداها الصوتى السمعى مدى الأصوات المتوسطة جميعًا، فنجد المدى الصوتى للشين مثلا -وهى من الأصوات الاحتكاكية- يتراوح بين (١٢٠ - ١٧٠) / ١٠٠٠ م/ث.

(١) انظر: المستدرك على الأجزاء السابع والثامن والتاسع من التهذيب -الأزهرى- ت. رشيد عبد الرحمن العبيدى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥، ص ١٠٢.

(٢) انظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، ص ٥٩.

(٣) ذلك وفقا لما سجّله بيان "يسبرسن" حول قوة إسماع الأصوات، الذى تحدّثنا عنه فيما سبق.

ولنا هنا وقفة؛ فإن بعض الدراسات المعنية بالنظر فى النص القرآنى، ترى أن ورود "الراء" روياً فى نهايات الفواصل القرآنية كان أقل كثافة من ورود كل من حرفى "النون" و"الميم".(١) والحق أن هذا القول يحتاج إلى تأمل وإنعام نظر؛ ذلك أن أصحابه لم يعمدوا إلى المعالجة الإحصائية ليؤكدوا صدق قولهم، وإنما بنوه على ملاحظات لا تستغرق -فى الغالب- كامل النص. ويبدو أن القول السابق لا يصدق إلا مقارنة بحرف "النون" فقط، أما القول بأن "الراء" أقل كثافة فى الفاصلة القرآنية من "الميم" فهو أمر لا يؤيده الإحصاء الذى أجرته الدراسة على كامل النص؛ إذ بلغت نسبة شيوع فونيم الراء فى السجع القرآنى ١٢,٨٢%، بينما لم يتجاوز نسبة شيوع الميم فيه ٧,٩٩%.(٢) ولكن بالاستقراء الدقيق لكافة الجداول، يتضح أن القول بأن الراء أقل كثافة فى الفاصلة القرآنية من النون والميم لم ينبع من فراغ؛ فمن الملاحظ أنه يتفق مع النتائج التى تقدّمها الإحصاءات الخاصة "بالقرآن المدنى". ومن ثم تعتقد الباحثة أن الدراسات القائلة بأن فونيم "الميم" أكثر كثافة فى السجع القرآنى من فونيم "الراء" -قد بنت تصورها هذا من خلال ملاحظة انصبت على بعض أجزاء من النص القرآنى، إذ يبدو أنها توقفت عند السور المدنية، ولكن تلك الدراسات وقعت فى التعميم؛ فليس دائمًا ما يصدُق على الجزء يصدُق على الكل.

ولئن كان فونيم "النون" هو أكثر الصوامت وقوعًا فى السجع القرآنى، فإن أكثر الصوائت فيه هو فونيم "الألف".(٣) ولعل تفوق الألف -كميا- على الصوائت الأخرى، عائد إلى كونها أسهل الصوائت الطويلة نطقاً. فمن الأمور اللافتة للنظر، أن ترتيب الصوائت المهيمنة في السجع القرآنى يتطابق تطابقًا تامًا مع ترتيبها من حيث الجهد العضلى الذى تتطلّبه فى النطق. فقد جاءت الألف تتقدّم مجموعتها الصوتية، ثم تلتها الياء، وهى أوسط الحركات من حيث سهولة النطق بها.

والمتأمل فى النص القرآنى لا يلحظ تعيّنا لا "للألف" ولا "للياء" سوى فى

---

(١) راجع، الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، عيد محمد شبايك، مركز معالجة الوثائق، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص ٦٥، ٦٦. وقد صب اهتمامه على الفاصلة فى القرآن بعامة لا فى المسجوع منه فحسب.

(٢) انظر: الجدول رقم (١).

(٣) كما يبدو من الجدول رقم (٢).

السور المكية فحسب. فالألف تحتل المركز الثالث بين الأصوات المهيمنة فى القرآن المكى، وتقع فى حوالى ٦,٣٢%[١] من مجموع آياته المسجوعة.

والعامل المؤهّل لشيوع الأصوات الصائتة فى السور المكية هو ما يثيره المد فيها فى موضعها السياقى من ترنّم وموسيقية وتطريب يتناسب مع طبيعة الخطاب المكى الموجّه إلى الوجدان بالدرجة الأولى. فالصوائت تتميّز أيا كان نوعها بأنها أطول مدى من جميع الصوامت فهى تستغرق ٢٢٥–٣٥٠ / ١٠٠٠ م/ث [٢]، بينما تتراوح مدّة النطق بالصوامت ٦٠–١٧٠ / ١٠٠٠ م/ث [٣]. وقديمًا حاول سيبويه أن يعلل لكثرة إلحاق المد واللين والنون بأواخر الفواصل قائلا: "إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون؛ لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا". [٤]

ويتصل بالحديث عن "الألف" أمر مهم، هو تحقيق الهمزة فى بعض الفواصل القرآنية وبخاصة فى مواضع كان الانسجام الموسيقى بينها يتطلّب التسهيل. مثال ذلك كلمة (شيئا) فى أربع آيات من سورة مريم هى قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[٥]. وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾.[٦] وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾.[٧] وقوله: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾.[٨] إن الآيات الأربع السابقة لو قرئت بتسهيل الهمزة لكانت منسجمة مع الفواصل الأخرى، تلك التى انتهت بالياء

---

(١) ناهيك عن "ألف الإطلاق" التى تنتشر فى ختام فواصل الآيات، والتى بلغت نسبتها فى السجع القرآنى نحو ٩٠و١٠%.

(٢) راجع: التشكيل الصوتى فى اللغة العربية، سلمان العانى، ص ١١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٠-٥٩.

(٤) الكتاب، سيبويه، جـ٢، ص ٢٨٩.

(٥) مريم: ٩.

(٦) مريم: ٤٢.

(٧) مريم: ٦٠.

(٨) مريم: ٦٧.

الممدودة بالألف فى سورة مريم؛ فلماذا آثر النص تحقيق الهمزة فى هذه الآيات؟

وقف البعض[١] متأملا ومتحيراً فى العثور على تعليل يبرر تحقيق الهمزة فى الأمثلة السابقة خاصة وأن تسهيلها مروى عن أهل مكة والمدينة مهبط الوحى؛ "قال أبو زيد: أهل الحجاز وهذيل، وأهل مكة والمدينة لا ينبرون. وقف عليها عيسى بن عمر فقال: ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر، وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا".[٢]

والنبر هو الهمز فى اصطلاح القدماء؛ قال ابن منظور: "النبر همز الحرف، ولم تكن قريش تهمز فى كلامها".[٣] وهنا يثار تساؤل حول سر اختيار الناطقين الأوائل باللغة كلمة "النبر" دون غيرها لتكون مرادفًا للهمز، هل النظام الاصطلاحى عمل أنجزه وعى منظّم؟ لا شك أن الناطقين باللغة كانوا يعاملون المصطلحين معاملة المترادف لأمر ما مشترك فيهما، أمر تمتد جذوره فى المعنى المعجمى؛ فمن المعلوم أن انتقال أى كلمة من المعجم اللغوى إلى المعجم الاصطلاحى لم يكن يتم إلا بقرينة تبيح هذا النقل. وعندما نرجع إلى لسان العرب نجد ابن منظور يقول فى مادة "نبر": "هو الهمز، وكل شىء رفع شيئًا فقد نبر، وقال اللحيانى: رجل نبار صيّاح، و[قال] ابن الأنبارى: النبر عند العرب ارتفاع الصوت يُقال نبر الرجل نبرة إذا تكلّم بكلمة فيها علو... والنبر صيحة الفزع، ونبرة المغنى: رفع صوته عن خفض".[٤]

من هذه الإشارات يمكن استخلاص الصفة المشتركة بين المترادفين: الهمز والنبر. فيبدو أن القدماء قد استشعروا ما يحدثه الهمز من رفع للصوت عن خفض، وما يَحُثّ عليه من ضغط على المقطع الصوتى الذى يحتويه. وهما خاصتان لم

---

(١) انظر: على هدى الفواصل القرآنية، إبراهيم أنيس، مجلة مجمع اللغة العربية، البحوث والمحاضرات، القاهرة، ١٩٦٢، ص ١١٦. وراجع كذلك، من صور الإعجاز الصوتى فى القرآن الكريم، محمد العبد، ص ٨٩.

(٢) مقدمة لسان العرب، ابن منظور الأفريقى، جـ١، ص١٤.

(٣) لسان العرب، ابن منظور الأفريقى، مادة (ن. ب. ر)، جـ٥، ص١٨٩.

(٤) المصدر نفسه، مادة (ن. ب. ر)، جـ٥، ص١٨٩.

ينالا عناية كافية فى المناقشات الخاصة بعلم الأصوات.[١] فإذا كانت للهمزة هذه القيمة النغميّة النبريّة، فلماذا كان تسهيلها هو الأمر المختار لدى بعض اللهجات؟ هل يوجد ثمّة ارتباط بين تحقيق الهمزة أو تسهيلها وبين الدلالة؟

بالعودة إلى الشواهد السابقة الذكر، وتأملها بعناية ندرك أنّ الهدف من تحقيق الهمزة فيها لم يكن مجرد كسر توقع القارئ المنتظر لمراعاة الفاصلة، وإنما يرجع تحقيقها إلى أمر خاص بالمعنى، فالهمز[٢] يمثل عاملاً تطريزيّاً[٣]، بل إنه يعد أقوى القوانين التطريزية وجودًا فى نطق الفصحاء،[٤] حيث ينتج عنه نشوء نوع من النبر يطلق عليه نبر التوتّر (أو الشدة).[٥] وإذ ننطق بالتناوب الكلمات "شيئا"

---

(١) هناك دراسة جادة توقفت قليلاً عند تلك الخواص، وهى "القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث"، عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجى، القاهرة، د ت، ص ١٥– ٣٦.

(٢) الهمز هنا مستعمل بالمعنى اللغوى العام، المتصل بمعنى الضغط والنبر. أما حين يُراد الصوت المعروف فتستعمل كلمة "همزة".

(٣) يستعمل مصطلح "التطريز" فى بعض المدارس اللسانية ليشير إلى خصائص مثل النبر "stress"، ونغمة الكلام "intonation". انظر: مدخل إلى اللغة واللسانيات، تأليف جون ليونز، ترجمة: حمزة بن قبلان المزينى، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، م١٤ (١)، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧، ص ١٨٨.

(٤) انظر: علم الأصوات، برتيل مالمبرج، تعريب ودراسة: عبد الصابور شاهين، مكتبة الشباب، ١٩٨٥، ص ١٩٨.

(٥) أشار "جان كانتينو" إلى وجود ثلاثة أشكال للنبر: ١– نبر موسيقى: وهو يستتبع تنوّعات فى علو النغمة الحنجرية، أى (فى تردد ذبذبات الأوتار الصوتية). ٢–نبر التوتر: ويعنى تنوعات التوتر المسموع، فالمقطع فى أيّة جملة لا تنتج بنفس التوتر، فإن سعة التذبذب تختلف من مقطع لآخر، ومن تم فإن بعض المقاطع يكون أكثر ضعفًا، أى: (غير منبور)، وبعضها الآخر أكثر قوة أى: (منبور). ٣–نبر الطول: وهو راجع إلى زيادة فى مدّة النطق بالصوت. ٤–يمكن أن يضاف إلى النبر شكل آخر هو تركيب من هذه العناصر معًا، أو من بعضها.
راجع: القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث –عبد الصبور شاهين، ص ٢٦.
Jean cantineau: Etudes linguis tique arabe. Paris, 1960. p. 119.

و"شيّا"،[1] تتجلى فاعلية تحقيق الهمزة فى مواضعها. فالملاحظ أنها تسهم فى إبراز المقطع الأخير من الكلمتين، فتجعل منه نقطة ارتكاز لها قوّة إسماع ظاهرة. فالهمز انتقال النبر من المقطع قبل الأخير -شيْ- إلى المقطع الأخير الذى يَحدُث فيه نوع قوى من الضغط على المقطع يُدعى "نبر التوتر الهمزى"، وهو نبر أقوى وأظهر مما لو افترضنا نطق الكلمة بتسهيل الهمزة وتضعيف الحرف السابق عليها.

وللهمز وظيفة يبدو أن القدماء كانوا مدركين إياها. فقد حرص أهل بادية تميم على تحقيق الهمزة؛ نظرًا لسرعة أدائهم، والتماسهم أن يضغطوا بعض المقاطع بصورة واضحة، حيث يشعرون بضرورة هذا الضغط للتقليل من عيب السرعة فى الأداء، وهو السبب الذى أحوجهم إلى الحرص على وجود نبر التوتر الهمزى فى كلامهم، على حين اكتفى أهل الحجاز بقدر يسير من الضغط على موضع الهمزة المسقطة، فقد استغنوا عن الهمزة بوصفها وسيلة للنبر، وساعدهم على ذلك تعوّدهم الأناة فى نطقهم، والتؤدة فى إيراد المقاطع منبورة أو غير منبورة.[2]

ويعد العدول عن تسهيل الهمزة فى الشواهد القرآنية السابقة وإيثار تحقيقها برهانا جديدًا من براهين الإعجاز الصوتى فى لغة القرآن الكريم، فاللغة القرآنية جاهدة دائما أن يتوافر فى بنائها كل ما من شأنه أن يضع خطاً تحت الكلمات التى يراد أن تكون مفتاحًا للمعنى؛ وذلك بالتأكيد على أحد مقاطعها أو بعضها. ويبدو أن حرص النص القرآنى على النبر الهمزى فى الكلمات السابقة جاء من هذا القبيل، فالنبر فيها يرتبط ارتباطًا واضحًا بالمعنى، حيث حرص النص على الهمز لأهداف أسلوبية تتمثل فى إسناد قيمة إضافية للتعبير، وهى التأكيد.

كانت هذه هى الأصوات الأكثر تواترًا فى السجع القرآنى، وعند مقارنة ذلك

---

(١) إن الهمزة فى هذه الكلمة لم تقلب "ياء" كما قد يُخيّل إلينا إنما الذى حدث، هو محاولة الاستعاضة عن النبر الهمزى وذلك بالضغط على المقطع مما قوّى من حالة المزدوج الهابط فى (شَيا) sha[ya] بتضعيفه وتحويل الكلمة إلى شيّا sha[yya]، فالياء الثانية هنا توصف بأنها "نبريّة".

(٢) انظر: فى اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٢، ص ١٢٠- ١٣٠.

التواتر بما هو شائع فى الشعر العربى القديم من توظيف أصوات بعينها بوصفها رويا للقافية -يتبين أن حروف الروى التى كثر ظهورها فى الإبداع الشعرى، وتواتر استخدامها فى غالبية قصائده، هى نفس مجموعة الحروف الختاميّة التى نالت حظًا وافرًا من الوجود فى السجع القرآنى، بيد أن الفروق واضحة بين نسب حضور كل حرف منها فى القرآن الكريم وفى الإبداع الشعرى، ويمكن تبيّن هذه الفروق بالنظر فى الإحصاء الذى قدّمته واحدة من الدراسات الجادة التى عكفت على دراسة الشعر القديم. ولنتأمّل النسب التى سجلها "جمال الدين بن الشيخ" فى كتابه "الشعرية العربية"، وهى على النحو الآتى(١):

القافية (الروى)	الشعر والشعراء	الحماسة	أبو تمام		البحترى		الأغانى
	عدد القصائد	عدد القصائد	القصائد	النسبة	القصائد	النسبة	عدد القصائد
ب	١٥٢	٨٢	٧٢	%١٧	١١٤	%١٢	١١٣٢
م	١٦٥	١٠٨	٦٣	%١٥	٦٢	%٦و٥	١٠٦٥
ر	٢٦٠	١٤٥	٥٨	%١٤	١١٣	%١٢	١٦٠٢
د	١٦٥	١١٦	٥٨	%١٤	١٣٣	%١٤	١٠٥٢
ل	٢٣٧	١٣٧	٤٨	%١١	١٢٠	%١٣	١٣٤٢٠
ن	١٢١	٥٥	٢٩	%٧	١٠٠	%١١	٨٨٩

هكذا يسجل جدول تواتر أصوات القوافى فى الشعر العربى حضور الصوامت الستّة المتحدث عنها فى السجع القرآنى بوصفها الأصوات الأكثر شيوعا فيه. ويهمنا من الإحصاء السابق ما جاء متعلقا بالمنتخبات؛ ذلك أنها تضىء ذاكرة الروى فى النمط الأول من القصيدة العربية القديمة.(٢) والمقارنة بين تلك النتائج

(١) توصلت مجموعة من الدراسات إلى نسب متقاربة فيما يتصل بأمر الشيوع والندرة فى حروف الروى فى الشعر القديم، ونذكر منها؛ الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ت: مبارك حنون ومحمد الولى ومحمد أوراغ، دار تبقال، ط١، ١٩٩٦، ص ٢١٠- ٢١١. موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، ص ٢٤٨، العروض والقافية، عبد الرحمن السيد، ص ١٠١- ١٠٢.

(٢) وإن لم يكن ممكنا حساب نسبة دالة انطلاقا من منتخبات ما.

وإحصاء السجع القرآنى تشير إلى وجه آخر من وجوه الإعجاز فى النص المنزّل الذى جاء ملائمًا للذوق العربى، ومع ذلك فهو معجز له. ومن اللافت أن تلك الحروف الختامية ليست صوت إعجازه مقارنة بالعربية فحسب، بل هى واحدة من طرق الاستهواء الصوتى فى اللغة، "وأثرها طبيعى فى كل نفس. فهى تشبه أن تكون صوت إعجازه الذى يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه".(١) إن أثرها يتعدّى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى؛ ذلك أن هذه الفواصل -كما رأى الرافعى- ما هى "إلا صورة تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقًا عجيباً يلائم نوع الصوت، والوجه الذى يساق عليه مما ليس وراءه فى العجب مذهب".(٢)

ولما كان أوّل مفاتيح النفس هى الآذان المدرِكة؛ فقد حرص النص القرآنى على أن يتوسل بهذه الأصوات الموسيقية؛ بغرض جذب الانتباه، وإيقاظ الوجدان، وإعمال العقل والفكر. وقد أشار "جب" Gibb فى كتابه "الاتجاهات الحديثة فى الإسلام" إلى أن الموسيقية الظاهرة فى النظم الصوتى للغة القرآن الكريم، قد أدّت دورًا لا حدّ له فى تكييف عقل السامع وتهيئته لتلقى الدعوة الإسلامية.(٣)

إذ تتحرك الدراسة فى منطقة الثقل السجعى فإنها تلتفت إلى إحدى المؤثرات الصوتية التى تحتفظ بقيمة عملية مؤكدة فى النصوص المسجوعة بصفة عامة والنص القرآنى بصفة خاصة. فلقد وضع أهل الذوق وأرباب البصيرة بالفن الأدبى شرطا فى النثر المسجوع يضمن لرويه وحدة الجرس، فاشترطوا أن يكون مبناه على الوقف، قال الخطيب القزوينى: "اعلم أن فواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفا عليها؛ لأن الغرض أن يزاوج بينها، ولا يتم ذلك فى كل صورة إلا بالوقف".(٤)

وما من شك فى أن الوقف يعد دعامة أساسية تسهم فى إبراز الجمالية

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعى، ص ٢١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٦.

(3) Modern trends in islam, H.A.R. Gibb. The uni. Of chicogo, 1975, p.4.

(٤) الإيضـــاح فى علوم البلاغة، الخطيب القزوينى، شرح محمد عبد المنعم خفاجى، جـــ٢، ص ٥٤٩.

الإيقاعية للسجع؛ ذلك أنه يكفل لخاصية التوازن والتعادل الظهور من خلال ما يحدثه من جرس موحّد ناتج عن مجيء التماثل الصوتى بين أحرف الروى مصحوبا بتماثل فى الحركات النطقية. والسؤال المطروح هنا: هل هذا الشرط –الوقف– مفروض على بنية النص القرآنى، فرضه القرّاء أو البلاغيون الأوائل ثم رحنا نتابعهم فى ذلك؟

ثمة ملاحظات فى القرآن لا تدع مجالاً للشك فى أنه نزل متوخيا الوقف على أواخر الفواصل، حريصا على توفره فى سجعه. فالوقف خاصية فرضها قانون النص ولم تفرَض عليه من الخارج، لم يفرضها القرّاء الأوائل ولا غيرهم، ويمكن البرهنة على ذلك بالدليل المادى من النص القرآنى الذى هو مثال للغة العربية فى أبهى صورها، والمنفذ الأمثل لكل ما تقتضيه الحكمة اللغوية فيها.

ولقد لاحظ القدماء أن الوقف يضعف الحرف الأخير الموقوف عليه إذا كان صوتاً من أصوات اللين ولذا فإن هذا الصوت يكون بحاجة إلى تقوية تتم عن طريق إلحاقه بصوت آخر اجتمعوا على أن يكون "هاء السكت"، "ولعل السر فى ذلك هو أن الجهاز النطقى عند إخراج الحركات يكون مفتوحاً، ويسمح للهواء بالمرور فيه دون عوائق وهذا معناه أن صوت اللين إذا كان فى آخر الكلمة تبدد بسرعة مع الهواء الخارج بكمية كبيرة فيبدو ضعيفا خفياً، ولذا أنشأ الوقف هاء السكت لتقوية الحركة أو صوت اللين السابق عليها؛ لكونها صوتا احتكاكيا يضيّق مجرى الهواء ولا يسمح بخروجه دفعة واحدة".(1)

وفى القرآن الكريم من النمط السابق ما يؤكد توخيه للوقف على أواخر فواصله (مسجوعة وغير مسجوعة) يقول الخالق عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ، إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾.(2)ويقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ، يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ، مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾.(3) هاء السكت فى هذه

---

(1) الجانب الصوتى للوقف فى العربية ولهجاتها، أحمد طه حسنين سلطان، مطبعة الأمانة، ط أولى، ١٩٩١، ص ٢٣.

(2) الحاقة: ١٩- ٢٠.

(3) الحاقة: ٢٥- ٢٩.

الآيات تسهم فى "تمكين الصوت وتوفيته ليمتد ويقوى فى السمع"(١)، وهى من ناحية أخرى تعد دليلاً على أن ظاهرة الوقف فى القرآن ليست ناشئة عن تدخل المتلقى فى إنتاج جمالية النص -كما قد يتبادر إلى الذهن- فالوقف خاصية أصيلة فى بناء النص القرآنى، وحرصه عليها يتفق أولاً مع ما تتطلّبه التلاوة من قطع الصوت عن الكلام زمنا يتنفس فيه القارئ ثم يعود إلى استئناف القراءة. كما يتفق ثانية مع مجىء الجملة فى غالبية الآيات منتهية نحوياً، فالحركة هنا لا مكان لها؛ ذلك أن "الحركة مظهر من مظاهر الاستمرار فى الأداء، والصمت أى الوقف يعتبر عكس الحركة تماما؛ فبينه وبين الحركة تنافر".(٢) وقد ذهب القدماء إلى أن الوقف جائز فى رؤوس الآى مطلقا حتى فى حالات الوصل وذلك لقصد البيان،(٣) إذ ينقسم السياق إلى دفعات كلامية، يقوم فيها الوقف بدور وظيفى فى توضيح المعنى، ففى سورة المسد -على سبيل المثال- يؤدى التسكين دورًا مهمًا إذ يحتفظ للسجعات بقوتها. ويتفق الوقف أخيرًا مع قصد تطريب الأذن بصدى الحرف، فإن ذلك الصدى لا يبين جيدًا ولا يمكن تذوقه إلا إذا جاء الحرف مستقلاً عما يمكن أن يغير من صفاته الأساسية. وقد أشار ابن جنى إلى ذلك فى كتابه "سر صناعة الإعراب"، قال: "وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتى به ساكنا لا متحركا؛ لأن الحركة تقلق الحرف من موضعه ومستقره".(٤)

والشواهد القرآنية السابقة المختومة بهاء السكت تسترعى الانتباه مرة أخرى؛ فإن الهاء فيها لا يمكن عدها رويّا للسجع، وهى ليست نظيرًا لبقية الصوامت التى يمكن أن تمثل رويّا، وذلك لأن تسكينها يؤثر فى حدها الصوتى فلا يجعله ظاهرًا، وهو الأمر الذى يدعو إلى مراجعة التعريف الذى حصر منطقة الثقل السجعى فى الحرف الأخير من الفاصلة، فهذا الحصر لا يضع اعتبارًا لمظاهر الوقف المختلفة، كالوقف بالمدّ أو بالسكت ممثلا فى هائه. والواقع أن هناك لونيْن من السجع الذى

---

(١) الخصائص، ابن جنى، جـ٢، ص ٣٢٨.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص ٢٧١.

(٣) انظر: النشر فى القراءات العشر، ابن الجزيرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ص ٢٤٠.

(٤) سر صناعة الإعراب، ابن جنى، ت: مصطفى السقا ومحمد الزفزاف وإبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مطبعة مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٩٥٤، جـ١، ص ٢٧.

قدمه شرّاح التلخيص[1]، ويكون فيه الروى آخر حرف من الفاصلة. والآخر: يكون الروىّ بينه وبين انقضاء العبارة المسجوعة حرف.

والمتابعة الرصدية فى النص القرآنى تؤكد تعدد طرقه فى إحداث توازناته الصوتية، وهو يبنى معماره على نحو فائق من التنظيم المهيئ لخلق الإيقاع وتصعيده، فإذا لم يكن الروىّ موحدًا فى السور بكاملها فإن النص يعمد فى تلوينه الإيقاعى المعتمد على تنويع روى الوحدات السجعية إلى أصوات متقاربة فى مخارجها وصفاتها تختص كل وحدة سجعية بصوت منها، لكنها تمد البناء المعمارى للنص فى مجمله بطابع سمعى مميز كفلته له التوازنات المؤسسة على علاقة القربى أو المشابهة الصوتية.

- المهيئات الصوتية التى تسبق منطقة الثقل السجعى:

كان الجهد فى الصفحات السابقة خالصًا لرصد التوازنات الصوتية التى تظهر فى منطقة الثقل السجعى، مؤسسًا على ما أقرته غالبية الدراسات البلاغية من تحديد البعد المكانى لتلك المنطقة وحصره فى الحرف الأخير الموقوف عليه. ويتعين الالتفات إلى المهيئات الصوتية التى يمكن أن تسبق منطقة الثقل، كأن يلتزم النص قبل أو بعد حرف السجع حروفًا أخرى، تعد استمرارًا لتكرارية صوتية موضعها نهاية الفاصلة.

ولا شك أن الالتزام يمثل ظاهرة تراثية مغرقة فى تراثيتها، شاعت فى الشعر والنثر على حدٍّ سواء، فاستخدمها الكهان فى أسجاعهم، والحكماء فى خطبهم، والشعراء فى قوافيهم، وكانت عناية النص القرآنى بتوظيف هذه البنية البديعية أكثر وأبلغ، إذ تنتشر فيه بصورة كبيرة على نحو ما سوف يأتى تفصيله. ولقد ولع

---

(١) التقى ابن الأثير والخطيب القزوينى فى تعريف السجع على أنه "تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد" ويفصّل شرّاح هذا التعريف، ولكنهم يستنتجون منه استنتاجًا يجانب الصواب حينما يجعلون اتفاق الفاصلتين كائنا فى الحرف الأخير منهما، انظر: شروح التلخيص، جـ٤، ص ٤٤٥، ولا ينبغى حصر السجع فى الحرف الأخير دائما؛ لأن هذا الأخير قد يكون هاء السكت أو ألف المد، وهما علامتان على الوقف، مثلهما مثل السكون، لا يحق اعتبارهما رويًا للسجع.

أصحاب المقامات بالالتزام، وقدموا صورًا له فى تشكيلات صياغيّة عنيت بالقيمة الإيقاعية للحرف أسموها بـ"اللزوميات"، وفيها يتآزر السجع مع الالتزام بحيث تتراكم التنظيمات الصوتية فى ختام العبارة المسجوعة بشكل يؤثر فى كثافة الإيقاع.

وإذا كانت طبيعة العلاقة بين السجع والالتزام قائمة على التجاور فى البعد المكانى فإنه لا يصح اعتبار تلك التنظيمات الصوتية المتجاورة شيئًا واحدًا؛ فالالتزام قد يرد فى فواصل الآيات مع كونها غير متفقة الآخر على حرف واحد، وهذا قول يمكن معاينته فى عدد كبير من سور القرآن، منها سورة "ق" التى جاءت فواصلها على النحو الآتى: المجيد، عجيب، بعيد، حفيظ. والملاحظ فى الفواصل السابقة أن الياء تتكرر مع قطع التنسيق عما يتلوها من الحروف التى اختتمت بها الفواصل. وانطلاقًا من هذا لا ترى الباحثة وجهًا للصحة فيما ذهب إليه بدر الدين بن مالك، حينما اعتبر الالتزام لونًا من ألوان السجع.[1] وإنما يأتى تتبعنا للالتزام فى هذه الدراسة من كونه بنية مؤازرة تؤازر إيقاعيتها إيقاعية السجع وإن كانت لا تندرج فى نسقه.

وينبغى ألا ننساق وراء بعض المقولات النقديّة التى أخذت الالتزام بمعنى سلبى، إذ اعتبرته قيدًا لحرية الكتابة، قيدًا ينتقص من الطاقات الفكرية لنص تولّد داخله نزاع بين تنظيم صوتى صارم جدًا وبين المعنى. والحقيقة أن هذا النزاع لم يرد على ذهن أكثر القدماء، ولا سيما المبدعين منهم، فأصحاب المقامات كانوا شغوفين بالالتزام، ولو أنهم رأوا فيه قيدًا على عملية الإبداع لطرحوه. وهذا أبو العلاء المعرى يقدّم إشارات مهمة تُعد ردًا على مظنة تعويق الالتزام الصوتى لطاقات النص الفكرية، إذ يصف حال الذين لا يلتزمون ما لا يلتزم بأنهم "يتبعون الخاطر كأنه هادى الركبان أينما سلك فهم له تابعون"،[2] وهو يرى أن النجاح ليس أقرب لهؤلاء بالضرورة من سواهم الذين يلتزمون ما لا يلتزم، وهذا معناه أن القيود الإضافية التى تفرض على النص من خلال تعاملات صياغية كالالتزام، لا تنتقص دائمًا من طاقته على التعبير، بل على العكس إن الجرعة الإعلامية فيه قد

---

(١) انظر، المصباح فى علم المعانى والبيان والبديع، بدر الدين ابن مالك، المطبعة الخيرية، ١٣٤١هـ، ص ٥٦.

(٢) مقدمة اللزوميات، المعرى، كامل الكيلانى، ط٢، مصر، ١٩٢٤، ص ٢٠.

لا ينهض بها نص آخر خال تمامًا من مثل هذه التعاملات الصياغية.

وقد وضع ابن الأثير تصورًا للالتزام الناجح فاشترط فيه عدم التكلُّف. والمتكلّف -فى نظره- "هو الذى يأتى بالفكرة والرويّة، وذلك أن ينضى الخاطر فى طلبه، ويبعث على تتبعه واقتصاص أثره، وغير المتكلّف يأتى مستريحا من ذلك كله، وهو أن يكون الشاعر فى نظم قصيدته أو الخطيب أو الكاتب فى إنشاء خطبته أو كتابته، فبينما هو كذلك إذ سنح له نوع من هذه الأنواع بالاتفاق لا بالسعى والطلب".[1] فى هذه المقولة يتضح المقياس الأساسى الذى انبنت عليه نظرية ابن الأثير فى تحديد الالتزام المتكلف فقد اعتبر تبييت النيّة لاستخدام وسيلة تعبيرية ما والسعى فى طلبها علامة ثابتة على وقوع التكلف، جاعلاً الإجادة -كما يفهم من خلال السطور- متعلقة بعفوية الحديث الأدبى، حيث يتفق للكاتب أن يعثر على التعبير الملائم باستخدام هذه الوسيلة أو تلك دون أن يبيت النيّة لاستخدامها. والناظر فى "المثل السائر" يستطيع أن يستشف منطلقات ابن الأثير فى صوغ مبادئه البلاغية، وأظهرها تأكيده فكرة أن الخلق الفنى الجيد الذى يخلو من تكلّف هو "طبع" لا "صنعة"،[2] طبع مؤسس على إلهام طبيعى وخارق إلى حد أن من يمتلكه تأتيه المعانى سهلاً ورهواً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً.[3] وحين يقع حديث عن انثيال الألفاظ ومجىء الالتزام الجيد بالاتفاق لا بالسعى والطلب، فلا مناص من طرح سؤال حول مدى اتفاق هذا القول مع مبدأ الاستخدام الأسلوبى الواعى الذى تؤكده النظريات الأسلوبية الحديثة. ضمن هذا المنظور، ستكون دراستنا للالتزام فى النص القرآنى لفحص كونه استخدامًا خاصًا، وبيان مساهمته فى مبنى الكلام ومعناه.

ويتوجّه البحث فى مرحلة أولى إلى مستوى المبنى لتحديد أنماط الالتزام الموظفة فى النص القرآنى، ورصدها رصدًا كميا يقيس كثافة كل نمط منها، ويكشف عما إذا كان النص يكرر أجراسًا محددة ذات طبائع خاصة، ليعقب ذلك محاولة تفسير فعاليتها فيه، ومعرفة كيف يخلق دفقها المتآزر مع السجع حركته

---

(١) المثل السائر، ابن الأثير، جـ١، ص ٢٦٩.

(٢) انظر: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢٦٩.

(٣) انظر: البيان والتبيين، الجاحظ، جـ٢، ص ١٣.

المؤثرة لا فى الإيقاع فحسب وإنما فى المعنى أيضا. والدراسة إذ تنصب على السجع القرآنى فإن المعالجة الإحصائية تكون ملزمة بأن تدور فى نطاق الآيات المسجوعة لا غير،[١] ولكى تبرز النتائج بشكل أفضل فقد حسبنا الأرقام والنسب التى تظهر لكل نمط فى عمود وحدها، وأعتقد أن الحاصل المجموع من أنماط الالتزام الأكثر استعمالا سيسمح باستخلاص استنتاجات أولى.

(١) فالالتزام منتشر فى النص القرآنى بكافة صوره: المسجوع منه، وغير المسجوع.

الالتزام وأنماطه فى السجع القرآنى(١)

أنماط الالتزام	التزام الروى لا غير	حدوث الالتزام قبل روى السجع فقط									حدوث الالتزام بعد روى السجع		الالتزام قبل وبعد روى السجع											
		ص ح ×	ح ح ×	ص ح ح ×	ح ح ص ح×	تكرار ثلاثة حروف	تكرار أربعة حروف	تكرار خمسة حروف	تكرار ستة حروف	تكرار ما يزيد عن ستة حروف	× ص	× ح ح	ح ح×ح ح	ح ح×ص	ص ح ×ح ح	ص ح × ص	ص ×ح ح	ص ح ص× ص	ص ح ص×ح ح	تكرار ثلاثة حروف	تكرار أربعة حروف	تكرار خمسة حروف	تكرار ستة حروف	تكرار سبعة حروف
الرقم	٤٢٢	٦٩	٣٠٢٨	٣٤٥	١٧	٤	٨١	٤٥	٥٣	٣١	٨٨	١١٢	٣٦٥	١٣	٢٤	٢	٤٩	٧	٧	٤	٢١	١٢	١٥	٣
النسبة	%٨,٧٤	%١,٤٢	% ٦٢,٩٤	%٧,١٥	%٠,١٥	%٠,٨٢	%١,٦٨	%٠,٩٣	%١,٠٩٨	%٠,٦٤	%١,٨٢	%٢,٣٢	%٧,٥٦	%٠,٢٧	%٠,٥٠	%٠,٠٤	%١	%٠,١٥	%٠,١٥	%٠,٠٨	%٠,٤٤	%٠,٢٥	%٠,٣١	%٠,٠٦٢
مجموع		٣٦٨٣									٢٠٠		٥٢٢											
مجموع كلى ٤٨٢٧	٤٤٠٥ بنسبة %٩١,٢٦																							

(١) العلامة (×) تدل على موضع الروىّ، مع الاحتفاظ للرموز بمعانيها التى حددناها سابقا، بما يعنى أن "ص" تساوى صوتًا صامتًا، و"ح" تساوى حركة قصيرة، و"ح ح" تساوى حرف مد طويل.

يقـدّم هـذا الاسـتقراء الإحصـائى مستخلصا لافتا، يمكن توضيحه فى عدة نقاط:

النقطة الأولى: أن مـوازرة الالـتزام للسجع القرآنى تبرز بوصفها بنية؛ ذلـك أن الآيـات المسـجوعة الـتى تخلـت عـن الالتزام واعتدت بالجرس فحسـب لا تـتجاوز نسـبتها ٨,٧٤%، بيـنما بلغت نسبة الالتزام فى السجع القرآنى ٩١,٢٦%.

وقـد أشـرت فـيما سـبق إلـى أن الالـتزام يعد من الوسائل الإيقاعية المحفوظـة، إذ كـان تمـثله فـى نصـوص أدبـية سابقا على نزول القرآن الكـريم بكثـير، ولا ينـبغى أن يوقـع هذا فى وهم أن النص القرآنى ليس له فـى الفواصـل جديـد؛ ذلـك أن الجدّة التى يحققها تتمثّل -بالدرجة الأولى- فـى إبـداع التوظـيف لهـذه الوسـائل اللغويـة الجماليـة التقليدية. وهذا ما تحـاول الدراسـة إثـباته مـن خـلال الـنظر فى سورة "الرحمن" بوصفها نموذجًا لبقية السور.

يـبدو مـن الـنظر المـتأمل فـى هـذه السورة أن التزام جرس صوتى موحـد فـى خـتام آياتهـا لـم يكـن مطلوبًا لذاته، لقد ورد الروى فى أغلب آيـات السـورة رادفـا لألـف المـد، ومـن البدهى أن هذا الالتزام الحرفى يتصـف بكونـه آلـيا؛ ذلـك أن طبـيعة الكلمات الفواصل وتركيبها الصوتى هـى الـتى فرضـت تشـكُّل الالـتزام على هذه الهيئة، ولكن التمعّن العميق فـى السـورة يكشـف عـن سـمة خفـيّة تثير الحكم بأن لهذا الالتزام دخلاً كبـيرا فـى الإعجـاز الصـوتى للقـرآن، فهو يحوى جوهر السورة، بمعنى أنـه لـيس مطلوبًـا لذاتـه وإنمـا تطلبـته الدلالة واستدعاه البناء.[1] يقول

---

(١) وكمـا أن الالـتزام مـن متطلـبات الدلالـة فإن العدول عنه كذلك من متطلباتها، فقد آثـر الـنص فـى سـورة الرحمـن تحقـيق الهمزة فى كلمة (شأن) فى قوله تعالى (يسأله مـن فـى السـماوات والأرض كـل يـوم هـو فـى شأن) -آية ٢٩- والهمزة فى كلمة (شـأن) وظيفـيّة، إذ تقـوم بـزيادة شـدة الضوضـاء فى الصوت، يصاحبها ضغط على المقطـع، أمّـا عـن الـتعديل الـذى تدخلـه على الكلمة فهو تحويلها من مقطع من النوع الـرابع (ص ح ح ص) إلـى آخـر مـن الـنوع الخامس (ص ح ص ص) النبر فيه نبر

الشيخ سيد قطب فى إستهلال تفسيره لسورة الرحمن: "هذه السورة المكية ذات نسق خاص ملحوظ، إنها إعلان عام فى ساحة الوجود الكبير، وإعلام بآلاء الرحمن الباهرة... ورنّة الإعلان تتجلى فى بناء السورة كله، وفى إيقاع فواصلها... تتجلى فى إطلاق الصوت إلى أعلى، وامتداد التصويت، إلى بعيد... الرحمن... وهذا المطلق المقصود بلفظه ومعناه وإيقاعه وموسيقاه يخاطب كل الوجود، ويبلغ كل سمع وكل قلب".[1] إن جمال الإيقاع الموسيقى المؤثر المنبعث من المدود يقف مساندًا لدلالة السورة، ويأتى مجانساً للفكرة، والإحساس الممتزج بها وبهذا تظهر عظمة المبانى القرآنية فى تصويرها وتعبيرها عن المراد. ألا يحق لنا إذن أن نعتبر الالتزام من أهم الخصائص الأسلوبية للنص القرآنى برغم كونه بنية بلاغية مألوفة، إن قيمته الحقيقية فى النص راجعة إلى الإبداع فى توظيفه.

النقطة الثانية: يبدو أن هناك حرصًا واضحًا على ضمان قيم صوتية تتكرر بعينها. فمن الملاحظ أن نسقًا يتكون من حرف مدٍ أو لينٍ سابق مباشرة لروى السجع هو الذى يشيع تكراره فى النص، ذلك أنهُ يتردد ٤٠٣٠ مرة، بحيث يمكن القول إنه هو النسق الأساسى فى تكوين نظام الالتزام فى النص القرآنى، فعدد مرات وروده أكثر من عدد مرات ورود أى نسق آخر. وهنا لابد من البحث عن الأسباب التى أدت إلى اختيار هذا النسق بالذات وتوزيعه بهذه الكثافة. لقد أحسّ سيبويه بقيمة المد واللين فى الترنم، وبما أن الفاصلة هى قمة الإيقاع وخاتمته فإن للترنم فى هذا الموضع قيمة كبيرة "ويساعدنا علم اللغة الحديث على أن ندرك أن فى هذا الترنم أيضًا نوعًا من التنغيم، الذى تتجمع نغماته طوال

"توتر" لا نبر "طول" حيث إن النطق بالصائت فى كلمة (شان) -بالتسهيل- لا يعنى فى الحقيقة سوى استمرار الانطلاق فى مجرى الصوت، حتى يتم أداء الحركتين، فالقياس فى حالة تسهيل الهمزة يكون على أساس الكم الزمنى، لا على أساس الكيف الأدائى.

(١) فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط٢١، ١٩٩٣، ج ٢٧، ص ٣٤٤٥.

الكلام للتجسد واضحة فى نهايته»[1] حيث تنتهى الجملة النحوية. ومجىء الروى رادفًا للين يقيم عملية توافق بين عنصرين مهمين فى نهايات الأسطر. هذان العنصران هما انتهاء واكتمال الجملة من ناحية، والمقطع زائد الطول المنبور ٤ (ص ح ح ص) من ناحية أخرى، ذلك المقطع الذى يتولّد عن وجود حركة طويلة بين ساكنين تسهم فى خلق محطات نغمية تجعلنا نتوقف عند نهايات العبارات السجعية وقفة طبيعية تعطى كمال الإيقاع وراحة النفس والتزام السنّة فى القراءة.

التوازنات الصوتية فى النسيج الداخلى للآية وعلاقتها بالسجع:

وفى إطار المتابعة الصوتية يلاحظ أن النص القرآنى يضمن لنسيجه الداخلى كثافة إيقاعية موازية لتلك الإيقاعية التى يوفرها السجع لإطاره الخارجى. فهو يتوخى التوزيع الصوتى الموقّع بحيث تصير السجعة تتويجا لتنظيم صوتى يحدث فى ثنايا الآيات متولّدة عنه مجموعة من التوازنات تدخل فى علاقة صوتية مع سجعة نهاية الآية. وتتنوع طبيعة هذه العلاقة فقد تكون قائمة على التماثل الصوتى بين روى السجع وبعض الحروف المتكررة داخل الآية وقد تكون مؤسسة على التباعد أو التقارب الصوتى بين الروى فى نهاية الآية وصوت آخر مغاير له يتكرر فى الداخل، ودراسة علاقة الإطار بالداخل هى جزء من متابعة فعل النص فى إحداث إيقاع صوتى صاعد.

[أ] السجع الداخلى والسجع الختامى:

وأولى صور التوازنات التى تكشّفت من خلال مراقبة البنية السطحية فى النص القرآنى، هى تَمثُّل عنصر التناسق والتماثل السجعى فى متن الآيات حيث ينشأ "سجع داخلى" يكون منوطًا بنهايات الجمل النحوية داخل الآية كما أن السجع الختامى منوط بنهايات الفواصل التى

---

(١) العروض وإيقاع الشعر العربى: محاولة لإنتاج معرفة علمية، سيد البحراوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ٨٨.

تُمثِّل –غالبا–[1] السكتة الطبيعية فى الأداء اللغوى.

ويدلــل "ديفين ستيوارت" على وجود سجع داخلى فى القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.[2] ففى الآية الأولى تتحرك الصياغة تعبيريا فى جملتين تتماثلان من زاوية أن كل جملة منهما تبدأ انطلاقها الدلالـــى مـــن نفى الفعل الوارد فيها عن ذات الخالق عز وجل، كما يتم التماثل علـــى مستوى آخر يتجلى فى انتهاء الجملتين بالنهاية الصوتية نفسها التى تربط الجملة الأولى صوتيا بالجملة التالية لها عن طريق السجع.

وينـــتقد "ســـتيوارت" إحصـــاء السجع القرآنى الذى لا يضع فى الحسبان تلـــك الســـجعات الداخلـــية، حيـــث يقـــول: "وإذا كان مثل هذا [يقصد ظهور الســـجع الداخلـــى] لا يحـــدث غالـــبا فى القرآن فإنه يكشف لنا عن أن حساب عـــدد الســـجعات فـــى القـــرآن علـــى أســـاس عدد الآيات لن يكون دقيقا".[3] ومـــع وجاهـــة هـــذا الـــرأى فإن الدراسة لا تتفق معه، فالبلاغيون كانوا أكثر حذقًـــا حيـــنما فـــرقوا بيـــن مظهـــرى الســـجع الإطـــارى مـــنهما والداخلى، فرصـــدوا عـــدة أشـــكال للســـجع الداخلـــى سواء فى حالة تماثله مع السجعة الختامـــية أو مغايـــرته لـــرويّها، فاصـــلين إيـــاه عن السجع الموجود فى ختام الآيـــات، مختصـــين كـــل شـــكل مـــن أشكاله بمصطلح يعد رمزًا لفن بديعى مستقل بذاته.

وقـــد بلـــغ اســـتخدام القـــرآن الكـــريم لهـــذا النوع من أنواع التوازنات الداخلـــية أربعـــا وخمســـين مـــرّة، بنســـبة ١,١٢% مـــن مجمـــوع الآيـــات المســـجوعة، وهـــى نســـبة محـــدودة وتـــرجع محدوديـــتها إلـــى أن السجع مشـــروط باســـتدعاء المعـــنى له فى المقام الأول. وفيما يلى نرصد تنوعات العلاقـــة بيـــن الســـجعة الختامـــية والسجعات الداخلية، إذ تتبدّى فى أكثر من نمط:

---

(١) أقـــول غالـــبا؛ لأنـــه لا وجـــود لقـــاعدة تفـــرض التزام الوقفة الدلالية فى نهاية الآية، ويؤكد ذلك الآيات المسجوعة القائمة على التضمين.

(٢) الإخلاص: ٣-٤.

(٣) السجع فى القرآن بنيته وقواعده، ديفين ستيوارت، ص ٢٥.

أولا: مجيء بعض أجزاء الآية أو كلها على سجع يماثل سجعة نهاية الآية، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾.(١) السياق في هذه الآية يشابه بين مكوناته، فيعمد إلى التسجيع الداخلي بصوت ينهي جملته النحوية بإيقاعها عند لحظة معينة فارضًا مساحة صمت قصيرة تحدد بداية الجملة النحوية التالية. ويبدو أن تماثل السجعة الختامية مع السجعة الداخلية عمليّة تصدر عن قصد، فقد أتت التركيبة اللغوية على نحو هيأ لحرف (النون) أن يستقر في نهاية الآية، وذلك عن طريق عمليّة تحريك أفقي للصياغة بالتقديم والتأخير.

وربما امتدّ السجع الداخلي ليشمل أجزاء الآية جميعها، ونرصد ذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ، وَفِيهَا تَمُوتُونَ، وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.(٢) وحركة الفكرة هنا مضمّنة في معمار صوتي مركب تركيبًا مطردًا.

ثانيا: وقد تكون بعض أجزاء الآية أو كلها منتهية بسجع يخالف السجعة الختامية، يقول الخالق عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.(٣)

وأحيانا يجتمع في آية واحدة نوعان من السجع الداخلي، أحدهما: يتماثل مع سجع فاصلة الآية، والآخر يتخالف معه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾.(٤)

أمّا عن حركة الإيقاع السجعي وعلاقتها بحركة المعنى فقد رصد البحث لها الصور الآتية:

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٦٧.

(٢) سورة الأعراف: آية ٢٥.

(٣) سورة البقرة: آية ٨٤.

(٤) سورة الأعراف: آية ١٩٥.

الصورة الأولى: وفيها يكون كل تعبير سجعى داخلى مستقلاً بمعناه، وكذلك التعبير السجعى الختامى، وتكون اللفظة التى أحدثت التسجيع كما لو كانت قفلاً للمعنى. ومن ذلك قوله جل شأنه: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ، وآتُوا الزَّكَاةَ، واركَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.[1] تنقسم الآية القرآنية إلى ثلاثة أجزاء، الأول والثانى منها مسجوعان بسجع مخالف لسجع الفاصلة. فهل للتسجيع الداخلى أدوار وظيفية تنضاف إلى دوره الإيقاعى؟ يقدّم استقراء النماذج المرصودة دليلا على أن التسجيع ينبنى داخل الآية الواحدة بطريقة خاصة، فهو أعظم تنسيقًا ومنطقيّة مما قد يكون عليه خارج النص القرآنى المعجز. ففى المثال السابق يلاحظ أن تشابه البنيات الصوتية فى الجزئين الأولين يتجاوب معه تشابه تركيبى من خلال استعمال تراكيب نحوية واحدة، حيث تنتظم كل كلمة مسجوعة مع كلمة أخرى تكون لازمة لها للتعبير عن فكرة تنتهى دلاليا بانتهاء السجعة، ثم تبدأ فكرة أخرى مستقلة أيضا، والارتباط قائم بين التماثل الصوتى والتماثل التركيبى النحوى، بحيث إذا تغيّر التركيب النحوى تغير الحرف الأخير من الكلام، ولعل هذا يفسّر لنا مخالفة السجع الداخلى للسجعة الختامية من الآية، فبينما تقع كل من الصلاة والزكاة موقع المفعولية النحوى من أفعال الأمر (أقيموا – آتوا)، نجد الجملة الأخيرة تنتهى بالجار والمجرور؛ وهكذا يوفر النص لنفسه قانونه الخاص. وفى القرآن آيات أخر تعد دليلاً على رؤية البحث، منها قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ، وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ، إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾.[2] هنا أيضا يربط السجع الداخلى بين تراكيب

---

(١) سورة البقرة: آية ٤٣.

(٢) سورة لقمان: آية ١٩.

سجعية تنتمى إلى قطاعات نحوية متماثلة، والملاحظ أن التقابل الصوتى بين حرف الكاف ممثِّلا السجعات الداخليّة وحرف الراء ممثلاً سجع فاصلة الآية -قد أتى مصاحبًا للتقابل التركيبى النحوى بين الجمل السجعيّة.

الصورة الثانية: وفيها يكون ثمّة علاقة بين التراكيب السجعيّة الداخلية، ثم يأتى التعبير السجعى الختامى مستقلاً وحده بتركيب نحوى مختلف، ونرصد ذلك فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.(١) قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ مكتمل من ناحية التركيب بيد أنه يدخل فى ارتباط جديد مع الجملة التوضيحية المكتملة تركيبيًا أيضا التالية له، والسجع فيها يقوم بغلق مؤقت للدلالة قبله إلى أن يشترك التعبير السجعى الثانى مع تعبير سجعى ثالث فى مركب بالعطف، فيه يتعلق التعبيران بفعل رئيسى هو "خلق" الموجود فى فاصلة السجعة الثانية. ولعل ارتباط التراكيب السجعية الداخلية الثلاث بعضها بالبعض الآخر هو الذى استدعى التماثل السجعى ممثلاً فى تكرار صوت "الميم" فى نهاية التركيب.

وعلى هامش الحديث عن السجعات الداخلية يلاحظ أن النص يقوم فى مرسل القرآن بعمليّة تعويض للإيقاع الغائب، فيؤسس قيمه الإيقاعية من خلال مجموعة من التلوينات الصوتية الداخلية، نرصد منها ما يحدث فى متن الآيات من سجع داخلى، كما فى قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.(٢)

ونقدم مثالا آخر للسجع الداخلى الحادث فى آيات غير مسجوعة فى الأصل. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي

(١) سورة البقرة: آية ٢١.

(٢) سورة آل عمران: آية ٢٦.

الأَرْضِ وَلاَ فِـي السَّـمَاء هُـوَ الَّـذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِـيمُ﴾.[1] فـالملاحظ أنّ الآية الأولى تسجع داخليا مع الآية التالية لها.

(٢) اتفاق الكلمتين الختاميتين فى الحرف الأخير:

وفـى إطـار رصـد الـتوازنات الصـوتية الناتجة عن علاقة المفردات داخـل الآيـة بالسـجعة الختامية –تكشفٍ للبحث خاصية إيقاعية جديدة قائمة علـى مـبدأ الـتكرار الفونـيمى أيضـا. فمن الملاحظ أن العلاقة التجاورية بيـن الداليـن الواقعيـن فـى خـتام الآية القرآنية أتت مدعومة حرفيا، وذلك مـن خـلال وقـوع الاسـتخدام الإفـرادى علـى دوال يجمـع بينها التماثل الصـوتى؛ علـى معـنى أن فونـيما أو أكـثر من آخر الفاصلة يتكرر بعينه فـى آخـر الكلمـة السـابقة علـيها، وهذا ما يمنح علاقة التجاور بين الدالين بعـدًا صـوتيا لافـتا، وقـد بلغ حضور هذا النمط فى الآيات المسجوعة ستًا وثمانيـن مـرّة تـرتفع إلـى مائة وأربع وثلاثين مرة إذا أضفنا ما وظِّف منه فى المرسل من القرآن.

ومـن أمـثلة هـذا الـنمط فـى القـرآن الكريم قوله تعالى فى معرض حديـثه عـن حالـة المـرء وقـت الاحتضار: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾.[2] لكـن الـتكرار المحـض لـيس العلاقة المعجمية الوحيدة التى تربط الكلمتين الختاميتيـن المتماثلتيـن فـى الحـرف الأخير، فمن اللافت أن هناك مجموعة مـن العلاقـات تـتردد بعيـنها علـى مـدار الشواهد المرصودة. ففى قوله تعـالى: ﴿وَمَـن يَعْمَـلْ مِـنَ الصَّـالِحَاتِ وَهُـوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْـمًا﴾[3]. بيـن (ظلمـا، وهضـما) درجـة ثانية من التكرار قائمة على شـبه الـترادف، أو تكـرار المعـنى دون اللفـظ. وقد وقف ابن الأثير عند أمـثال هـذه الشـواهد محـاولا إثـبات ما بين طرفى التكرار من فارق فى المعـنى رغـم وحدتـه بيـنهما، مؤكـدًا على أن لهذا التكرار وظيفة إضافية

---

(١) آل عمران: ٥- ٦.

(٢) القيامة: ٢٩.

(٣) طه: ١١٢.

إخبارية جديدة.[١]

وقد يجمع الاشتقاق بين اللفظتين المتماثلتين فى نهاية الآية، كما فى قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[٢]. فإن الأصوات الأخيرة للفاصلة (السين والياء والألف الناتجة عن التنوين) تتكرر مرتين فى نهاية الآية، ويرجع ذلك إلى تجاور المشتقات "نَسْيا – منسيّاً".

وفى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾[٣] تتدرج الكلمات: أمه، أبيه، صاحبته، بنيه تحت اسم يشملها. فهى نمط ثالث من التكرار، حيث تمثّل -كما يحب "جون لاينز" أن يسميها-[٤] متواصلات لتعبير "أقرب الأقربين. والملاحظ أن النص قصد أن يجمع الكلمات التى تربط بينها "المصاحبة المعجمية"[٥] فى آية واحدة.

وللمصاحبة المعجمية ظهور واضح فى غالبية الشواهد المرصودة، ففى قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[٦]، يوجد بين قدّمت وأخّرت علاقة تضاد معجمى. وفى قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[٧]، فقد أخبر النص عن الله سبحانه وتعالى "بالعلم" وأعقب ذلك بخبر جديد نظير ومناسب للأول،

---

(١) يدلى ابن الأثير برأيه فى هذا الموضوع، فيقول إن من التكرار ما "يدل على معنيين مختلفين، وهو موضع من التكرار مشكل لأنه يسبق إلى الوهم أنه تكرير يدل على معنى واحد" المثل السائر، ابن الأثير، جـ٢، ص ١٦٠.

(٢) مريم: ٢٣.

(٣) عبس: ٣٤- ٣٦.

(٤) انظر: علم الدلالة، جون لوينز، ت مجيد الماشطة وآخرين، كلية الآداب، البصرة، ١٩٨٠، ص ٨٥- ٨٦.

(٥) يعرّف أولمان المصاحبة المعجمية بأنها "الارتباط الاعتيادى لكلمة فى لغة بكلمات آخرى معيّنة" نقلا عن علم الدلالة: أحمد مختار عمر، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ص ٧٤.

(٦) الانفطار: ٥.

(٧) يوسف: ٨٣.

وهو "الحكمة".

ثانيا: الرُّخص[1] الصوتية فى السجع القرآنى:

يشتمل النص القرآنى على ترخصات لغويّة تتجلّى على المستويات: الحرفى، والإفرادى، والتركيبى، وتظهر بشكل مكثّف فى منطقة الفاصلة تحديدا، يطرح ذلك سؤالا يمكن صياغته على النحو الآتى: هل الترخص اللغوى كان فقط سبيلا إلى توازن إيقاعى سعت إلى تحقيقه لغة تعتمد على المشافهة والتلاوة وتؤثر الجرس؟

انطلاقا من هذا نشأ جدل بين فريقين؛ الفريق الأول: يشمل عددًا كبيرًا من البلاغيين والمفسرين الذين رأوا أن مخالفة بعض فواصل الآيات لنظام اللغة العربية وخروجها صوتيا أو صرفيا أو نحويا أو دلاليا -عن التقاليد النمطية لهذا النظام، يرجع بالدرجة الأولى إلى مراعاة تناسب الفواصل. وقد كانت المحافظة على المشاكلة الإيقاعية بين "رءوس الآيات" "الوجه الذى اكتفى "الفرّاء" (ت٢٠٧هـ) بترديده فى أكثر من موطن من كتابه المعروف "معانى القرآن" تفسيرًا للفاصلة تارة، وتبريرا لخروجها عن الأصل تارة ثانية، وترجيحاً لقراءتها على وجه من وجوه القراءات دون آخر تارة ثالثة.[2]

ويعتبر ابن الصائغ الحنفى من أهم القائلين بمراعاة الفاصلة وقصد النص إليها، إذ جمع فى كتابه "إحكام الرأى فى أحكام الآى" نحوًا من

---

(١) عبّرت البلاغة القديمة "بالعدول" عما يسميه "بالرخص"، وعبر عنها الأسلوبيون المحدثون بالانحراف، غير أن اختيار البلاغيين القدماء لتعبير "العدول" أدق من لفظة الانحراف التى تشمل إيحاءات إضافية لا تتناسب مع طبيعة اللغة الشعرية، ولعل أهم هذه الإيحاءات هو إيحاء "الخطأ"، هو أمر غير وارد فى تعبير العدول، أمّا بالنسبة لاختيار البحث للفظة "رخصة" فإنه راجع إلى ما تحمله هذه اللفظة من معنى ضمنى يحتم وجود سبب أو آخر وراء الخروج عن القاعدة الأصلية فى النظام اللغوى.

(٢) انظر: نظرات فى تراثنا البلاغى، حسن طبل، دار الزهراء، ١٩٩٣، ص ٨٤. انظر: معانى القرآن، الفرّاء، جـ٢، ص ١٧٦، ١٨٧. جـ٣، ص ١١٨، ص ٢٣١، ٢٣٢، ص ٢٥٦، ص ٣٦٨.

أربعين ظاهرة من الظواهر التعبيرية، وردت في أواخر آي القرآن، وتعد لونا من ألوان المخالفة والعدول عن نظام اللغة العربية، وقد ركّز على إبراز الدور الإيقاعي لتلك الرخص، والتناسب الصوتي الناتج عنها دون أن يقف إزاء آية من الآيات التي استشهد بها، وعددها سبع وستون كي يبيّن في فاصلتها وجهًا آخر سوى مراعاة المناسبة،[1] واكتفى بالإشارة إلى إمكان اضطلاع تلك الرخص بأدوار أخرى فضلا عن المناسبة؛ إذ يقول: "لا يمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة، فإن القرآن العظيم كما جاء في الأثر لا تنقضي عجائبه".[2]

وذلك الاتجاه الذي جعل الترخص في الفواصل للحفاظ على الإيقاع، قد لقي ذيوعا في التراث، واهتم به نقّاد معاصرون، رددوا في دراستهم للفاصلة القرآنية مقولات الفرّاء وابن الصايغ وغيرهم. أما الفريق الثاني فإنه يعترض على مذهب من قالوا بمراعاة الفاصلة، ومن هؤلاء "ابن قتيبة" الذي راح يزدري مذهب الفراء في القول بالترخص لتناسب الفواصل، حيث يقول: "وهذا من أعجب ما حمل عليه كتاب الله، ونحن نعوذ بالله من أن نتعسف هذا التعسُّف، ونجيز على الله -جل ثناؤه- الزيادة والنقص في الكلام لرأسِ آية"[3]. فثمة نكتة موجبة للترخُّص حاول "ابن قتيبة" أن يتابعها جاعلاً منطقة التساؤل الآتي: كيف يمكن أن تمت هذه الرخص إلى المعنى نفسه بصلة؟ "فالتناسب الشكلي بين الفواصل ليس إحدى الغايات التي تقصد لذاتها في البيان القرآني"[4] يقف دليلا على ذلك وجود مواضع خالف النص فيها المناسبة الإيقاعية بين الفواصل، يقول سبحانه وتعالى: ﴿... وما جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ

(١) أحكام ابن الصائغ قد تختصر إلى نصف ما أحصاه، ذلك أن تعامله مع وجه إعرابي واحد، ألقى بكثير من الشواهد في حيّز الترخُّص.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جـ٣، ص ٢٩٦.

(٣) تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، ت: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥، ص ٤٤٠.

(٤) نظرات في تراثنا البلاغي، حسن طبل، ص ١١٦.

﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[1] جاءت لفظة "السبيل" فى الآية مجرّدة من حرف المد فى آخرها، مع أن هذا الحرف لو زيد فيها لتناسبت هذه الفاصلة –إيقاعيًا– مع بقيّة فواصل السورة التى اختتمت إما بألف الإطلاق وإما بألف المد، ويلاحظ فى النص القرآنى –كذلك– الغياب المفاجئ للسجع كخاصيّة خالقة للتوازن الإيقاعى، والعدول عنه إلى الترسُّل باستخدام فاصلة تنفرد بإيقاع صوتى مغاير لمجموع الفواصل المسجوعة السابقة عليها أو التالية لها، وأظهر مواضع حضورها فى فواتح السور وخواتيمها، وقد تبدى ذلك فى سبع وثلاثين سورة –حسب الإحصاء.

الفواصل المنفردة في فواتح السور	الفواصل المنفردة في خواتيم السور
الآية الأولى من سورة: (البقرة)، (الأعراف)، (يونس)، (مريم)، (طه)، (الحج)، (الشعراء)، (القصص)، (العنكبوت)، (السجدة)، (الصافات)، (الشورى)، (الزخرف)، (الدخان)، (الذاريات)، (الحشر)، (الصف)، (نوح)، (الجن)، (المزمل)، (البروج).	الآية الأخيرة من سورة: (المائدة)، (الأنعام)، (مريم)، (سبأ)، (فصلت)، (الشورى)، (الجاثية)، (النجم)، (الرحمن)، (الحاقة)، (المزمل)، (الانفطار)، (الضحى)، (العلق)، (البينة)، (المسد).
٢١ سورة	١٦ سورة

ينجح النص عبر تلك الفواصل المنفردة فى كسر توقع القارئ بما يثير انتباهه ويخلق فى نفسه تساؤلا حول الأسباب التى من أجلها كان العدول من السجع إلى الترسُّل. إن العدول يخدم المعنى، ففى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[2]، استخدم النص فعل "حدِّث" من بين مجموعة من الألفاظ لها طواعية الاستبدال فيما بينها، وكان يمكنه اختيار أحد المترادفات المحققة كتناسب الفواصل، لو كان هذا هدفا ومطلبا أساسيًا فيه. ويبدو أن عدول النص عن السجع إلى الترسُّل يخدم المعنى، إذ تتضمّن لفظة "حدِّث" إيحاءات إضافية لا نجدها

(١) الأحزاب: ٤.

(٢) الضحى الآية ١١.

فى بدائلها، فهى تشمل معنى إشاعة النعمة وشكرها، كما أنها تستحضر الذات بوصفها طرفًا يمكن أن يوجه إليه الحديث فى ديالوج داخلى دائم التسجيل لنعم الله وتذكرها، وهو ما لا تؤديه كلمة "خبِّر" مثلا التى تعنى أن الخطاب موجها إلى آخر مختلف.

والواقع أن عددًا من صور الترخص المرصودة فى القرآن استند فى تسجيلها ضمن الرخص على وجه إعرابى واحد دون إشارة أو موازنة أو ترجيح بين ذلك الوجه الإعرابى الذى يأتى تأكيدًا لمبدأ الخرق اللغوى للمعايير والأصول، وبين الوجوه الإعرابية الأخرى التى ذكرها النحاة أو المفسرون فى تخريج هذه الشواهد، مع أن تلك الوجوه الإعرابية المهملة قد تكون أكثر ملاءمة لمعنى الشاهد وسياقه. ولنتأمل تلك الآيات التى جعلها "ابن الصائغ" مثالا على الترخص بإبقاء حرف المد الجازم؛ مراعاة للفاصلة. وهو يمثل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى﴾(1) وقوله تبارك اسمه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى﴾(2) ويستند "ابن الصائغ" على وجه إعرابى ضعيف، ذاهباً إلى أن "لا" فى فواصل الآيتين "ناهية"، بيد أن ذلك التخريج لا يوائم الغرض الذى سيقت من أجله الآية الكريمة. ولقد حاول "الزمخشرى" أن ينجو من الوقوع فى شباك الوجه الإعرابى الواحد، وبخاصة مع هذه الظواهر التى تثير الإشكاليات، ولكنه قدّم جملة من الاقتراحات ضاربًا الصفح عن الموازنة بينها أو ترجيح أحدها، وقد أقام تخريجه لقوله تعالى ﴿وَلا تخشى﴾ على قراءة أخرى للمعطوف عليه؛ هى "لا تَخَفْ"؛ على أنه جواب للأمر السابق "فاضرب لهم طريقًا". ولكن الإشكالية لها حضورها بغير هذه القراءة، خاصة أن المثبت فى المصحف هى القراءة بالمدّ ﴿لا تخاف﴾، ويقدّم الزمخشرى ثلاثة اقتراحات دائرة حول كون الألف فى "تخشى" أصلية أو غير أصلية:

- **الاقتراح الأول**: أن يكون الكلام قد جاء على الاستئناف، كأنه قيل،

(1) طه: ٧٧.

(2) الأعلى: ٦.

وأنت لا تخشى، أى ومن شأنك أنك آمن لا تخشى.

- الاقتراح الثانى: أن ألف الفعل قد حذفت، وتكون الألف الواردة فى "تخشى" ليست أصلية بل زائدة للإطلاق من أجل الفاصلة، كقوله تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾.(1)

- الاقتراح الثالث: أن تكون الألف هنا مثل قول الشاعر:

كأن لَمْ تَرَى قَبْلِى أسِيراً يَمَانِيَا.(2)

هكذا يتأرجح الزمخشرى بين اعتبار (لا) نافية وبين اعتبارها ناهية، دون أن يصدر رأيًا قاطعًا فى ذلك. ولكن "مكى بن أبى طالب" صاحب (مشكل إعراب القرآن) يدلى برأى مؤسس على إدراك واع للغرض الذى سيقت من أجله الآيات المذكورة من سورتى "طه" و"الأعلى"، مشيراً إلى أن القراءة الصحيحة هى رفع "تخشى" عطفًا على "تخاف"، وهو يعترض على أن تكون "لا تخشى" فى موضع جزم، وأن يكون ثبوت الألف فيها قياسًا على ثبوت الياء والواو على تقدير حذف الحركة منها لأن الألف لا تتحرك أبدًا إلا بتغيرها إلى غيرها، والواو والياء يتحركان ولا يتغيران.(3) ووضع السياق فى الاعتبار يؤكد أن الألف هنا أصلية والصيغة صيغة نفى، تشير إلى أن الخالق هو المتكفّل بحفظ آياته فى قلب نبيه الكريم. ينفى مكى بن أبى طالب -كذلك- أن تكون (لا) فى قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى﴾ ناهية، يقول: "(لا) بمعنى ليس وهو خبر وليس بنهى إذ لا يجوز أن ينهى الإنسان عن النسيان لأنه ليس باختياره".(4)

ويكشف الرصد الإحصائى للرخص الصوتيّة التى حققت لفواصل القرآن المسجوعة انسجاماً موسيقيا وتلاؤمًا معنوياً -عن نحو تسع وستين ظاهرة تعبيرية، تمثل كل ظاهرة منها لوناً من ألوان المخالفة لنظام اللغة العربية والخروج -صوتيا- عن القواعد المحفوظة لهذا النظام، وذلك من خلال عمليات لسانية كحذف صوت أو زيادة صوت

---

(1) الأحزاب: 67.

(2) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، الزمخشرى، جـ2، ص442.

(3) انظر: مشكل إعراب القرآن، مكى بن أبى طالب، جـ2، ص 470- 471.

(4) المصدر نفسه، جـ2، ص 813.

فـى آخـر دال الفاصـلة، وبـدا خلال الإحصاء أن عملية الحذف لها حضور مكـثف فـى الـرخص الصـوتية إذ تبلغ نسبتها ٨٧% من مجموع الرخص الصوتية المرصودة.

ومـن أمـثلة الحذف الصوتى، حذف ياء الاسم المنقوص فى قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾(١) فقد حذفت الياء من (المتعال)، ومنه كذلـك حذف الياء فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾(٢). ومن الزيادة، إثبات هـاء السكت في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ: هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾(٣)، ومن الزيادة أيضا، إلحاق حرف المد بعـد روى السـجع فى قوله جل شأنه: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾(٤)

تحـرك الدراسـة حـتى الآن يركـز على منطقة الثقل السجعى راصدًا الـتوازنات والـرخص الصـوتية فـى تلـك المنطقة وعلاقة السجع بالنسيج الداخلـى للآيـة ومـا يصـدر عن ذلك من توازنات صوتية إضافية تسهم فى إحـداث إيقـاع صـوتى صـاعد. غـير أن السجع واحد من البنى البلاغية الـتى قـد تحضـر علـى امـتداد الـنص، ولهذا تولدت نظرة لدى كثير من الـنقاد -قديمـا وحديـثا- تعـامل السـجع علـى أنه نوع أدبى مستقل بذاته. ولا حـرج -فـى تصـورى- علـى هـذه النظرة ما دام السجع بوصفه أداة تعبـيرية تسـتقر فـى خـتام الكلام، يتمتع بخصوصية تميّزه، إذ يقوم بتحويل الكـلام مـن النـثرية الخالصـة ليصـير نـثرًا مسـجوعًا يمكـن أن يحلل لاكتشـاف إذا كانـت له سـمات شـكليّة أم لا، وهـذا ما تحاول الدراسة فيما يلـى اسـتجلاءه مـن خـلال تحليلٍ يتحرك على مستوى البناء الشكلى للآيات التى وردت مسجوعة، متعقبا التراكيب السجعية طولاً وقصراً.

---

(١) الرعد: ٩.

(٢) الفجر: ٤.

(٣) الحاقة: ١٩-٢٠.

(٤) الأحزاب: ٦٧.

[٣] البناء الشكلى

الآن تجتهد الدراسة فى تعقب القواعد الشكلية التى تحكم السجع القرآنى. ويبادرنا هنا رأى لديفين. ستيورات الذى كتب يقول: "برغم أن السجع لا يخضع للعروض الكمى فإنه يخضع لعروض من نوع ما".(١) سعى ستيوارت إلى استخلاص قواعده من المؤلفات النقدية القديمة. وقام بتطبيق القواعد المستقاة منها على القرآن فى محاولة لتحليل بناء السجع القرآنى.

ولم يكن "ستيوارت" الوحيد فى إيمانه بإمكان اكتشاف قواعد عروضية فى السجع العربى، فهناك بعض الباحثين الذين آمنوا بالفكرة نفسها، وقاموا فى مؤلفاتهم بتدوين بعض الملاحظات المتعلقة بالتحليل العروضى للسجع، من أمثال "بلاشير" فى كتابه "تاريخ الأدب العربى"، و"بيير كرابون دى كابرونا" فى كتابه "القرآن: ينابيع الوحى الإلهى: البنية الإيقاعية فى السور المكية"، و"حاييم شينين" فى كتابه "دراسة عروضية للسجع فى المقامات القديمة"، ومحمود المسعدى فى كتابه "الإيقاع فى السجع العربى محاولة تحليل وتحديد"، ومحمد الهادى الطرابلسى فى مقال له بعنوان: "مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقسطى". ولكن ما الذى حدا بهؤلاء الدارسين إلى بحث عروض السجع العربى فاعتمدوا تارة على النص وأخرى على ما خلفته البلاغة القديمة من إشارات تتصل بالقواعد العروضية للسجع؟

[أ] الخصائص الأسلوبية لطول السجعة فى النص القرآنى:

إن البحث يبدأ، كما بدأ ابن الأثير، بقياس طول العبارة المسجوعة، حاملاً معه ما استخلصه جهد هؤلاء الدارسين المحدثين، وفى المقدمة محمود المسعدى الذى خاض محاولة استكناه إيقاع السجع العربى، وسعى لضبط أحكامه بالمقارنة مع أحكام النظم الشعرى التى حللها الخليل. وكانت دراسة الإيقاع العددى على رأس الأمور التى اهتم بها الباحث، فاتخذ من المقطع -وهو أبسط وحدة نطقية-

---

(١) السجع فى القرآن بنيته وقواعده، ديفين ستيوارت، ص ١٤.

أساسًا لحساب عدد العناصر المكونة للعبارة المسجوعة.(١) والمسعدى بذلك يخالف النظرة القديمة التى تصف طول السجعة على أساس عدد الألفاظ، وتعتقد الباحثة أنه كان على حق فى تلك المخالفة، ويمكن إرجاع ذلك للأسباب الآتية:

١- أن البنية الخطية للفظة لا تكون ثابتة الطول، وإنما يتراوح مداها فى العربية بين حرف وثمانية أو تسعة أحرف، ومن ثم قد تتساوى فقرتان فى عدد الألفاظ دون أن يصحب ذلك تساو فى المدى الزمنى الذى تستغرقه كل منهما فى النطق.

٢- إن بعض مفردات اللغة تكتب على هيئة كلمات منفصلة وهى فى الحقيقة ليست كذلك، لأنها لا تستقل بنبر خاص(٢)"فالكلمات المكونة من مقطع واحد متحرك مثل: وَ، فَ، لِ، إلى آخره. لا تتلقى ارتكازًا حال وجودها منفردة، وهى أيضا ليست قائمة بذاتها وإنما تكون مرتبطة دائما بغيرها من الكلمات. وحالما تكون مرتبطة بكلمة أخرى يجب أن تعتبر جزءاً أساسيا منها".(٣) ومن الكلمات التي لا تستقل بنبرها حرف الجر "فى" إذا كان متبوعًا بهمزة وصل فإنه لا يعد لفظًا، إذ لا ينفصل عما يعقبه. وينطبق ذلك أيضا على اللواحق؛ لأنها لا تقوم بنفسها وإنما ترتبط دائما بألفاظ. والخلاصة، أن اللفظ لا يعد معيارًا معقولاً

---

(١) إن الأساس الذى اعتمده المسعدى فى دراسة طول السجعة، هو نفسه الذى يعتمده الباحثون سابقو الذكر فيما عدا شينين الذى يتسق عمله بشكل ملحوظ مع نظام ابن الأثير. فقد قام شينين بتحليل عروضى مفصل لعدد من مقامات الحريرى والهمذانى انطلاقا من اقتناع بأن السجع يقوم على نظام عروضى أساسه الألفاظ.

(٢) أعنى بالنبر هنا الارتكاز الذى تحدث عنه م. ستانسلاس جويار، ويقوم الارتكاز على مجهود عضلى لأعضاء النطق، موجه لزيادة شدة الصوت. وهذا المجهود ينصب على المقطع الصوتى بكامله، وميزة المقطع الذى عليه الارتكاز هى أنه يكون النطق به كله بقوة، والمقطع القوى يميل إلى إطالة الحركة التى يشتمل عليها، ونقيض ذلك كل مقطع ضعيف، فالظاهر أن الارتكاز هو الذى يقرر فى الكلمات نسبة الكمية بين حركاتها؛ إذ إن المقاطع الضعيفة واقصيرة، نتيجة لضعفها، لا تبدو لنا كذلك إلا بالنسبة للمقطع القوى. انظر: نظرية جديدة فى العروض العربى، ستانيلاس جويار، ص ٢٩-٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٤.

لقياس المسافة، لكن المقطع هو الجدير بهذه الصفة؛ ذلك أن كل تلفظ بسيط يكون مقطعًا.

وقد تشعبت الآراء حول مفهوم المقطع ووظيفته، فاختلف المفهوم تبعًا لزاوية النظر التى يتم تناوله منها، سواء أكانت نظرة سمعية، أم وظيفية. ويرفض بعض العلماء تقسيم اللفظ إلى أصوات؛ لأن الأصوات فى رأيهم ليس لها وجود مستقل فى الكلام، وهؤلاء يؤكدون أن المقطع هو أصغر وحدة صوتية.

واللافت أنه لا يوجد تعريف فونولوجى عام للمقطع؛ وذلك لأن كل لغة لها نظامها المقطعى المعيّن.[1] والمقطع فى العربية يتميز بعدة سمات منها أنه يبدأ دائما بصوت صامت تعقبه حركة قصيرة أو طويلة، وربما كانت الحركة ملحقة بصامت جديد أو بصامتين. ونستطيع أن نميز فى العربية بين خمسة أنواع من المقاطع.

١- **مقطع قصير**: ويتكون من صوت صامت يعقبه صوت لين قصير، ويرمز للصوت الصامت بالرمز (ص)، والصوت اللين أو المتحرك بالرمز (ح). فيكون رمز المقطع هو (ص ح)، ويطلق عليه مقطع من النوع الأول، وأفضل عند التقطيع أن نرمز بالرمز (v) كإشارة إلى وجود مقطع له هذه الصفات.

٢- **مقطع طويل مفتوح**: ويتكون من صوت صامت يعقبه صوت لين طويل. ويرمز لهذا المقطع بالرمز (ص ح ح)، ويمثله الحرف الذى يعقبه مد مثل "فى"، ويطلق عليه مقطع من النوع الثانى، وسوف أرمز له أثناء التقطيع بالرمز $\overline{٢}$.

٣- **مقطع طويل مغلق**: ويتكون من صوت صامت تليه حركة قصيرة يعقبها صوت صامت، ويرمز له بالرمز (ص ح ص)، ويطلق عليه مقطع من النوع الثالث، ومثاله حرف الجر (مِنْ)، وسوف أرمز له أثناء التقطيع بالرمز $\overline{٣}$.

٤- **مقطع مديد مقفل بصامت**: ويتكون من صوت صامت تليه حركة طويلة يعقبها صوت صامت، ويرمز له بالرمز (ص ح ح ص). ومثاله كلمة "باب" -بتسكين الآخر- ويطلق عليه مقطع من النوع الرابع، وأعبِّر عنه أثناء التقطيع بالرمز $\overline{٤}$.

---

(١) انظر: دراسة الصوت اللغوى، أحمد مختار عمر، ص ٢٤٠- ٢٤٣.

٥- مقطع مديد مقفل بصامتين: ويتكون من صوت صامت تليه حركة قصيرة يلحقها صامتان، ويرمز له بالرمز (ص ح ص ص)، ويطلق عليه مقطع من النوع الخامس، وسوف أرمز له أثناء التقطيع بالرمز ٥̅.

ويبدو أن مفهوم المقطع لم يكن مجهولا تماما بالنسبة للقدامى، فعندما نقارن "عمل الخليل بن أحمد، والأقدمين بصفة عامة سواء من علماء العروض أو النحو أو اللغة -بعمل المحدثين من علماء الأصوات الوظيفية، يتضح أن مفهوم الأقدمين للحرف المتحرك -وهو يتركب من صامت وصائت قصير- يطابق مفهوم المحدثين لمقطع بعينه هو المقطع الأول، ويطابق أجزاء من المقاطع الأخرى... ويصح على هذا أن نعتبر نظرة الأقدمين -ومن بينهم الخليل فى عروضه- إلى الحرف المتحرك خطوة نحو تحديد المقطع فى اللغة العربية".[١]

وهذا بيان سريع بأطوال المقاطع فى العربية محسوبة بالجزء من الألف من الثانية. وكما أن المقطع الواحد يختلف طوله باختلاف طبيعة الحركة الملحقة به أهى قصيرة أم طويلة، يلاحظ كذلك أن طوله يختلف تبعا لطبيعة وصفات الصوت الصامت المركب مع الحركة، من حيث كونه مهموسًا، أو مجهورًا. انفجاريا أو احتكاكيا أو متوسطا أو مزدوجا. ومعلوم أن الصوت نفسه يتأثر مداه بمحيطه الصوتى، وبموقعه فى الكلمة، وبنغمة الكلام، وبسرعة المتكلِّم.

نوع المقطع	صفات الصوت المركب مع الحركة													
	انفجارى شديد				احتكاكى "رخو"		متوسط "مائع"							
	مجهور		مهموس				جانبى		ترددى		أنفى		شبه صامت	
	الحد الأدنى	الحد الأعلى	الحد الأدنى	الحد الأعلى	الحد الأدنى	الحد الأعلى	الحد الأدنى	الحد الأعلى	الحد الأدنى	الحد الأعلى	الحد الأدنى	الحد الأعلى	الحد الأدنى	الحد الأعلى
مقطع من النوع الأول	٠٫١٥٠	٠٫٢١٠	٠٫٢٠٠	٠٫٢٧٠	٠٫٢١٠	٠٫٣٥٠	٠٫١٦٠	٠٫٢٢٥	٠٫١٤٠	٠٫٢٠٠	٠٫١٧٠	٠٫٢٤٠	٠٫١٥٠	٠٫٢١٠
مقطع من النوع الثانى	٠٫٢٧٥	٠٫٤١٠	٠٫٣٢٥	٠٫٤٧٠	٠٫٣٣٥	٠٫٥٥٠	٠٫٢٨٥	٠٫٤٢٥	٠٫٢٦٥	٠٫٤٠٠	٠٫٢٩٥	٠٫٤٤٠	٠٫٢٧٥	٠٫٤١٠
مقطع من النوع الثالث	٠٫١٩٠	٠٫٣٢٠	٠٫٢٤٠	٠٫٣٨٠	٠٫٢٥٠	٠٫٤٦٠	٠٫٢٠٠	٠٫٣٣٥	٠٫١٨٠	٠٫٣١٠	٠٫٢١٠	٠٫٣٥٠	٠٫١٩٠	٠٫٣٢٠
مقطع من النوع الرابع	٠٫٣١٥	٠٫٥٢٠	٠٫٣٦٥	٠٫٥٨٠	٠٫٣٧٥	٠٫٦٦٠	٠٫٣٢٥	٠٫٥٣٥	٠٫٣٠٥	٠٫٥١٠	٠٫٣٣٥	٠٫٥٥٠	٠٫٣١٥	٠٫٥٢٠

(١) العروض والقافية: دراسة فى التأسيس والاستدراك، محمد العلمى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٣، ص ٦٨.

يمثل الجدولان المظللان الحد الأدنى والحد الأقصى لطول كل مقطع من المقاطع المذكورة.(١) ويمكن الاستعانة بهذا الجدول فى حساب المدى الزمنى الذى تستغرقه قراءة عبارة مسجوعة أو آية من السجع القرآنى، ذلك إذا لم يكن من المتاح للباحث استخدام أى جهاز من أجهزة التحليل الطيفى أو مرسام الذبذبات. ولكن علينا أن ننتبه إلى أن الجدول –رغبة فى الاختصار– لا يقدّم إلا الحدين: الأدنى والأقصى لاستمرارية المقطع، فالرقم ٠,١٥٠ –على سبيل المثال– يعد أدنى حد سجله صوت انفجارى فى النطق، كما أن الرقم ٠,٢١٠ يمثل أعلى حد سجله صوت آخر من الأصوات الانفجارية مضافًا إليه قيمة الحركة القصيرة. وبالتالى فعند حساب المدى الزمنى الذى يستغرقه النطق بقوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، ينبغى على الباحث أن يحدد أمرين:

١- استمرارية كل صوت من الأصوات الداخلة فى تكوين الآية، ويتوفر ذلك بالعودة إلى مراجع المؤلفين الذين اهتموا بقياس استمرارية الأصوات العربية، من أمثال "إبراهيم أنيس"، و"العانى".

٢- طبيعة القراءة، قراءة بطيئة أم متوسطة أم سريعة.

وبعد هذا الخروج عن سياق البحث، وهو خروج، لا مندوحة منه، يطلعنا على مفهوم المقطع وأنواعه بوصفه وحدة قياس يعتمد عليها فى قياس طول العبارة المسجوعة؛ نعود مرة أخرى إلى السجع القرآنى.

قام البحث بكتابة عينة مختارة من النص القرآنى كتابة صوتية وفق نطقه؛ بهدف حساب جملة ما تتركب منه الآية القرآنية المسجوعة من مقاطع؛ حتى يتمكن البحث من تعقب نظام البناء الشكلى للتراكيب السجعية طولا وقصرًا. وكأى منهج اعتبارى فإن النظام لا يتجلى بكامل وضوحه عند القراءة العادية ولا حتى من خلال التلاوة، بل من خلال قراءة خاصة تجلو قوانين توزيع المقاطع، نعنى من خلال ما يسمى بالتقطيع، وقد روعى فيه القاعدة البلاغية القديمة التى تقول بأن مبنى السجع على الوقف.

وكان لابد لهذه الدراسة من اختيار عينات جيدة التمثيل، فوقع الاختيار على

---

(١) انظر: دراسة الصوت اللغوى، أحمد مختار عمر، ص ٣١٣، وانظر: التشكيل الصوتى فى اللغة العربية، سلمان العانى، ص ٧٥، ٧٧.

عشرة أجزاء من النص القرآنى هى: الجزء الأول، والجزء الثانى، والجزء الرابع، والجزء السادس، والجزء الثامن، والجزء العاشر، والجزء الثانى عشر، والجزء الرابع عشر، والجزء الثامن والعشرون، والجزء الثلاثون. ويتوافر فى العينة المختارة شرطان:

أ- أنها تتضمن جملة من السور المدنية والسور المكية بنسب قريبة من نسبة وجودهما فى القرآن وهى ٦: ١، فعدد السور المكية فيها هو ثلاث وأربعون سورة، وعدد المدنية ثلاث عشرة سورة.

ب- أنها تحتوى على قصار السور، وطوالها، وكذلك على السور المتوسطة الطول.

ويلخص الجدول الآتى ما انتهى البحث إليه من نتائج.

الأجزاء	الفئة الأولى ٢-١٠	الفئة الثانية ١١-٢٠	الفئة الثالثة ٢١-٣٠	الفئة الرابعة ٣١-٤٠	الفئة الخامسة ٤١-٥٠	الفئة السادسة ٥١-٦٠	الفئة السابعة ٦١-٧٠	الفئة الثامنة ٧١-٨٠	الفئة التاسعة ٨١-٩٠	الفئة العاشرة ٩١-١٠٠	الفئة الحادية عشر ١٠١-١١٠	الفئة الثانية عشر ١١١-١٢٠	الفئة الثالثة عشر ١٢١-١٣٠	الفئة الرابعة عشر ١٣١-١٤٠	الفئة الخامسة عشر ١٤١-١٥٠	الفئة السادسة عشر ١٥١-١٦٠	الفئة السابعة عشر ١٦١-١٧٠	الفئة الثامنة عشر ١٧١-١٨٠	الفئة التاسعة عشر ١٨١-١٩٠	الفئة العشرون ١٩١-٢٠٠	الفئة الواحدة والعشرون ٢٠١-٢١٠	المجموع
	عدد المقاطع فى الآية																					
الجزء الأول	١	٧	٢٣	٣٤	٢٠	١٢	١١	٧	٤	٣	١	–	–	–	١	–	١	–	٢	–	١	
الجزء الثانى	–	٣	١٢	١٤	١٣	٥	١	٦	٧	–	–	–	٤	–	–	١	١	–	٣	–	–	
الجزء الرابع	–	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٢	٢	–	–	–	–	–	–	١	١	–	١	
الجزء السادس	–	–	١٠	١٦	٩	٦	٧	٦	٤	٢	١	١	–	١	١	–	–	–	–	–	–	
الجزء الثامن	١	٧	٢٨	٢٦	٢١	١١	١٣	٨	٧	٨	١	١	–	–	–	–	–	–	–	–	–	
الجزء العاشر	–	١	١٤	٢٠	١٨	١٦	١٤	٤	٥	١	٢	١	١	–	–	–	–	–	–	–	–	
الجزء الثانى عشر	١	٩	٢٦	٢٩	٣٢	١٥	٧	٥	٢	١	١	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	
الجزء الرابع عشر	٥	٦٩	٣٨	٣١	٢٠	١٠	٩	٤	١	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	
الجزء الثامن والعشرون	–	٣	١٦	٢٤	١٢	١٥	٧	٥	٣	١	١	١	١	–	١	–	–	–	–	–	–	
الجزء الثلاثون	٢٧٧	١٥٠	١٠٥	٣	٣	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	
المجموع=	٢٨٥	٢٥٦	١٩٥	٢١٤	١٦١	٩٧	٨١	٤٧	٣٣	١٨	٩	٤	٦	١	٣	١	٢	١	٦	–	٢	١٤٢٢

هذا هو الإحصاء الذى أسفر عنه تقطيع السجع القرآنى فى الأجزاء العشرة المذكورة سابقا. وقد اقتضى تفاوت أطوال الآيات أن نقوم بتقسيم الأطوال إلى فئات، فهناك فئة الآيات المتكوّنة من مقطعين[١] حتى عشرة مقاطع، وفئة الآيات المتكوّنة من أحد عشر حتى عشرين مقطعًا، وأخرى من واحد وعشرين إلى ثلاثين مقطعًا... وهكذا. وكان الحاصل فى النهاية وجود إحدى وعشرين فئة هى التى تتدرج داخلها أطوال الآيات فى القرآن الكريم. ولنبحث الآن فيما عسى أن يشير إليه هذا الإحصاء، وما قد يدل عليه من دلالات.

وعند النظر إلى المجموع الكلى للإحصاء مقارنة بإحصاء الأجزاء، فسنجد أن المجموع الكلى غير صادق التمثيل لنتيجة كل جزء على حدة، مما يفرض –طلبًا للدقة– أن تتتابع عملية الاستقراء فى دوائر متتالية، فلدينا فى هذا الإحصاء متسع نسير فيه ونحن نحمل فى أنفسنا شيئًا من الثقة بأن نتائج مهمة قد تلحظ وتسجل.

أولا: استقراء النتيجة الكلية للإحصاء

يبلغ كم الآيات المسجوعة التى تم تقطيعها ورصد عدد مقاطعها المكونة ١٤٢٢ آية، ولو تصورنا فرضا أن هذا العدد يتوزع بالتساوى بين مختلف فئات الأطوال، أى لو قسمنا ١٤٢٢ آية على ٢١ فئة لكان المعدّل فى كل فئة هو ٦٨ آية تقريبا، ولكن ذلك الفرض لم يتحقق، فالملاحظ أن هناك تفاوتًا كبيرًا فى توزيع الآيات على فئات الأطوال. ويمكن الاستفادة من المعدّل السابق فى كشف المفاصل الأساسية التى حدثت فى الخط البيانى للأرقام، فبناءً عليه يتبين وجود نقطة فاصلة بين الفئات السبع الأولى وبقية الفئات، وهذه النقطة تقسم الخط البيانى للأرقام إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: مجموعة الآيات المتكوّنة من مقطعين إلى سبعين

(١) نلاحظ غياب الآيات المسجوعة من مقطع واحد، وكنت أفترض أنه سيقابلنا فى الآيات المكوّنة من حروف مقطعة، ولكن الإحصاء أثبت عكس ذلك.

مقطعًا وجملتها ١٢٨٩ آية بنسبة تبلغ ٩٠,٦٥% من مجموع الآيات المقطَّعة مقطعيًا، أى أنها تتفوّق على جملة المجموعة الثانية تفوّقا ملحوظًا. وبإمعان النظر فى تفاصيل أعداد هذه المجموعة يتجلى لنا أنها تحتوى على آيات توالت أعدادها على الترتيب الآتى: ٢٨٥-٢٥٦-١٩٥-٢١٤-١٦١-٩٧-٨١ آية، ونلاحظ هنا أن الخط البيانى لهذه الأرقام يتدرّج بشكل تنازلى تقريبًا، توجد عند قمته الفئة الأولى وهى تمثل الآيات المركبة من مقطعين إلى عشرة مقاطع، تليها الفئة الثانية المتكوّنة من أحد عشر إلى عشرين مقطعًا.

المجموعة الثانية تشمل: مجموعة الآيات المتكونة من عدد من المقاطع يفوق السبعين، وجملتها ١٣٣ آية بنسبة تبلغ ٩,٣٥% من مجموع الآيات المحصاة. والملاحظ أن الخط البيانى للأرقام ينخفض فى هذه المجموعة بشكل ملحوظ يبدأ تدريجيا ثم يصير حادًا، على النحو الآتى، ٤٧-٣٣-١٨-٩-٤-٦-١-٣-٢-١-٦-٠-٢ مقطعًا.

ولكن، ما الذى نستنتجه عن طول السجعة فى النص القرآنى؟ إن ما يزيد على ٩٠% من فقرات السجع القرآنى هو فقرات قصيرة ومتوسطة الطول، واللافت أن أكثر من ثلاث أرباع تلك الفقرات جاءت متكونة من مقطعين إلى خمسين مقطعًا. هذه النسب كما أنها تبرز ميل النص على المستوى الشكلى إلى العبارات القصيرة والمتوسطة، فإنها تفتح باب نقاش جديد مع محمود المسعدى فى كتابه "الإيقاع فى السجع العربى". فقد اشترط المسعدى إدخال العامل الفيزيولوجى فى دراسة المدى الأمثل لفقرات السجع، فإن مقياس اعتدال طول العبارة المسجوعة -عنده- هو مطابقة مداها المدى الذى تستغرقه عمليّة التنفس العادية. ولا تتجاوز هذه العملية -فى اعتقاده- حدود اثنى عشر مقطعًا،[1] وتحديد المسعدى لهذا المقدار بالذات أتى نتيجة تأمل فى كل من الشعر الفرنسى الذى لا يتجاوز بيت الشعر منه فى أقصى حدوده اثنى عشر مقطعا، والشعر العربى الذى يوجد من بين بحوره عشرة بحور يحتوى المصراع فيها

(١) انظر: الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد ، محمود المسعدى، ص٢٣، ٢٤.

علـــى اثـــنى عشـــر مقطعًــا أيضـــا. ومن ثم خرج محمود المسعدى بنتيجة عامـــة، وهـــى أن كـــل إيقـــاعٍ صوتى يخضع تمام الخضوع لمقتضيات معينة وقـــانون فـــيزيولوجى صـــارم هـــو قانون النفَس، وأن السجع يخضع لقانون الـــنفس خضـــوع بيـــت الشـــعر له؛ ومـــرجع ذلك كونه ليس نثرًا عاديًا وإنما نثر موقّع.

ويذهـــب المســـعدى فـــيما ذهـــب إلـــى أن البلاغيـــين والنقاد القدامى لم يفطـــنوا إلـــى علاقـــة الكـــلام بعملـــية التـــنفس، ولهذا بقيت تقديراتهم لطول الســـجعة غـــير ذات دعامـــة صـــوتية. كمـــا يؤكد أنه لم يسبق أن أشار أى كـــتاب مـــن كتـــب الـــبلاغة والأدب إلى وجود مثل هذا القانون. والبحث لا يـــتفق معـــه فـــيما ذهـــب إلـــيه من أنه لا توجد أية إشارات فى كتب البلاغة والأدب تبصّـــر بمعـــرفة البلاغيـــين العـــرب لقانون النفَس وعلاقة الكلام به. فـــأبو إســـحق الصـــابى (ت٣٨٤هـــ- ٩٩٤م) قد انتبه إلى هذا القانون قبل المسعدى بحوالى عشرة قرون تقريبًا، وإن لم يطبقه على النثر.[١]

فيـــبدو أن التفكـــير فـــى قـــانون الـــنفس وعلاقة الكلام الموقّع به، بدأ مع تألـــيف العـــرب لـــبحور الشـــعر، ومع استعمالهم لهذه البحور. وقد أورد ابن الأثـــير كلامًـــا لأبـــى إســـحق الصـــابى ربط فيه بين النفس ومدى البيت فى الشـــعر، قـــال: "[قـــال الصـــابى]... ولســـائل أن يسأل فيقول: من أية وجهة صـــار الأحســـن فـــى معـــنى الشعر الغموض، وفى معانى الترسّل الوضوح؛ فـــالجواب: أن الشـــعر بـــنى علـــى حـــدود مقررة، وأوزان مقدّرة، وفصلت أبـــياته؛ فكـــان كـــل بيـــت مـــنها قائمًا بذاته، وغير محتاج إلى غيره، إلا ما جـــاء علـــى وجـــه التضـــمين، وهو عيب، **فلما كان النَّفَسُ لا يمتد فى البيت الواحـــد بأكـــثر مـــن مقـــدار عروضه وضربه، وكلاهما قليل**؛ احتيج إلى أن يكـــون الفصـــل فـــى المعـــنى، فاعـــتمد أن يلطف ويدق، والترسّل مبنى على مخالفـــة هـــذه الطـــريقة؛ إذ كان كلاماً واحدا لا يتجزأ ولا يتفصل إلا فصولا طـــوالا، وهـــو موضـــوع وضـــع مـــا يهذهذ أو يمر به على أسماع شتى من خاصـــة ورعـــية، وذوى أفهـــام ذكـــية وأفهـــام غبية؛ فإذا كان متسلسلا ساغ فـــيها وقـــرب، فجمـــيع مـــا يســـتحب فـــى الأول ويكره فى الثانى، حتى إن

---

(١) انظر: المثل السائر، ابن الأثير، جـ٢، ص ٣٩٣ وما بعدها.

التضمين عيب فى الشعر، وهو فضيلة فى الترسّل".(١)

كان الصابى يدرك أن النَّفَس يفرض قانونه على الكلام الموقّع، ومن ثم أشار إلى خضوع بيت الشعر العربى لذلك القانون، سابقًا محمود المسعدى إلى القول بمبدأ النفس باعتباره مقياسا للطول المعتدل للكلام، لكن تظل هناك حقيقة واضحة، هى أن مفهوم النفس ومداه ليس واحدًا عند كليهما؛ فالمسعدى يتحدث عن تحكم الظاهرة الطبيعية للنفس فى الطول الأمثل للعبارة السجعية، يتحدث عن سلسلة من المقاطع تنطق مع زفرة نفس عادى واحدة، ويطلق علم الأصوات الحديث على هذه السلسلة لقب "مجموعة نفسيّة". أما الصابى فإنه لا يتوقف عند مدى النفس العادى وإنما يتحدث عن أعلى حد ممكن لامتداد النفس، بحيث يشكل الكلام فى النهاية جملة نفسية واحدة. وهذا الحد لا يتجاوز –فى اعتقاده– مقدار النطق ببيت كامل من الشعر.(٢)

وبغض النظر عما إذا كان المرء مستعدًا لأن يتفق كليا مع الصابى

---

(١) المرجع نفسه، جـ٢، ص ٣٩٣.

(٢) يحدد مرسام الذبذبات بالنسبة لبيت من البسيط عند أبى تمام، مكوّن من ثمانية وعشرين مقطعاً، مدّة ٩٠٠ جزء من المائة، أى تسع ثوان، فى أداء متوسط السرعة. انظر: الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ص ٢٧٣- ٢٧٤. وانظر: ديوان أبى تمام: رقم ٣: ١، ص ٤٠. وإذ قورن الحد الأقصى للنفس بحده الأدنى، أى إذا قورن المدى الزمنى لبيت من الشعر العربى بالمدى الذى يستغرقه نطق مجموعة نفسية واحدة، مكوّنة كما يحدد علم الأصوات من اثنى عشر مقطعًا على أقصى تقدير، وهو نفس عدد المقاطع الذى يتكون منه بيت الشعر الفرنسى، يتكشّف أن بيت الشعر العربى يكون مساويا تقريبا لمجموعتين أو ثلاث مجموعات نفسية، ولنسجل هنا بعض الأرقام التى وفرها جمال الدين بن الشيخ حول مدى نطق بيت الشعر الفرنسى –١٢ مقطعا– فإن معدل البيت فى جزء Puy Blas يبلغ ثانيتين واثنتين وخمسين لحظة، وهو فى مونولوج هيرميون من مسرحية أندرو ماك الشعرية لا يتجاوز ثانيتين وثالثا وسبعين لحظة. راجع: الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ص ٢٧٣- ٢٧٤.

أو مع المسعدى، فإن علاقة نظرتيهما بمتطلبات النصوص الموقّعة أو التى تريد أن تنال قدرًا من الإيقاع تظل واضحة.

وإذا كان للبحث أن يرجح إحدى النظرتين على الأخرى، فإنه يرجح ما ذهب إليه الصابى؛ ذلك إنه نظر إلى البيت الشعرى باعتباره أقصى حد يمكن الوقوف عليه وقوفا مستريحًا من جهة النفس، والعرب لا تقف على شطر البيت إلا إذا كان مصرّعًا، ربما لأنهم أدركوا أن الوقوف عليه يفرض فى بعض الأحيان مواضع سكت لا تتفق مع المعنى أو التركيب النحوى. وإذا سلمنا بارتباط مدى البيت الشعرى بعملية التنفس، فإنه يمكن وضع حد أقصى لعدد المقاطع التى سيحدث بعدها إجهاد للنفس. مع ضرورة التنبّه لعدّة أمور:

[١] أن المقاطع عندما تأخذ مواضعها فى نموذج تؤلفه مجتمعة فإن عدد المقاطع الذى يتم بعده إرهاق النفس سيزيد وينقص تبعًا لنوعية المقاطع المكوّنة للجملة، ولطريقة تتابعها.

[٢] أن طول الجملة التنفسية يتنوّع بحسب الأفراد؛ ولذلك كان من بين أهداف علم التلاوة والتجويد، تعلم القرّاء التنفس السليم الذى يتيح لهم أن يزامنوا الوقفة التنفسية مع الوقفة الطبيعية التى يفرضها مضمون الآية.

[٣] أن طول الجملة التنفسية يختلف بحسب صفات النص المنطوق، فتأليف المقاطع فى الشعر يبنى على أساس من نظام منضبط تتخذ فيه الصوامت والحركات مواضعها الأكيدة، على عكس المقاطع فى النثر؛ فإن تأليفها لا يخضع فى الغالب لنظام. ومن هنا تفرض صفات النص المنطوق شروطها على عدد المقاطع التى يمكن نطقها أثناء عملية التنفس. فالنظام الذى يبنى عليه بيت الشعر يسهم فى وصول النفس محطته الأخيرة بعد عدد من المقاطع قد يكون أقل من عدد المقاطع التى تنطق فى نفس المدى الزمنى ولكن فى نص آخر لا يقوم على نظام مطّرد كالنص المنثور أو المسجوع. فتبعا لبحور الشعر نجد أن أقصى تقدير لبيت من الشعر العربى هو ثلاثون مقطعًا بما يساوى تقريبًا تسع ثوان وفقا للإحصاءات التى سجلها جمال الدين بن الشيخ.(١) وقد لوحظ

(١) انظر: الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ص ٢٧٣ وما بعدها.

أن قولـه تعـالى: ﴿وَإِذْ يَـرْفَعُ إِبْرَاهِـيمُ الْقَوَاعِـدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَـبَّلْ مِـنَّا إِنَّـكَ أَنـتَ السَّـمِيعُ الْعَلِـيمُ﴾[1] (٤٠ مقطعًا) يسجل -بالاستعانة بـالجدول الزمـنى للمقـاطع- زمـنًا بلـغ مقـداره تسع ثوان وستًا وثلاثين لحظـة. وبـناءً علـيه يمكن وضع تقدير تقريبى للحد الأقصى لعدد المقاطع الـتى يمكـن أن تـنطق مـع امتداد جملة نفسية واحدة، وهو وفقا للملاحظات كم لن يتجاوز الأربعين مقطعًا، أى ثلاث مجموعات نفسية.

علـى أن هـذا الـذى يستخلصـه كل من الصابى والمسعدى فيما يتصل بنصـوص بشـرية موقعـة كالشـعر والمقامات العربية المسجوعة لا ينطبق علـى نـص القـرآن الكـريم، فـلا عـبرة بمبدأ النفس فى تحديد طول الآية القرآنـية الـتى قـد تقصـر بحيـث تكـون كلمـة واحـدة، أو تطول طولا ملحوظـاً. والـنص القـرآنى إنمـا يقـوم على إعمال قانون آخر هو قانون الوقـف يـنال بـه اعـتدال المسافة المنطوقة حيث يتم بناء عليه تقسيم الآيات الطـوال داخلـيا. وقـانون القـرآن فـى الوقف لا يرتبط بمسألة النَّفَس "وإن كـان لا شـىء مـن انقطـاع الـنفس إلا ومعه الوقف"[2]، فالمعتمد فى علم القـراءات أن الوقـف يخـتلف بحسـب أمريـن: بحسـب الكلام نفسه؛ إذ قد يخـتلف الوقـف باخـتلاف الإعـراب، أو المعنى، وقد يقف لبيان المراد وإن لـم يـتم الكـلام. وينقسـم الوقـف تأسسا على ذلك إلى خمسة أصناف هى الأتـم والـتام والـذى يشـبه الـتام، والـناقص المطلـق والأنقص، ويختلف الوقـف كذلـك بحسـب المتكلم أو القارئ، أى بحسب انقطاع النفس.[3] ومن خـلال قـانون الوقـف القـرآنى يحقـق الـنص لنفسـه قاعدة الاعتدال فى الطول.

وبـرغم مـا نؤكـده مـن اختلاف قانون القرآن فى تشكيله المسافى، فإن الـنظر الإحصـائى أن ٦٦,٨٠% مـن آيـات السـجع القـرآنى هى فقرات متوسـطة الطـول لا يـتجاوز طولهـا ثلاث مجموعات نفسية. ويؤكد النظر فـى كـل جـزء علـى حـدة غلبة الفقرات السجعية المتوسطة الطول، فتبلغ

---

(١) سورة البقرة: ١٢٧.

(٢) انظر: الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ص ٢٧٣ وما بعدها.

(٣) للمزيد راجع: البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، جـ١، ص ٣٦٧.

نسبة الآيات المتوسطة الطول في الجزء الأول ٦٥,٦٢% من مجموع الآيات المسجوعة في الجزء، وتبلغ في الجزء الثاني ٦٠%، وفي الرابع ٦٤,١٠% وفي السادس ٥٤,٦٣% وفي الثامن ٦٢,١٢%، وفي العاشر ٥٤,٦٣% وترتفع النسبة في الجزء الثاني عشر إلى ٧٥% وفي الجزء الرابع عشر إلى ٨٤,٤٩%، ثم تعود إلى نسبتها القارة في الجزء الثامن والعشرين ٦١,١١%، وتنخفض إلى ٣٨,١٧% في الجزء الثلاثين.

وعندما نقارن بين أطوال السور وأطوال الآيات التي يحتوي عليها كل من الجزء الثاني عشر والجزء الرابع عشر اللذان سجلا ارتفاعا ملحوظًا في نسبة الآيات متوسطة الطول، يلاحظ التناسق بين طول الآية وطول السورة، فجميعها سور متوسطة الطول وأغلبها سور مكية تتميز ببنائها على الفقرات القصيرة والمتوسطة. وفي الجزء الثلاثين كانت الآيات أميل إلى القصر فطولها يتراوح بين مقطعين وعشرة مقاطع. ويلاحظ أن الإحصاء يرجع إلى معدّله القار مع آيات الجزء الثامن والعشرين المشتمل على سور مدنية.

والظاهر أن النص القرآني كان حريصا على أن يأتي مناسباً لطبيعة المخاطبين، فالسور المكية تناسب تماما طبيعة المكيين -فقد كانوا جبابرة تسود بينهم المنكرات والعادات السيئة، وذلك كله يقتضي خطابهم بلغة سريعة آخذة، غير مسترسلة، وقول حاد، حاسم. يعد ويوعد، تقصر معه الجمل ويبرز التجانس الصوتي وتعلو الموسيقى. إن هذه السمات الصوتية لا تنفك أبدًا عن حرارة التعبير التي يبرزها على المستوى الأسلوبي كل من أسلوب القسم والاستفهام الإنكاري والتحذير والوعيد وضرب الأمثال للأفهام، وهي أساليب ظاهرة في السور المكية.

أما الخطاب اللغوي في السورة المدنية، فقد كان مسترسلاً مناسباً لطبيعة المسلمين، ينزع إلى التفصيل والتوضيح، ويتناسب ذلك مع التعاليم الدينية ووضع التشريعات وشرح حدود العقيدة الإسلامية.[1]

---

(١) انظر: من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، محمد السيد سليمان العبد، ص ٨٨.

وإن حرص النص القرآنى على أن يأتى الخطاب المسجوع مناسبًا لطول السورة من جهة، ولطبيعة المخاطبين من جهة أخرى لهو أحد مظاهر الإعجاز اللغوى فى القرآن الكريم.

وقد كشف تتبع طول السجعة فى القرآن عن أمور مهمة:

أ- أن القرّاء حافظوا -اعتماداً على قانون الوقف القرآنى- على تقسيم الآيات الطوال تارة وفقا لما يقتضيه المعنى، وأخرى تلبية لما يطلبه النفس من راحة. ويدلنا على ذلك علامات الوقف التى نشاهدها فى المصحف.

ب- أن السجع القرآنى كان مغايرًا من حيث طول فقراته لنظام السجع العربى، ولم نشاهد تطابق النظامين سوى فى الجزء الثلاثين فقط، ويكفى أن نقارن بين أطوال الآيات فى ذلك الجزء، وبين الإحصاء التحليلى الذى قام به المسعدى على فقرات من سجع الحريرى.

(١) إحصاء بأطوال الفقرات فى مقامات الحريرى[1]

عدد المقاطع	كل قسم من الجدول فيه عدد الأجزاء المتكونة من مقطع أو مقطعين أو ثلاثة أو أربعة...إلخ																				المجموع
	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	
	—	٧	٧	١٤	٣٤	٨٠	١٣١	١٣٢	١٢١	١٦٣	١٣٦	١٠٥	١٠١	٨٥	٦٠	٣٦	٢٥	١٨	١٦	٧	١٢٩٠
مجموع الفقرات	٦٢		%٤,٨٠		١٠٥٤					%٨١,٧١					١٧٤		%١٣,٤٩				

(٢) إحصاء بأطوال الآيات فى الجزء الثلاثين

عدد المقاطع	كل قسم من الجدول فيه عدد الآيات المتكونة من مقطع أو مقطعين أو ثلاثة ...إلخ																				
	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
مجموع الآيات	—	٢	١	٤	٩	٢٢	٥٥	٧٢	٦٦	٤٦	٤٧	٣٩	١٧	١٩	٨	٨	٨	١	٣	—	٣
	١٦		%٣,٥٧			٣٨٣					%٨٥,٤٩			٤٩							

عدد المقاطع	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠	٤١	٤٢
مجموع الآيات	—	١	٢	٢	١	٢	٣	١	—	—	—	—	١	١	—	—	—	١	—	—	٢
			%١٠,٩٣																		

(١) الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد محمود المسعدى، ص ٢٧.

نتبين فى الجدول الثانى الخاص بالجزء الثلاثين من القرآن الكريم تقسيمًا ثلاثياً شبيها بتقسيم الجدول الأول الذى يرصد أطوال الفقرات فى مقامات الحريرى، فالحد الفاصل بين المجوعة الأولى والمجموعة الثانية فى هذا جدول القرآن يوافق الحد الفاصل بينهما فى جدول الحريرى، إذ يتبدى لنا بعد الفقرات المتكوّنة من خمسة مقاطع. كما أن الحد الفاصل بين المجموعتين الثانية والثالثة متماثل كذلك، فهو يظهر بعد الفقرات المتكوّنة من أربعة عشر مقطعًا.

وإذا دققنا النظر فى الجدول الخاص بالأطوال فى النص القرآنى لاحظنا حضور آيات متكوّنة من مقطعين ولهذا الحضور ما يبرره، حيث يتناسب مع الإيقاع السريع، ومع تعليق الإيقاع فى الآيات التى تبدأ بالقسم.

وتقترب نسبة المجموعة الثانية فى كلا الجدولين بشكل ملحوظ فهى عند الحريرى تبلغ ٨١,٧١% وفى النص القرآنى تبلغ ٨٥,٤٩%، ولكن الاختلاف يبدو عند قمة الخط البيانى للإيقاع العددى فى كلا النصين إذ إن الإيقاع العددى يبلغ قمته عند الحريرى فى مستوى الفقرات المتكوّنة من عشرة مقاطع، بينما يبلغ قمته فى النص القرآنى عند الآيات المتكونة من ثمانية مقاطع. والظاهر أن آيات الجزء الثلاثين تخضع لقانون النَّفَس، فأغلبها لا يتجاوز مدى مجموعة نفسية واحدة، وحرص النص القرآنى فى هذا الجزء على اعتدال طول النَّفَس بدا واضحًا من خلال تفوق جملة المجموعة الثانية التى اشتملت على آيات متكونة من ستة مقاطع وأربعة عشر مقطعًا، وهو قدر يتفق ومطمح النص فى هذا الجزء إلى نيل قدر أكبر من الإيقاع السريع المتلاحق. ولعل كُتّاب المقامات قد حاولوا أن يصيغوا على منواله، فتلمسوا طريقا لذلك وجدوه ماثلا فى المدخل الشكلى.

[٢]البناء الشكلى للوحدة السجعيّة القرآنية:

والآن ينتقل البحث من ملاحظة السجعة المفردة إلى النظر فى البناء الشكلى للوحدة السجعية القرآنية. فعند تأمل أىٍّ من السور القرآنية -بالعين أو الأذن لا فرق؛ لكون البصرى لا ينفصل عن الشفوى كما يقول "هنرى ميشونيك"(١)-

(١) نقلا عن الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتى، محمد الماكرى، ص ٢٠٣.
Critique rythme, Henri Meschonic.

يُلاحظ أن النص القرآنى يتصرّف فى تنسيق التراكيب السجعية طولا وقصرًا بكيفيات مختلفة، فتارة تكون المسافات التعبيرية متوازنة نتيجة تماثل القرائن فى الكم المقطعى. وتارة تتفاوت المسافات بأن تأتى سجعة قصيرة تتبعها سجعة طويلة، والعكس بالعكس صحيح.

ومن الأسئلة التى تطرح نفسها على البحث: هل هناك قيمة فنيّة للتشكيل المتنوّع للمسافات؟ وهل ينهض هذا التشكيل بوظيفة فى النص القرآنى؟ إن أسئلة كهذه لا يُجاب عليها إلا بتفحُّص النص نفسه فليس ثم ما هو أصلح منه للحكم. ولكن قبل القيام بذلك يحسُن أن نمعن التفكير فى أمر أظنه خليقاً بأن يلقى بعض الضوء على مدخل الإجابة. فالمرء حين ينظر إلى تشكلات المسافة فى الحديث الدارج تطرأ على ذهنه أسئلة من مثل: هل يكون المتكلِّم على وعى بالتشكيل المسافى لجمله وعباراته؟ وهل يقصد من ورائها إلى تحقيق غايات دلالية أو جمالية؟ الحقيقة أن مجىء التشكيل المسافى على هذه الهيئة أو تلك يئول فى الأصل إلى عملية ذهنية خالصة؛ إذ يكون تابعًا لحركة المعنى، بيد أن المتكلم العادى لا يشغل نفسه مطلقًا بذلك التشكيل، ولا يهتم بتوازن المسافات أو اهتزازها، ولا يقصد من مسافة التعبير أن تنهض بوظيفة فى الدلالة. ومن هنا يتجسّد المبدأ الذى ينبغى الاعتداد به حينما نقول إن هذا العنصر أو ذاك من عناصر النص يعد ذا قيمة، فيبدو أن القطع بذلك لا يمكن أن يتم إلا إذا وجد فى النص ما يشير إلى وعى وتخطيط مسبق. فحيثما رصدنا فى التشكيل المسافى للسجع القرآنى ما يشير إلى قصد وتخطيط، ووجدنا فيه ما يشير إلى وعى بالقيمة الإيحائية للقالب الشكلى الموظّف، عندئذ يصبح الحديث عن قيمة فنية لهندسة المسافات فى القرآن الكريم أمرًا مشروعًا.

- هندسة التشكيل المسافى فى سورة الضحى:

واعتمادًا على المبدأ السابق –مبدأ هندسة التشكيل المسافي بين الجمل– نقف لتأمُّل قوله تعالى من سورة الضحى: ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى، وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى. فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا

تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.(١)

فالسورة -كما تبدو- تحظى بشحنة إيقاعية تعلو على ما يمكن أن يمنحه التسجيع بمفرده. فأين نجد فيها مصدر تلك الشحنة الإضافية ومنبعها؟ وإن لم تكن نتيجة لفعل التسجيع وحده فنتيجة لأى فعل إذن؟

الحقيقة أن هذه السورة تنطوى على ظواهر لها طبيعة تراكميّة أسهمت فى شحن النص صوتيا. فعند إنعام النظر فيها، والقيام بترديدها، مرة وفقا لتجزيئها إلى آيات، وأخرى وفقا لالتحام الآيات وتعايشها فى جسد نص واحد -تتكشّف بنياتها الإيقاعية الواحدة تلو الأخرى. وأولى البنى التى تتكشّف لنا بنية التكرار، إذ ترددت ثلاث مرات على مدار النص. فاجتمع التماثل الحرفى والدلالى على صعيد واحد فى تكرار كلمة "ما"، والملاحظ، أن النص كان حريصا على تكييف حركة التكرار وفقا لهدف تسجيل القيم الإيقاعية، فجمع إلى التماثل الحرفى الدلالى التناسق الشكلى الذى يكثّف من إيقاعيّة البنية؛ فالتعبير "وجدك" والدال "أما" يتكرران ثلاث مرات فى وحدات سجعية ثلاثية الأطراف أيضًا، ويحققان علاوة على المماثلة انسجاماً فى البعد المكانى؛ إذ يُمثّل كل منهما مفتتحاً لفقرات متوازنة صياغيًا. ويُمثّل التكرار الحرفى ظاهرة أخرى من ظواهر الإيقاع، حيث تكررت الكاف تسع مرات على مدار السورة الكريمة.

ويرصد البحث بالإضافة إلى بنية التكرار بنية أخرى ظهرت فى منطقة التسجيع على وجه الخصوص، تقدّم نوعًا من الإيقاع الصرفى من خلال الجمع بين دالين أو أكثر على صعيد الوزن. وظهور الدوال المتوافقة فى الوزن الصرفى فى الموضع نفسه -وهو منطقة الفاصلة- قد مكّن لإنتاج الأثر الإيقاعى.

وتتصاعد الحدّة الإيقاعية مرة ثالثة وذلك من خلال التناظر التركيبى الذى يُبرزه التشكيل التجريدى للتراكيب؛ إذ تحتوى التراكيب على ما يأتى:-

---

(١) الضحى: ١-١١.

أ- التناظر التركيبى الأول:

استفهامٌ منفىٌّ (بالهمزة + لم) "ولم هنا ليست نافية إذ يقوم الاستفهام بتحويل الجملة تحويلاً آخر يصرفها إلى معنى الإقرار بالأمر"+فعل + ضمير "مفعول به"+ مفعول به ثان+ فعل.

ينتفى حضور "ألم" فى بنية الآيات على المستوى الخطى فقط، ولكن يظل لها أيضاً حضورها الذهنى فاعلاً مؤثرًا. وهذه الجمل المتناظرة تركيبيًا ليست استفهامًا بالمعني المعروف؛ ذلك أن كل استفهام يحتاج إلى إجابة، ولكن المعنى هنا جاء مكتملاً، حيث يؤدى الاستفهام وظيفة الإخبار والتقرير لأمور متحققة بالفعل.

ب- التناظر التركيبى الثانى:

(ف)+ أمّا +مفعول به +لا الناهية+ فعل مضارع.

على أن الإيقاعية لا تنتهى عندما تم رصده من ظواهر، فالإصغاء لهذه الآيات يتولد عنه شعور مبهم بحضور نمط آخر من الإيقاع يكون مدعاة للتوقف عنده. ترى من أين ينبعث ذلك الإيقاع وقد رأينا أن الأنظمة الإيقاعية التى تم رصدها من قبل لا تخرج عن المستوى الحرفى والمستوى البديعى، والمستوى النحوى، فهل تراه يصدر عن أحد هذه المنابع؟

إن ذلك الإيقاع ذو علاقة بشىء يعتبره بعض النقاد أمرا عرضيا أو قليل الأهمية ألا وهو أطوال الآيات. فمن الواضح أن نموذج الأطوال يزكى الإيقاع فى السجع القرآنى -بصفة عامة- كما يسهم فى تكثيفه. فالقرب والبعد ما بين أصوات السجع المتشاكلة يمثلان قيمتين إيقاعيتين ودلاليتين فى الوقت نفسه، وهذا ما نسعى إلى كشفه تطبيقيًا فى سورة الضحى؛ ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[1] تنهض البنية الإيقاعية فى هذه الوحدة على التقارب العددى؛ إذ تتوالى الأبنية المقطعية تواليا

---

(١) أقدِّم فيما يأتى التقطيع الصوتى لتلك الآيات:

(V ٣V٣V V ٢ ٣ V ٢ ٢،V V V V V V٤ ٣ V V ٢، V V V V V٢V٣ V٣ ٢).

(١١) مقطعا ، (١٠) مقاطع ، (١١) مقطعا

منتظمًا من حيث الكم، فعدد المقاطع فى آيات هذه الوحدة يكاد يكون متساويًا، إذ نجد الآيتين الأولى والثالثة تبلغان أحد عشر مقطعا، بفارق مقطع واحد عن الآية الثانية التى بلغ عدد آياتها عشرة مقاطع أحدها مقطع من النوع الرابع زائد الطول (٤). وتستقر بنية السجع فى أواخر الفواصل الثلاث لتمثل نقطة ارتكاز تفصل بين مسافات متوازنة كميًا وصوتيا ودلاليا؛ إذ تكون نهاية كل آية صوتيا بحرف "الألف اللينة" –متوافقة مع النهاية الدلالية.

ومرة أخرى تأتى المسافات التعبيرية متوازنة فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾[1]. حيث يبلغ عدد المقاطع المكوّنة للآية الواحدة منهما عشرة مقاطع.

ويمثل توازن المسافات التعبيرية –إذن– الاختيار الإيقاعى الغالب فى السورة من حيث مرات تردده، بيد أنه ليس الاختيار الوحيد؛ فالنص يعمد فى الآيات الخمس الأولى إلى المراوحة بين القرائن فى الكم المقطعى على النحو الآتى (٣-٧-١٢-١٤-١٣) مقطعًا. وهنا يؤسس غياب التماثل العددى هو أيضا لخصوصية السّجع الذى يصير مضطلعًا بخلق الإيقاعية، فالمعاون الشكلى المتمثل فى تساوى الكم المقطعى مفقود، ومع ذلك فإن أصداء الإيقاع ليست غائبة وإنما يولدها السجع، وإن كانت فى هذه المرة أقل رنينًا.

ويرى البحث أن توازن المسافة الإيقاعية أو اهتزازها يعد –بالدرجة الأولى– صدى لحركة المعنى. "فالمسافة –وإن أخذت شكلا محسوساً– فإنها أصلا عملية ذهنية خالصة، وبما أن الذهن نفسه يحتاج إلى محطات وقوف، فإن البناء التعبيرى يتابعه فى "اختيار" هذه المحطات، بل والتركيز عليها بترديد صوت بعينه فى نقطة بعينها".[2] وتستوقفنا هنا كلمة "اختيار"، فالمسألة ليست تنظيمًا للأدلة على أسطر أفقيّة متوازية فقط، بل هى –قبل كل شيء– عمليّة توزيع للمسافات التعبيرية، وبمجرد أن ينفرد النص بحرية اختيار محطات الوقوف يصبح ذلك التوزيع دالاً.

---

(١) (٧ ٣ ٣ ٧ ٢ ٧ ٧ ٢ ٣ ٣، ٧ ٣ ٣ ٢ ٧ ٧ ٧ ٢ ٣ ٣).
(١٠) مقاطع ، (١٠) مقاطع

(٢) بناء الأسلوب فى شعر الحداثة، محمد عبد المطلب، ١٩٨٨، ص ٣٧٤.

وتستهل السورة بالقسم "بالواو"، والقسم أسلوب بلاغى، يلفت هنا لفتا قوياً إلى صور ماديّة مدركة ووقائع حسيّة مشهودة توطئة لإبراز صورة أخرى معنويّة مماثلة، والأمر الملاحظ أن الدلالة هى التى قادت التشكيل الإيقاعى إلى المراوحة بين التراكيب السجعية فى الكم المقطعى. فالضحى لا يعنى النهار كله، "وإنما هو صدر النهار حين ترتفع الشمس ويظهر سلطانها".(١) وهذا التوقيت لا يقابل مطلق الليل، ولكنه يقابل ساعة بعينها منه هى فترة هدوئه وسكونه، ومن ثم جاء الليل مقيّدًا بكلمة "سجى"، فاهتزت المسافة الإيقاعية بين أطراف المقسم به، بما يعنى أن اهتزاز المسافة ليس مجرّد تقنية شكلية، وإنما صورة مبتكرة من قبَل النص، بتوجيه من الدلالة.

وفى هذا السياق، يمكن إدراك كيف يؤسس النص للمماثلة بين الصورتين: الحسية والمعنوية. إنه يعتمد على أبعاد إيقاعية أيضًا، فيؤسس للمماثلة بين الصورتين بواسطة الإيقاع المسافى المتكرر، حيث يتحقق الموقف المعنوى – المقسم عليه– فى قوله تعالى: (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) على مسافة إيقاعية مماثلة تقريبًا لمسافة المشهد الحسى –المقسم به– مما يعكس الارتباط بين طرفى القسم ويشير إليه. ونحن إذ نصل إلى تلك النتيجة تتداعى إلى الذاكرة مباشرة فكرة الشكليين الروس عن الإيقاع بمختلف أنماطه. فهم يرون أنه يشبه الصور فى كونه يقصد به الكشف عن النمط التحتى للحقيقة العليا،(٢) أى غور المعنى الكامن.

فالإيقاع العددى أو المسافى –هنا– بدا صدى لمعنى الكلام. ومن ثم وقف فى مقدّمة ما يثير المعنى، ويوحى به ويطرح علينا معانى وتفسيرات له. ويتأكد

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان على مصحف التهجد، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمى النيسابورى، دار الصفوة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥، مج٤، ص ٣٣٨٦.

(2) Russian Formalism History, V. Erlch, Mouton & Co., poris the Houge. 1955. P. 194.

نقلا عن، العروض وإيقاع الشعر العربى، محاولة لإنتاج معرفة علمية، سيد البحراوى، ص ١٣٥.

نفى التوديع والقِلَى من خلال قوله تعالى: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾. "فالآخرة تأتى -غالبا- مقابل الدنيا، والمعنى الأول فى المادة هو التأخير، كما أن المعنى فى الدنيا هو الدنو. فإذا اقترنت الآخرة بالدار، أو باليوم. غلب أنها اليوم الآخر، أما إذا أطلقت، فهى ذات دلالة أعم، يدخل فيها: النهاية، والمصير، والعقبى، سواء فى هذه الحياة، أو فيما بعدها".(١) والآخرة فى الآية تعنى الغد المرجو الذى يخص الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- ويشير إلى الخطاب فى "لك". وعلى مسافة إيقاعية متقاربة جدًا تجيب الآيات عن سؤال مضمر حول كيفية الخيرية التى يعد الله بها رسوله، فيتكامل التجلى الإلهى على المصطفى بقوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ ما تركك الله فيما مضى، وللآخرة خير لك من الأولى.

والأدلة التى تطمئن الرسول على أن الله غير تاركه ولا مودعه كثيرة، تتدخّل بنية التعدد فى إبرازها. فقد كان يتيما فآواه الله ووقاه مسكنة اليتيم، وكان ضالا (حائرا) فهداه تعالى إلى دين الإسلام والحق، وكان عائلا فأغناه بكرمه وفضله، ما تركه وما قلاه قط. هكذا أتت بنية التعدد متراكبة الأحوال والأفعال، تتوزّع دلاليا على عدة حقول، ومكانيًا على عدة آيات، وذلك فى نسق تماثلى تركيبى. فإن تركيبا مركزيا يتردد فى مفتتح كل آية، ويمثل طرفاه "الفاعل" -الخالق عز وجل- و"المفعول" -محمد عليه الصلاة والسلام- ويؤدى ذلك التركيب المركزى دوره فى الدلالة أداء مبهراً؛ فالاستفهام فى "ألم" ليس استفهاما بالمعنى المعروف -كما ذكرنا سابقًا- ذلك أنه يؤدى هنا وظيفة الإخبار والتقرير، وبذا يصبح السؤال والجواب أداء تعبيريا واحدًا. ويستعمل القرآن فى الآيات الثلاث الفعل "وجد" وهو من أفعال القلوب، ومن ثم يسيطر الجو المعنوى النفسى على الموقف، وتتهيأ للرسول الطمأنينة الوجدانية.

ويتدخل ذلك التركيب المركزى وطرفاه فى توجيه التشكيل المسافى ليأتى فى النهاية متوازناً، ويؤازره فى ذلك كل من: التناظر التركيبى، والتوازى المعنوى. ويكون من الحصيلة الكليّة -بعد- كثافة الإيقاع المسافى فى الوحدة.

---

(١) التفسير البيانى للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن، سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية، ع ٢٥، دار المعارف، ط٧، ١٩٩٠، جـ١، ص ٣٦.

والسؤال المطروح هل يوفر التناظر المسافى شيئا آخر بالإضافة إلى الإيقاعية؟ فى هذه الوحدة –أيضا– يمكن استنتاج أن المسافة توفر تنسيقا صوتيا يدعم الدلالة؛ فإن السياق فى الوحدة السجعية السابقة الذكر يتسع لثلاثة مواقف، تتشكل تعبيريا بالانفصام عن طريق الرابط –واو العطف– وتتحرك هذه المواقف من السابق –تاريخيا– للاحق، تحدد ما أسبغه الله –عز وجل– على نبيه فيما أولاه من نعم، وذلك فى كل مرحلة من مراحل عمره –قبل الدعوة– طفلاً، وشاباً، وناضجًا.

والكم المقطعى المتقارب في الآيات الثلاث ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[1] يبدو أنه ليس خاليا من المعنى، فورود الأفعال "آوى" و"هدى" و"أغنى" على مسافات إيقاعية متوازنة يُشْعِر بتعادل تلك العطايا فى أهميتها. فقد كانت أكثر المطالب ضرورة فيما مضى من عمر نبينا فى كل مرحلة منه، لم يبخل الخالق –عز وجل– عليه بتحقيق كل مطلب فى آنه، لم يتركه وما أبغضه قط، ولن يبخل فى المستقبل بما وعده من عطاء يرضيه.

هكذا يبدو أن تشكلات المسافة فى السجع القرآنى لا تأتى عرضًا واتفاقًا، بل على العكس من ذلك، فالنص القرآنى يوظف إيقاع المسافة عن قصد لإبراز بعض هوامش الدلالة، هذا إضافة إلى ما يتحمله من دور إيقاعى. وقد لا يروق هذا الرأى لبعض النقاد؛[2] ذلك أن مجال معالجة الجانب الشكلى لم يطرقه بعد

---

(١) سورة الضحى: ٦– ٨.

(٢) لقد فتح لنا الدكتور محمد عبد المطلب طريقا فى هذا الشأن؛ بالتطبيق الذى قام به على نماذج من إبداعات شعر الحداثة. وأكتفى بالإحالة على كتابه، بناء الأسلوب فى شعر الحداثة "التكوين البديعى"، محمد عبد المطلب، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٢٧٣– ٢٧٩. كما أحيل على الدراسة التى قام بها المستشرق (بيير كرابون دى كابرونا) –pierre crapon de coprona– التى صدرت فى باريس عام ١٩٨١، ضمن المطبوعات الاستشراقية الفرنسية تحت عنوان:
Le coran: Aux sourcesde la parole oraculaire: structures Rythmiques des sourates Mecquoises .

سوى قليل ممن تجاوزوا الحديث عن فاعلية التشكيل المسافى فى شحن النص صوتيًا إلى رصد فاعليته دلالياً. وهذا ما لم تفعله البلاغة العربية القديمة التى توقفت عند رصد أنماط ائتلاف التركيب السجعية طولا وقصرا فحسب، مخلّفة وراءها أحكام قيمة لا يمكن تقبلها دون نقاش. ويأتى ابن الأثير فى مقدمة الذين أصدروا أحكامًا فى هذا الصدد يجدر بنا الوقوف أمامها ومناقشتها.

فقد ذكر ابن الأثير أنماطًا من ائتلاف التراكيب السجعية طولا وقصرا، مقدّمًا –كما سبق أن ذكرنا– أربعة قوالب لوحدات سجعية لا يتجاوز مداها الفقرتين أو الثلاث، وما يهمنا فى عمل ابن الأثير هو تصنيفه وترتيبه لهذه القوالب على سلّم القيمة. فهو يرى أن السجع المتساوى الأطوال هو أشرف أنواع السجعِ منزلة، مسجلا هذا الرأى ضمن جماليّة عامة للسجع، يعتبر بحق من أهم منظّريها. يلى هذا القالب من حيث القيمة التركيب السجعى الثنائى الذى تكون فيه السجعة الثانية أطول قليلا من الأولى طولا لا يخلّ بالاعتدال فإذا جاءت السجعة القصيرة تالية للطويلة فذلك عند ابن الأثير عيب فاحش.

وقد أثارت أحكام القيمة التى أصدرها ابن الأثير – فى هذا الصدد– احتجاج واحد من النقاد العرب المحدثين؛ إذ اتخذ محمود المسعدى موقفا مخالفا ابن الأثير فى أحكامه، ولا سيما فيما يتعلق بمبدأ الاعتدال. فلم يكن المسعدى من المعجبين بالإفراط فى التساوى العددى، فعنده أن "الإفراط فى الانتظام والتعادل والتوازى يجعل السجع جامدًا رتيبًا، ويدخل عليه نوعًا من التنغيم الآلى الراكد".[١] كما أنه يخالف ابن الأثير فى أحكامه المتعلقة باهتزاز المسافة الإيقاعية، حيث يرى أن طول الفقرة الأولى وقصر الثانية يورث الكلام سهولة وانسيابا، وأن قصر الأولى وطول الثانية يورث الكلام إجهادا وتقطعًا. "وإنما اختلف الرجلان لاختلاف منطلق البحث فى السجع عند كل منهما. فأساس السجع فى نظر "ابن الأثير" الوحدة الخطيّة المحققة وما عداها تابع لها، وأساسه

(القرآن: ينابيع الوحى الإلهى، البنية الإيقاعية فى السور المكية) وقام بعرضها والتعليق عليها د. لبيب السعيد. ويهمنا بالخصوص من بين لوحاته القياسية التى قدمها تحت عنوان "ما هو ذو دلالة خطيّة". يهمنا النظر إلى لوحة "التناغم" التى من مهامها قياس المسافات، ومعرفة قيمها النغميّة مع إشارات بسيطة إلى ما تقدّمه للدلالة.

(١) الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدى، ص ٣٨.

فى نظر المسعدى وحدة التنفس العادية وأما وحدات الكلام فتابعة لها".(١) ويحتاج ذلك الجدل منا إلى تدقيق نظر ربما مكّن من حسمه لصالح أحدهما، ولعله يأتى برأى جديد فى ضوء دراسة السجع القرآنى.

وأوّل الأمور التى يلزم مراجعتها حكم القيمة الذى أصدره ابن الأثير لصالح السجع المتساوى الأطوال فقد كان المنتظر بناء على رأى ابن الأثير أن يكون تساوى أطوال الآيات ظاهرة واضحة كل الوضوح فى السجع القرآنى، وعميقة كل العمق فى بنائه الفنى. أى يكون التساوى هو القالب المفضّل لأسلوب السجع القرآنى، ولكن يظهر من نتائج العيّنة التى قام البحث بكتابتها كتابة صوتية – فيما سبق– والتى بلغ مقدارها ١٤٢٢ آية مقسّمة إلى ٤٠٢ وحدة سجعية يتراوح محتواها ما بين فقرتين وأربع عشرة فقرة –يظهر من العينة ما يأتى:

أولا: أن الوحدات التى اشتملت على سجعات متساوية الطول كانت أقل ظهورًا فى القرآن الكريم؛ فعددها لم يتجاوز اثنتين وعشرين وحدة، أى بواقع ٥,٤٧% من نسبة الوحدات المدروسة، وفى حالة إدخال السجعات التى بينها فارق مقطع واحد فى حكم السجعات المتساوية فإن العدد يرتفع إلى ثلاث وأربعين وحدة أى بنسبة ١٠,٦٩% ويبلغ عدد الوحدات السجعية التى حدث داخلها تساوٍ جزئى فقط بين بعض من آياتها ثمانٍ وعشرين وحدة، وهى نسبة تصل إلى ٦,٩٦% من جملة الوحدات.

ثانيا: تختلف السور المدنية عن السور المكية من هذه الناحية؛ فالتوازن الإيقاعى الناتج عن التتابع المنتظم لنفس الكم المقطعى يبرز فى السور المكية – وبخاصة فى الجزء الثلاثين– ويشتدّ عنه فى السور المدنية. فإن نسبة الوحدات التى يجمع بين أجزائها توازٍ كمّى تصل فى القرآن المكى إلى ٩٤,٢٩% من مجموع الوحدات التى حدث داخلها التوازى الكمى المقطعى بكافة أنواعه.

ولو رحنا نتتبع المجال الدلالى لسياق الكلام، أو المقامات التى حظيت بإيقاع عددى نابع من توازى المسافات لتكشف لنا أن أكثر ورود ذلك القالب جاء فى

---

(١) مقال: مدخل إلى تحليل "المقامات اللزومية" للسرقسطى، محمد الهادى الطرابلسى، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص١٤٠.

مقام ذكر نعم الله سبحانه وتعالى وفضائله على عباده، والتى تذكّر بآيات الله فى الآفاق، وتلفت الأنظار إلى مشاهد الكون ونواميسه، وتعرّف ما ينتظر العباد فى الآخرة. كما ورد توازى المسافات فى سياق الضراعة والنجوى، وقد ورد كذلك فى سياقات التهديد والوعيد التى يعمَد فيها النص إلى الاتكاء على التأثير السمعى للردع والزجر. وإذ يتابع المرء هذه السياقات يستطيع أن يستنتج لماذا كان أكثر وقوع التساوى العددى داخل السور المكية.

وبما أن الإحصائيات دالة بخصوص تواتر الاستعمال، فإن أوّل ما يتبادر إلى الذهن هو أن نوعيّة المجالات الدلالية لسياق الكلام هى التى تبعث على كل اختلافات الشكل فى الكم المقطعى. فهل يوجد ما يسمح بالبرهنة على أن توازى المسافات يناسب سياق الضراعة والنجوى، وسياق التهديد والوعيد، وبقية السياقات المذكورة عاليه، وأن اهتزازها يناسب السياقات الأخرى فى الخطاب القرآنى؟ ليس ثمة ما يُعتَمد عليه لتوكيد هذا التناسب، إذ لو كانت بعض السياقات لا يناسبها سوى ضرب بعينه من التشكيل المسافى، لوجدنا السورة القائمة على التهديد والوعيد -مثلاً- لا تبرح التوازى المسافى، لكن ذلك لم يقع. فأنماط التشكيل المسافى قد تنوّعت داخل السياق نفسه، فجاءت المسافة الإيقاعية متوازنة حيناً، واهتزت حيناً آخر. ومن ثم نخلُص إلى أن الأشكال المجردة تتسع لكل السياقات ولا تختص ببعض دون آخر.

يبقى تساؤل يطرح نفسه علينا: ما العامل الذى يحدد نموذج الأطوال فى السجع القرآنى؟ يبدو أن ذلك العامل لا علاقة له بمسألة الاستحسان لقالب شكلى دون غيره، وإلا لحرص النص القرآنى على تنسيق المسافات وفقاً لما يشتهى للكلام من تناظر وتوافق إيقاعى، وهذا ما لم يحدث.

لا يمكن – إذن– تقويم نموذج الأطوال فى علاقته بأحوال الخطاب ومقاماته، كما لا يمكن تقويمه فى علاقته بمطالب المتلقى ورغباته، فما زال التشكيل المسافى فى السجع القرآنى يحتفظ بأسراره التى يُمكن استكشافها تاركين النص نفسه ينبئ عنها.

تبين من القراءة الفاحصة للسجع القرآنى أن نموذج الأطوال فى كل وحدة سجعية قد جاء مقصودًا، فالملاحظ أنه جاء تابعًا للمعانى يتكيّف بشكلها فإذا توازت المعانى وتزاوجت؛ تزاوجت وتناظرت المسافات مثلها، وإذا استرسلت

استرسلت مثلها. ولنتأمل –على سبيل المثال– قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.(١) نلاحظ أن هذه الوحدة السجعية تشتمل على سلاسل متسقة من الجمل المتوازنة فى المعانى، وقد جاء هذا التوازى مصحوباً بتواز آخر فى البنية النحوية. ويبدو أن هناك ترابطًا ثلاثياً؛ فحضور التوازى فى المعانى والتناظر فى التركيب استتبع حضور التوازى فى الأطوال، إذ لم يزد عدد المقاطع الصوتية فى أية منها عن ثمانية مقاطع.

والنماذج الدالة على تحقق الملحظ السابق وتجليه فى القرآن الكريم كثيرة، منها أيضا قوله تعالى من سورة الفلق: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ، وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾(٢)؛ فالارتباط متحقق بين التوازى المسافى والتوازى المعنوى.(٣)

وهناك أيضا مجموعة من الوحدات السجعية التى بنيت شكليا على أساس التساوى العددى، ولكنها قد تورات فيها الموازنة المعنوية بينما برز ملحظ جديد،

---

(١) سورة الشرح: ١– ٤.

والتقطيع الصوتى لهذه الآيات هو:

(V٣ ٣ ٣V ٣V ٣،V ٣V ٢ ٣V ٣ ٣، ٣V٢ ٣V V ٣ ٣،V ٣V ٢V V ٣ ٣).

(٨) ، (٨) ، (٨) ، (٨)

وهذا التقطيع يراعى الوقف على آواخر الفواصل.

(٢) سورة الفلق: ٤– ٥.

(V ٣ ٣ ٣ ٣ ٢ ٢ V ٣ V ٣، V ٣ ٣ V ٢ V ٣ V ٢ V ٣ .

(١١) ، (١١)

(٣) وجدنا حالات نادرة ينكسر فيها التوافق بين المزاوجة فى المعنى والتساوى العددى، حيث يكون الفارق بين التراكيب السجعية فارق مقطع أو مقطعين ومع ذلك فهى متزاوجة معنويًا ونحويا. وفى اعتقادى أن هذا لا ينفى ما قلناه عن ارتباط التساوى العددى بالمزاوجة المعنوية، فالتوازى –هنا– لا يتم إلا بدخول طرف إضافى. إنه لا يأتى من ناحية العدد فقط، وإنما يأتى من ناحية المدى الذى تستغرقه كل آية فى الزمن، وهذا أمر لا يحسمه عدد المقاطع الصوتية فحسب، بل يحدّد بنوعيتها.

وهو التشكل النغمي المتوازن الذى توازن موجاته وأصداؤه ودرجاته كما فى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.[1] تربط الآيتين علاقة نحوية توضيحية إبانية، والإبانة -بشكل عام- قد تتجلى على مستوى الجملة وتقوم بها الوظائف (النعت، البدل، التمييز، الحال، التوكيد، الإضافة المعنوية، إلى غيرها). كما قد تتجلى على مستوى الجمل فى النصوص؛ لكن أشكال ورودها فيها ذات مرونة كبيرة لأنها تتصل بملابسات المقام والتفاعل بين أطراف الحوار.[2] وتندرج العلاقة التوضيحية التى تربط الآيتين السابقتين داخل المستوى الثانى، فالإبانة فيها تكون بإيراد مقول القول. ولعل أول ما ندركه من قراءة الآيتين هو التوازن النغمى، فقد توجهت الآيات فى دفقتين متساويتين نغمًا وعددًا، كل لها الوقع نفسه. بالدفقة الأولى يتنبّه حس المخاطب، يستيقظ، وينتظر، ويترقب، ما الذى يقال، يريد أن يعرف ما الخبر؟ فتأتيه الدفقة الثانية التوضيحية المساوية فى نغمها وطولها لنغم وطول العبارة السجعية الأولى، وفصل النموذج المسافى المتوازن الذى تشكله هاتان العبارتان عن نظام النص القرآنى فى التعبير وخاصة فى السور المكية يحول -بالتأكيد- دون إدراك التبرير الفعلى لتوظيف هذا النموذج فى موضعه من النص. إن هذه الوحدة السجعية المؤسسة على الإبانة تخاطب العقل. تُفسِّر، وتبيِّن، وتوضِّح؛ وهى لذلك أشد حرصًا على ألا تتخلى عن بعض المفاتيح السحرية التى تساعدها على أن تجتاز النفوس؛ فتتوسّل بأساليب وأوتار إيقاعية من تلك التى تتوفّر عليها قيثارة اللغة، وحينئذ يتوفر لها أن تعزف لحنها المؤثر فى النفس. وتتمثل هذه الأساليب فى توخى التسجيع من جهة، وتساوى الكم المقطعى من جهة أخرى.

ويسمح تحليل الوحدات السجعية فى القرآن الكريم بإدراك مختلف تجليات التوازى العددى فى علاقته بالمعنى. ومنها:

---

(١) سورة الكافرون: ١- ٢.

(٣ ٢ ٣ V ٢ ٢ V ٤، ٢ ٣ V V ٢ ٣ V ٤).

(٨) ، (٨)

(٢) انظر: نسيج النص: ما يكون الملفوظ به نصًا، الأزهر الزنّاد، المركز الثقافى العربى، بيروت، ط١، ١٩٩٣، ص ٤٠.

١- وحدات سجعية جاءت فيها العبارات المسجوعة المتوالية على الكم المقطعى نفسه، والبنية الصرفية، والتركيب النحوى، يجمع بينها توازٍ معنوى. مثل قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾(1)

(٧ ٣٧٧٧٧٣٧ ٢، ٧٧ ٣ ٧٧ ٣٧ ٢)

(٨) مقاطع ، (٨) مقاطع

وقوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ، وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ،

(٧ ٧٢٧٣٧ ٧ ٣٧، ٧٧٢٧٣٧٧ ٧٧ ٣

(٩) مقاطع ، (٩) مقاطع

وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ، وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ، لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾(2)

٧٢٧٣٧٧ ٣٧٧، ٧٧ ٣٧٧٧.٣ ٣٧، ٣٧٣٧ ٣ ٣٧٣

(٩) مقاطع ، (٩) مقاطع ، (٨) مقاطع

٢- فى كثير من الأحيان يكون الازدواج فى المعنى والتركيب دون البنية الصرفية، مثال قوله تعالى:

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا، وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾(3)

٧٧٧٧ ٧٧٢٧٣ ٢ ٣ ٣ ٢ ٢، ٧٧٣٧ ٣ ٧٢٧ ٧ ٢ ٣ ٧ ٢ ٢ [١٤- ١٤مقطعاً].

٣- وفى حالات أخرى لا تتال الوحدات من الأشكال المولّدة للإيقاع غير تساويها العددى وتوازيها المعنوى فحسب، مثال قوله تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ،

(٣ ٢ ٣ ٢ ٧ ٧ ٢ ٧ ٧٢ ٣ ٢ ٢ ٢ ٣ ٧ ٤، (١٧) مقطعاً

كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(4)

٣ ٢ ٣٧٣ ٣ ٣٧ ٣ ٧٧ ٣٧٣ ٢ ٤ (١٧) مقطعا

٤- وأحيانا لا يتكرر الكم المقطعى نفسه فى سلسلة العبارات المسجوعة من أولها، بل فيما بعد مبدئها، وذلك هو نوع الوحدات التى تبدأ بعبارة افتتاحية أو

---

(١) سورة العاديات: ٤- ٥.

(٢) سورة المرسلات: ٨-١٢.

(٣) سورة النبأ: ١٩- ٢٠.

(٤) سورة المطففين: ١٤- ١٥.

قاسم مشترك، ومنها قوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ﴾(1)

([٣ V ٢ V] V ٣ ٣ ٤، V V ٣ ٤، V ٢ ٣ ٤)

[٤] (٤) مقاطع، (٤) مقاطع، (٤) مقاطع

-وقوله: ﴿[أَفَلا يَنظُرُونَ] إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ،

[VV٢ V٣ V٢] V ٣VVV٣VVV٣ ،

[٧] مقاطع، ١٠ مقاطع،

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ،

VV V٣ V٢ VVV٣ ،V V ٣ V ٢ V ٣ V V V ٣،

(١١) مقطعا ، (١١) مقطعا

وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(2)

V V ٣ ٣ V ٣ V V V ٣

(١٠) مقاطع

إن كل وحدة من الوحدتين السابقتين تبدأ بقاسم مشترك هو بعض من الآية الأولى تليه عبارة سجعية متساوية أو قريبة من التساوى عدديًا.

وقد يكون القاسم المشترك عبارة عن آية كاملة مثل قوله تعالى:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى، الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى،

٣ V٣ V٣ V ٣ ٣ ٢ ، ٣V٢VVVV٣ ٢،

(٩) ، (٩)

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى، وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى، فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾(3)

٣V٢ ٣VV V V٢، ٣ V ٢ ٣ V ٣ ٣ ٢ ، V V V V V V٢ ٣ ٣ ٢

(٩) ، (٨) ، (١٠)

والملاحظ فى الأمثلة السابقة جميعها أن التوازى المسافى قد وافق توازيًا آخر فى المعانى.

---

(١) سورة الناس: ١-٣.

(٢) سورة الغاشية: ١٧- ٢٠.

(٣) سورة الأعلى: ١- ٥.

٥- وقد يكون التوازى المعنوى قائمًا على المقابلة، وهو ما نسميه توازى الأضداد ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ،

V ٣ ٣ ٣ ٣ ٢ V٣ V ٣ ٣ ٣ V٣،

(١٤) مقطعا ،

وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1]

V٣ ٣ ٣ ٣ ٢ V ٣ V ٣ ٣ ٣ V ٣)

(١٤) مقطعا

٦- يبقى شكل أخير من أشكال ارتباط التساوى العددى بالتوازى المعنوى، وذلك النمط فيما يلحظ من أكثر أشكال التوازى المسافى تعقيدًا أو تركيباً. يقول الخالق عز وجلّ:

﴿فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، ◄—— توأم (١)

توازى أضداد | توأمة (أ) | توازى أضداد | توأمة (ب) | توازى أضداد | توأمة (جـ)

وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[2] ◄—— توأم (٢)

V ٣ ٢ ٣ ٣ ٢ ٣ V ٢، V ٣ V V ٣ ٣ ٢، V V V ٣ V V V ٣ ٣ ٢

V٣ ٢ ٣V V V ٣ ٣ ٢، V ٣ V V ٣ ٣ ٢، V V V ٣ V V V ٣ ٣ ٢

ولا يزعم البحث السبق بمعرفة هذا الشكل أو باكتشاف وجوده فى النص القرآنى الذى لا يتجلى إلا للمتأمل. فقد أشار إليه -من قبل- ابن أبى الإصبع المصرى المتوفى (٦٥٤هـ- ١٢٥٦م) ووضعه تحت مسمى "توأم".[3] ولا تجد الباحثة ما يمنع من استخدام المصطلح نفسه؛ فلا شك أن ابن أبى الإصبع قد

---

(١) سورة الزلزلة: ٧- ٨.

(٢) سورة الليل: ٥- ١٠.

(٣) انظر: تحرير التحبير، ابن أبى الإصبع، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامى، ١٩٦٣، ص ٥٢٢- ٥٢٣.

نجح فى استعارة اللفظ المناسب.[1] والناظر فى المثال السابق يدرك التوأمة الحادثة بين الآيات الثلاث الأولى والآيات الثلاث الأخيرة، حيث نجد أن الآية الأولى تتحد فى الطول لا مع ما يليها فى التوأم نفسه، بل مع الآية الأولى من التوأم الثانى، تمامًا كما يتحد طول الآية الثانية من التوأم الأول مع طول الآية الثانية من التوأم الثانى، وهكذا.

٧- ونرصد طائفة أخرى من الوحدات السجعية التى تساوت تراكيبها تساويا عددياً، أو التى كادت تبلغ حد التساوى بفارق مقطع واحد، والتى تعد بمثابة جملة واحدة جاء الاستئناف فيها للإبانة، حيث تؤدى السجعة الثانية إحدى الوظائف التوضيحية التى ذكرناها قبل قليل. فتكون حالا، كما فى قوله تعالى:
﴿الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[2].

(٣٧٣٧٧٢٧٣ ٧ ٧٣، ٣٧٣٧٣ ٢٧٧٧٢٧٣)

(١٢) مقطعا ، (١١) مقطعا

فإن الآية الثانية هنا تعد حالاً من الضمير فى الجمع.

- وقد تكون نعتا كما فى قوله عز وجل: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾.[3]

(٣ ٧ ٧٣ ٢٧، ٣٧ ٧٢ ٣٧)

(٦) مقاطع، (٦) مقاطع

---

(١) إلا أن أبى الإصبع يصب اهتمامه على المزدوجات بوجه خاص، ويشير بدراسته لهذا الشكل إلى إمكان وجود صورة أخرى لائتلاف التراكيب السجعية، صورة لا تتأسس على شرط التوالى فى التعبير، وإنما تتأسس على شرط التوازى فى الطول، ويُمثّل لذلك بقوله تعالى من سورة الرحمن: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان، فبأى آلاء ربكما تكذبان؟ يرسل عليكما شُواظ من نار ونحاس فلا تنتصران، فبأى آلاء ربكما تكذبان؟﴾. وبناء على شرحه فإن كل مزدوج، وإن اتفقت آياته فى الفاصلة إلا أن التركيب السجعى لا يتم داخل المزدوج نفسه، فالآية الأولى -فيما يرى- لا تتفق فى الفاصلة مع الآية الثانية من المزدوج نفسه، بل مع الآية الأولى من المزدوج التالى، بالضبط مثلما أن الآية الثانية من المزدوج تتفق فى الفاصلة مع الآية الثانية من المزدوج التالى.

(٢) سورة الهمزة: ٢- ٣.

(٣) سورة عبس: ١٥- ١٦.

أو تكون الإبانة بتفصيل المجمل كما فى قوله تعالى:
﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا،
(٣ ٣ ٣ ٢ V V V V V ٢ ٢، V ٢ ٣ V ٣ ٣ V V ٢ ٢،
(١١) مقطعًا ، (١٠) مقاطع
وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾.(١)
V V ٢ ٣ V ٣ ٣ V V ٢ ٢).
(١١) مقطعًا

. والأمثلة السابقة مصحوبة "بالتقطيع" ليكون رهن النظر الذى وُلِدَت إثره تساؤلات جديدة: ما طبيعة الإيقاع الذى تتضمنه تلك الأمثلة المتتابعة؟ أهو إيقاع عددى فحسب –تساوٍ عددى بين مقاطع كل آية من الآيات التى تنتظمها سلسلة سجعية واحدة؟ لعله يكون كذلك بالنسبة لبعض الوحدات؛ فإننا نجد أمثلة لا ينشأ بين آياتها سوى هذا النوع من الإيقاع. ولكن يلحظ –بالنظر إلى التقطيع– إيقاع آخر يؤازر الإيقاع العددى. ثمة صورة تسهم فى تزايد الإيقاع ونموّه قد انتبه "المسعدى" إليها من قبل فى سياق حديثه عن السجع العربى، ووضع لها اسم "الموازنة الإيقاعية التامة"(٢) وتعنى: اتفاق الآيات المكوّنة للوحدة السجعية فى عدد المقاطع الصوتية، ونوعها، وترتيبها. وفى الأمثلة القرآنية مما أوردناه آنفا كثيرٌ من الشواهد الدالة على حضور ظاهرة الموازنة الإيقاعية التامة فى القرآن الكريم.(٣)

والواقع أن الموازنة الإيقاعية التامة التى تحدّث عنها المسعدى، وقابل البحث أمثلة كثيرة منها، هذه الموازنة لا تظهر فى القرآن إلا فى إطار التوازى المعنوى؛ وإن كان ليس أمرًا مطردًا أن ينتج عن كل تآخٍ فى المعنى موازنة تامة. وبعبارة أخرى: إن تساوى الفقرات عدديا لا يصحبه حتمًا موازنة إيقاعية تامة.

---

(١) سورة المعارج: ١٩– ٢١.

(٢) انظر: الإيقاع فى السجع العربى، محمود المسعدى، ص ١٧.

(٣) راجع –على سبيل الأمثلة– المثال رقم (١)، ومثال رقم (٥)، مثال (٦).

والعلاقة بين الموازنة الإيقاعية والإيقاع العددى[1] فى القرآن تأخذ شكلين:
الأول: وحدات سجعية تتفق آياتها اتفاقا تامًا (من حيث عدد المقاطع، والوزن الإيقاعى، والمعنى والتركيب).
الثانى: وحدات سجعية مبدوءة بقاسم مشترك يليه فقرات متوازية عدديا ومعنويا ومتوازنة إيقاعياً.

هذا عن مناقشة حكم القيمة الذى أصدره ابن الأثير لصالح السجع المتساوى الأطوال، مناقشة اعتمدت ما يتجلى فى النص القرآنى، وتتصل المشكلة الثانية بالوحدات السجعية المؤسسة على تباين الأطول؛ أى بكل من القالبين الثانى والثالث. ويمكن إعادة السؤال مجددًا: هل تجد أحكام القيمة التى أصدرها ابن الأثير فى هذا الشأن تأييدًا فى ضوء دراستنا للسجع القرآنى؟

تسمح النتائج التى يوفرها إحصاء الأطوال فى النص القرآنى بعدم الاتفاق مع ابن الأثير فى أحكامه المتعلقة بالقالبين الثانى والثالث كذلك؛ فقد ذهب إلى أن طول السجعة الثانية عن الأولى يُعدّ فضيلة، وأن قصرها يعد عيبًا فاحشا. ولكن هذه الأحكام الانطباعية لا تجد لها تأييداً فى السجع القرآنى؛ والبرهان على ذلك أن خمسًا وأربعين وحدة سجعية فقط من مجموع مائة وسبعين، أى ما يربو على الربع بقليل، هى التى تحتوى على آيات تكون فيها السجعة الثانية أطول من الأولى. أمّا بخصوص الوحدات المزدوجة المنتهية بسجعة قصيرة فقد بلغت تسعين وحدة، وهى نسبة تصل إلى ٥٢,٩٤%. وتظل هذه النسب قارة تقريبًا إذا أضفنا إلى الإحصاء قيمة الوحدات الثلاثية المنتهية بسجعة طويلة، والمنتهية بسجعة قصيرة.

وإن المرء ليعجب من رؤية مثل هذه الأحكام وهى تستقر فى الخطاب النقدى بالرغم من أن النص المعجز لا يؤيدها. فالنظر فى نص القرآن الكريم

---

(١) الإيقاع العددى: هو الإيقاع الناتج عن تساوٍ كمّى فى عدد المقاطع التى تتكوّن منها كل آية. أما الموازنة الإيقاعية التامة: فهى اتفاق الآيات فى عدد المقاطع الصوتية ونوعها وترتيبها.

يمثل عاملاً مساعدًا على مراجعة وتصحيح بعض الأفكار القديمة بعناية.

ولئن كانت هذه الأحكام مبررة بالنسبة لابن الأثير تبريرات تقوم على دعائم نفسية وإيقاعية، فإن البحث يتمسك بالدخول إلى قانون النص اعتمادا على بنائه، حيث يتكشّف: لماذا يوظف النص هذا القالب أو ذاك دون غيره؟ ما القانون الذى يوجه هندسة المسافات فى السجع القرآنى، ويتحكم فى توظيف القالب الشكلى المستخدم؟

هندسة المسافات يوجهها مبدأ يسود النصوص عامة، هذا المبدأ بدا واضحاً لمحمد الهادى الطرابلسى أثناء دراسته لمقامات السرقسطى؛ إذ يقول: "لكل حالة من التفاوت فى المدى بين الفقرتين إيقاعًا خاصًا. فتهدّج الصوت فى حالة قصر الفقرة الأولى وطول الثانية، وانسيابه فى الحالة المعاكسة من قبيل العوامل التى تنوّع الإيقاع وتلوّن النبرة فيه **بحسب ما تقتضيه معانى الكلام**، وليس تهدّج الصوت مخلاً بالإيقاع ولا انسيابه محققًا له بالضرورة".[1] القانون الذى يحكم توزيع الأطوال يتضح من خلال عبارة الطرابلسى السابقة "بحسب ما تقتضيه معانيِ الكلام". ولقد تبين فيما مضى من صفحات أن التوازى المسافى يأتى موظفًا فى خدمة الإيحاء بالمعنى وإبراز هوامش الدلالة.

تدرّج البحث حتى الآن معتمدًا على فرضيّة أساسية. مفادها أن كل ما خُطّ فى القرآن لم يكن كذلك إلا لكى يحمل قيمة ما، ويؤدى غاية محددة قد تكون إيقاعية أو دلالية أو كليهما. من ثم تمتد الفرضية إلى البناء الشكلى الذى بدا أنه أحد الوسائل التى وظفها النص لا ليحمل دوراً إيقاعيًا فحسب؛ بل بحسبانه يشف عن المعنى الكامن فيه.

كان التحرك التحليلى فى هذا الفصل خالصاً للسجع ورصد مدى توظيفه فى النص القرآنى وظواهره الأسلوبية على المستويين: الصوتى والشكلى. ولاستكمال دائرة التحليل الأسلوبى كان لابد من التوجه إلى درب تحليلى جديد يرصد من خلاله السمات الأسلوبية للسجع القرآنى التى تفرزها علاقة ارتباط اللفظة المسجوعة بسياقها على كافة المستويات؛ فالعلاقات التكوينية الرابطة بين

---

(١) مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقسطى، محمد الهادى الطرابلسى، ص ١٤٠.

المفردة والتركيب تتقسم إلى: علاقات سياقية نحوية، علاقات سياقية دلالية، علاقات سياقية صرفية، وهذه هى المستويات الثلاثة التى سيتناولها البحث بالدراسة فى الفصل الآتى.

الفصل الثالث

السجع القرآني

[١] العلاقات السياقية النحوية

[٢] العلاقات السياقية الدلالية

[٣] العلاقات السياقية الصرفية

السجع والسياق:

تناول السجع القرآنى فى علاقته بالسياق اللفظى أمر مهم لاستكمال دائرة التحليل الأسلوبى، فالنص نظام من المعانى تمت (برمجتها) فى نظام الشفرة اللغوية،(١) وفى ضوء هذا التعريف يبدو جلياً أن المسألة ليست ميلاً إلى حضور السجع فى النص أو غيابه، كثافة ذلك الحضور أو ضآلته، المسألة تخص كيفيات أداء مضمون عبر صيغة تستوعب محور الدلالة كما تستوعب هوامشها؛ ومن ثم يُفترض أن اللفظة المسجوعة -بوصفها دالا- إنما اتخذت موقعها من الصياغة بما يلائم التعبير عن الدلالة المرادة محوراً وهامشاً، وبما يخدم غرضاً وظيفياً فى إطار سياق مقامى ما، فإذ يمارس الوعى فاعليته فى النص فإن الحضور السجعى يكون بالضرورة مبرراً دلاليا؛ ذلك أن الدلالة تفرض اختيارات لفظية بعينها، وتجرى تحويلات علي تركيب هذه الاختيارات وتوزيعها فى السياق بحيث تأخذ كل كلمة مكاناً مناسباً فى البناء اللغوى وهذا ما يهب موقع اللفظة المسجوعة قيمة دلالية إضافة إلى القيمة الجمالية الإيقاعية.

وتطرح هذه الرؤية على المستوى البحثى إجراءات تطبيقية يناط بها متابعة الوعى فى حركة الأداء اللغوى القرآنى وكيف يكون الوجود السجعى ناتجاً من نتائجه القصدية. والأساس الذى نعلق عليه استجلاء هذا الأمر هو الانطلاق من المعنى المحصور فى المفردات إلى السياق، للكشف عن شبكة العلاقات التى يفرضها السياق بالتواصل مع اللفظة المسجوعة لتنتج دلالة سياقية تنبثق انطلاقاً من موقع اللفظة المسجوعة فى محيطها اللغوى.

ولم يكن الجهد البلاغى والتفسيرى القديم غافلاً عن حقيقة العلاقات الجدلية بين السياق اللغوى ومكوناته، فصحيح أنه ناتج حركتها الأمامية

---

(1) See: Language, context and text, M. A. K Halliday and Ruqaiya Hasan: Aspects of language in social- semiotic perspective. Oxford university press, Oxford. 1985. p.10.

المؤكدة لملامحه، لكنه بالرغم من هذا ليس مجرد امتداد خطى لتركيب المفردات، إنه يمتلك فى الوقت ذاته قدراً فاعلاً من الكفاءة لإبراز دلالاتها الجديدة وقد دخلت مع بعضها البعض فى علاقات تواشج، يضاف إلى ذلك ما للسياق من قيمة مساعدة فى تفسير وإيضاح أهمية شكل أدائى فى التعبير عن مضمون بطريقة يكون لها أثرها البالغ فى الإفصاح عنه.

ولقد كان البحث عن علّة استخدام الشكل البلاغى هو سؤال المفسرين والبلاغيين الذى أفرز محاولات كاشفة عن الغرض أو الأغراض الأصلية للأشكال البلاغية الموظفة فى القرآن الكريم، وتناولوا تحت ذلك السؤال صوراً من العدول مرتبطة بالفاصلة القرآنية، والسؤال عن العلة صاحبه فى عدد من النماذج التطبيقية متابعة دقيقة لخلق ونمو السياق ثم إعادة الارتداد به إلى مكوناته لإغنائها وتفسيرها، والكشف من خلاله عن كيفية احتضان التراكيب للمفردات، والمبررات التى سمحت لحرية التنفيذ اللغوى أن تأتى -أحياناً- بتراكيب مخالفة لنظام اللغة وقواعده المقررة.

وبرغم ما يلحظ من وعى بلاغى بقيمة السياق، ومن إدراك لدوره وما يمتلكه من فاعلية تفسيرية يعتد بها فى إعادة إنتاج معنى الفاصلة القرآنية، فإن إلقاء الضوء على اللفظة المسجوعة ضمن سياقها اللغوى، كان يفتقد إلى الدراسة المنظمة المتوالية، وإنما كانت تأتى إشاراتهم إلى هذه المسألة فى بعض الآيات القرآنية متناثرة لا تخرج عن كونها مجرد ملاحظات تساق هنا وهناك مرتبطة ببعض سياقات علم المعانى كالحذف، والتقديم إلى آخره، دون أن ترقى إلى مستوى النظرة الشاملة، باستثناء ما فعله ابن الصائغ الحنفى حين جمع أربعين موضعاً للفواصل القرآنية مما خالف الأصل اللغوى، ومن خلالها نستطيع التعرف على بعض السمات الأسلوبية فى هيكل أسلوب السجع القرآنى، لكنها بقيت إشارات وصفية اكتفى أغلبها بالرصد والتصنيف اللغوى وفقاً لما هو عادى فى نظام اللغة وما هو عدول عنه دون التعرض إلى تحليل العمليات التى يتم بموجبها تكوين العبارة السجعية وبناؤها فى تركيب لغوى ظاهر، أى عمليات الترابط بمستوياته (النحوى والصرفى

والدلالـــي) الـــتى تنـــتج عـــنها الائتلاف بين مكونات الجملة حتى ينشأ المعنى الدلالـــى العـــام المســـتفاد. وقـــيمة الـــتوجه إلـــى تحلـــيل العمليات التكوينية الـــرابطة بيـــن المفـــردة المســـجوعة والســـياق تتأتى من أن صورة الترابط بيـــنهما، ومـــا تكـــون علـــيه مـــن موافقـــة ومفارقة لنظام اللغة، إنما تعكس إجـــراءات الـــنص التخطيطـــية لإحـــراز الدلالـــة بمحورهـــا وهوامشها إلى جانـــب إحـــراز الإيقـــاع، حيـــث ينبـــثق عن توخى هذا الهدف اختيار النص بنـــية صـــياغته محـــددة مـــن بيـــن بنـــيات عديدة تتيحها العربية للتعبير عن البنـــية المضـــمرة نفســـها. وأحســـب أن إعـــراض ابن الصائغ عن مثل هذه المـــتابعة التركيبـــية، هـــو الســـبب المباشـــر في قبوله أن تكون المناسبة بين رءوس الآيـــات التوجـــيه الأول لمســـألة الـــترخص فـــى بعـــض الفواصـــل القرآنية وعدولها عن الأصل اللغوى.

ودراســـة اللفظـــة المســـجوعة مـــن حيـــث علاقـــتها بالسلســـلة السياقية الســـابقة علـــيها تفـــرض إجـــراءات تحليلـــية، بغـــية تحقـــيق هدف الدراسة المنهجـــية الأول، وهـــو تقديـــم تحلـــيل يصـــل إلى الشمول أو يكاد ويتضمن فـــى الوقـــت ذاتـــه أهم أساسيات المنهجية ألا وهو عنصر التنظيم. فللوصول إلـــى هـــذا الهـــدف رأى البحـــث دراســـة العلاقـــات التكوينـــية الرابطة بين المفـــردة المســـجوعة والتركيـــب، وهـــى علاقـــات (نحويـــة، وصـــرفية، ومعجمـــية)، وانطلاقـــا مـــن ذلـــك التصنيف وضع البحث ضمن خطته تناول هـــذه العلاقـــات الواحـــدة تلـــو الأخـــرى، ولم يلجأ البحث إلى هذا التقسيم إلا تحقـــيقاً للجـــدوى التحليلـــية؛ إرادة أن يتمكـــن من ملاحظة الخيارات النظمية الأساســـية والـــثانوية فـــى الـــنص من كل وجهة، ومتابعة مدى الارتباط بين الصـــيغة التعبـــيرية الـــتى تمـــثل الجانب المادى من الحدث الكلامى والدلالة المـــرادة الـــتى تمـــثل الجانـــب الـــتجريدى المحض. والسر فى التحرك على هـــذه المســـتويات التكوينـــية الـــثلاث هو أن الوحدة المعجمية حين تنتظم مع مثـــيلاتها فـــى ســـبيل تكويـــن عـــبارة "إنمـــا تنتظم وهى مشحونة بسمات دلالـــية، وســـمات صـــرفية، وســـمات نحوية، وقيود توارد (أو قيود انتقائية) وكـــل أولـــئك عناصـــر تكـــون المدخـــل المعجمى للوحدة المعجمية"[1] بناء

---

(١) نظـــام الارتـــباط والـــربط فـــى تركيـــب الجملـــة العربـــية، مصطفى حميدة، الشركة المصرية العالمية، لونجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٧، ص١١٢- ١١٣.

علـــى هـــذه الســـمات يتعيـــن وجود ثلاثة أنواع تركيبية من العلاقات لا تخلو جملة من حدوثها بين وحداتها المكونة، وهى:

أ-علاقات نحوية سياقية.
ب-علاقات تلاؤم دلالى.
جـ-علاقات تلاؤم صرفى.

فـــإن كـــل جملـــة هـــى بنـــية عناصـــرها هذه العلاقات المعنوية مجتمعة وبـــناء علـــى ذلـــك يمكـــن دراســـة الخصائص الأسلوبية الناتجة عن علاقة اللفظة المسجوعة بمفردات السياق فى ثلاثة مستويات:

أ-مستوى العلاقات السياقية النحوية.
ب-مستوى العلاقات السياقية الدلالية.
جـ-مستوى العلاقات السياقية الصرفية.

ويتصـــل بذلـــك دراســـة كيفـــية احتضـــان التراكيب للمفردات المسجوعة ثـــم إعـــادة إنـــتاج معـــناها مرة ثانية، وهل يسير هذا الاحتضان وفق القواعد المـــنظمة لترتيـــب الكلمـــات علـــى مستوى التركيب العربى مراعيا العلاقات التوافقـــية بيـــن عناصـــر الجملـــة علـــى كـــل مستويات الوصف اللغوى، أى علـــى المســـتوى: الـــنحوى، والصـــرفى، والدلالى أم أن هناك أنماطاً طارئة مـــن العـــدول كالاتجـــاه إلـــى إحـــداث علاقـــات تخالفية مقصودة بين المبتدأ والخـــبر، أو بيـــن الصـــفة والموصـــوف مـــثلاً. أو كحـــدوث مفارقـــات فى العلاقـــات المعجمـــية التركيبـــية، وهـــى ظاهـــرة تـــبدو على الخصوص فى المجـــازات لغويـــة وعقلـــية. هـــذا إضـــافة إلـــى ملاحظة العدول الذى قد يحـــدث فـــى السلســـلة الســـياقية مـــن جهـــة الخـــروج على القواعد المنظمة لترتيب الكلمات بتقديم وتأخير، وزيادة أو حذف أحد عناصر الجملة.

[أ] مستوى العلاقات السياقية النحوية

هـــذا المبحـــث هـــو مـــتابعة للعلاقـــات الســـياقية الـــنحوية الناشئة بين الفاصـــلة القرآنـــية المســـجوعة والتركيـــب الحاضرة فيه، وكيف تهيّأ للسجع أن يســـتقر فـــى موضـــعه مـــن الصـــياغة. وتـــتحرك الدراسة وفى وعيها

الفرق الجوهرى بين الوظيفة النحوية، والمعنى النحوى، فوظيفة الفاعلية مثلاً ثابتة فى الصيغة النحوية، ولكن دلالة الفاعلية بوصفها معنى نحوياً تتعدد وتتجدد بتنوع الإبداع وبحسب ما يتسم به الفاعل من سمات صرفية ودلالية وقيود تـوارد، أهو مصدر أو اسم؟ نكرة أو معرفة؟ نكرة مخصصة أو غير مخصصة؟ وإذا كان معرفة فبأى الطرق تم تعريفه؟ وما هو معناه المعجمى؟ وما صيغة الفعل المسند إليه وما معناه؟ وهل هو فعل مطلق أو مقيد؟ وما نوع مقيده هل هو البناء للمجهول أو التأكيد، أو التعليق بظرف أو جار مجرور، أو التعدية إلى المفعول؟ وهل الجملة من الفعل والفاعل مقيدة أيضاً وما نوع مقيدها؟ أهو الاستفهام أو النفى أو الرجاء أو التمنى أو القيد الزمنى؟ وهل تندرج الجملة ضمن عناصر جملة أخرى؟ ثم هل لابس التعبير شىء من اختلاف الرتبة بالتقديم والتأخير؟ أو اكتنفه شىء من الحذف أو الزيادة؟ هذه كلها أسئلة ينبغى أن تطرح حين التصدى لدراسة التركيب النحوى ومعانيه النحوية الوظيفية.

هناك إذن حقيقة لا يمكن تجاهلها تؤكدها التساؤلات السابقة، وهى وثاقة العلاقة بين المستوى النحوى وسائر أنظمة اللغة، فبنية الجملة النحوية بمثابة مرآة تبرز كيفيات تعليق المعانى فى ذهن المتكلم "ولما كان النظام النحوى هو النظام التركيبى الوحيد فى اللغة، ولما كان هو المسئول عن بناء الجملة بحيث تؤدى معنى واحداً، كان ذلك النظام هو صاحب السلطان على سائر الأنظمة فى اللغة؛ بل إن اللغة لم تنشىء سائر الأنظمة إلا من أجله. فهى جندت النظامين الصوتى والصرفى ليصوغا له صيغاً متعددة الاحتمالات فى الاستعمال النحوى، ثم استودعت المعجم تلك الصيغ لتكون رهن إشارة النظام النحوى حين يطلبها"[(١)].

وباختصار فإن تناول العلاقات السياقية النحوية للفواصل المسجوعة عمل مركز حركته النحو، لكنه مدفوع للاتكاء على معلومات غير نحوية تمثل أدوات مساعدة تتدخل بكل قدرتها فى استخلاص دلالة

---

(١) نظام الارتباط والربط فى تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة، ص ١٣١.

المعنى النحوى للفظ الختامى المسجوع فى إطار علاقاته النحوية الأفقية، ذلك تمهيداً لمتابعة أسلوبية تتحرك رأسياً خلال القرآن بأكمله، لكشف ظواهره النحوية المتكررة فى موضع الفاصلة تلك التى من جانبها توفر للقرآن على مدى إفضائه الفكرى وعبر أجزائه القرآنية المتعددة، حداً من التماسك الداخلى الذى نزع النص إليه، متوخياً التركيز على عدد من الخصائص الأسلوبية الثابتة فيه التى تصنع تناصه الداخلى بما يؤكد علاقة نصوصه أو بتعبير أوضح بما يؤكد علاقة سوره بعضها بالبعض الآخر بوصفها بنية دالة شاملة تشكل كيان النص القرآنى.

وقد وقع اختيار البحث على سورة الزخرف لتكون نموذجاً يلاحظ فى حدوده العلاقات السياقية النحوية بين الفاصلة المسجوعة وسياقها، مستخرجاً من ذلك الحيز الضيق –فى نطاق هذه السورة– تراكيب يختبر كمياً قدرتها على أن تمثل ظواهر نحوية فاعلة فى النص القرآنى؛ بمعنى أنها تتجلى أسلوبيًا فى منطقة الفاصلة المسجوعة على مدار النص بكامله.

تحليل نحوى لفواصل سورة الزخرف:

سورة الزخرف هى إحدى السور المكية التى تعالج ضمن ما تعالج القضية الكبرى والأساسية فى الدين الإسلامى "قضية العقيدة" فى قاعدتها الرئيسية الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة. ويقوم بناؤها على تسع وثمانين آية، منها عشر آيات غير داخلة فى عداد السجع، وهى: [١، ٤، ٩، ١٧، ٣١، ٤٣، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٨٤]. ويلاحظ من خلال المتابعة المبدئية للسورة أن التشكيل التركيبى للفاصلة المسجوعة فى الجملة القرآنية أخذ ثلاثة مظاهر، وذلك من حيث مساحة تعينه من الآية، وعلاقته بالمعنى أو المعانى الرئيسية فيها، وهذه المظاهر تحقق حضوراً فى النص بكامله على النحو الآتى:

أ- أن تكون اللفظة المسجوعة عضواً فى جملة أتت بمثابة تعليق بعد تمام معنى أو معان رئيسية فى الآية فتؤدى هذه الجملة وظيفة التعليل أو الإنكار، أو التوكيد أو الترغيب أو زيادة الإيضاح ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى فى سورة النساء: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ

لَكُـم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُـنَّ فَآتُوهُـنَّ أُجُورَهُـنَّ فَرِيضَـةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(1) تعتبر لفظة حكيماً جزءاً من جملة مستقلة تركيبـياً ﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وقد كانت هذه الجملة بمثابة تعليق على الآية جميعها.

ب- وقـد تكـون اللفظـة المسـجوعة كلمة مكملة لمعنى الآية التى هى فيها معمولـة مـن حيـث الحكـم الـنحوى لعامل تقدّم فى بناء الآية قبل استيفاء معـناها، وإذا وردت الفاصـلة فـى هـذه الحالات جملة فهى جملة قصيرة قد اكـتفى فـيها بذكـر أحـد أركانهـا ويـترك لسـبل التداعى الذهنى ملاحظة المضـمر - وخـير شـاهد علـى ذلـك السور ذات الآيات القصار، كالنجم، والواقعة، والقمر، والرحمن وغيرها.

ج- وقـد تكـون اللفظـة المسـجوعة كلمـة مكملـة لمعنى آية سابقة امتدت هيمنـتها الـنحوية لتشـمل الآية التالية حيث تكتمل الجملة، مثال قوله تعالى: ﴿وَمِـن دُونِهِمَـا جَنَّـتَانِ، فَـبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَانِ، مُدْهَامَّتَانِ، فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَـا تُكَذِّبَـانِ﴾.(2) هكـذا تتصـل كلمـة مدهامتان نحويًا بقوله تعالى ﴿وَمِـن دُونِهِمَـا جَنَّـتَانِ﴾. إذ تمـثل صـفة تقدّم موصوفها (جنتان) فى هذه الآية.

* * * *

وتبدأ مقدمة (سورة الزخرف) بعد الحروف المقطعة (حم)(3)، بمعنى نحوى عـام هـو "القسم" الذى يتحرك أثره أفقياً ممثلاً عامل ربط يحقق التماسك على مسـتوى أعلى من مستوى الجملة الواحدة والآية الواحدة -مستوى نصى- ذلك بإنشاء توكيد للكلام يقوم على عنصرين يتوزعان فى ثلاث آيات، الآية الأولى: تتضـمن تحصـيناً للخبر اللاحق من تردد المخاطبين فى تصديق مضمونه أو

---

(1) سورة النساء: ٢٤.

(2) الرحمن: ٦٢- ٦٥.

(3) الزخرف: ١.

الشك فيه أو رفضه، ذلك باعتماد سلطة المقسم به -﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[1]- والمفترض الماقبلى هنا هو أن المخَاطَب أيضاً يؤمن بعظمة المقسم به، وبأنه آية كبرى يشهد لها من آيات الدين الجديد وإن عاند فى قبوله أو الدخول فيه. بيد أن القسم لا يستقيم بنفسه وإنما يفتقر إلى كلام بعده يكمله هو (المقسم عليه)، فيأتى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾،[2] محتوياً مضمون الخبر الذى يتوقع رفض المخاطبين له، فكان القسم قصداً إلى إحداث تغيير فى موقفهم بالتأكيد على صدق الخبر المقسم عليه. وهو من الأيمان الحسنة البديعة - على حد تعبير الزمخشرى- "لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد، ونظيره قول أبى تمام وثناياك إنها إغريض".[3]

وتربط علاقة الوصفية الفاصلة المسجوعة "المبين" بسياقها المجاور "الكتاب". والعلاقة بين الصفة وموصوفها تنتج نوعاً من التلاحم القوى بين العنصرين، انتبه إليه كثير من القدامى فرأى ابن السراج أن "النعت والبدل هما الأول [أى المنعوت والمبدل منه]"[4] وقال سيبويه عن النعت والمنعوت أنهما بمنزلة الاسم الواحد[5] وقال السهيلى: "الحال هى صاحب الحال فى المعنى، وكذلك النعت والتوكيد والبدل كل واحد من هذه هو الاسم الأول فى المعني"[6] وقال عبد القاهر: "اعلم أن الصفة

---

(1) الزخرف: ٢.

(2) الزخرف: ٣-٤.

(3) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، الزمخشرى، جـ٣، ص٤١١.

(4) الأصول فى النحو، ابن السراج أبو بكر محمد بن السرى البغدادى (ت ٣١٦هـ)، ت عبد الحسين الفتلى، النجف الأشرف، مطبعة النعمان، ١٩٧٣، جـ٢، ص ٣١٩.

(5) انظر: الكتاب، سيبويه، جـ١، ص ٢٦٠.

(6) نتائج الفكر فى النحو، أبو عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى المتوفى ٥٨١هـ، ت: محمد إبراهيم البنا، دار الرياض للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤، ص٣٨٧.

هى الموصوف فى المعني". [1]

والواقــع أنــه يكمــن فــى البنية المضمرة ضمير مستتر هو الذى يربط النعــت المفــرد "المشــتق" بمــنعوته، فالمشــتق يــدل علــى حدث مسند إلى صــاحبه أو نائــب عــنه، وهــو مــا تؤديــه علاقة الإسناد فى الجملة الفعلية فالبنــية المضــمرة لقولــه تعــالى: (الكــتاب المبيــن)، هــى: الكتاب "يبين الكتاب".

لكــن لمــا أريد للصفة ثبوتها وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل جئ بالاسم المشتق الذى يحمل ضمناً ضميراً مستتراً يربط النعت بمنعوته ربطاً قوياً لا يجوز معه الفصل بينهما إلا بجمل الاعتراض كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [2].

وتــتعدد التراكيــب الوصــفية الــتى طــرفها النعتى لفظ (مبين) حالاً فى موضــوع الفاصــلة بحيــث بلغــت واحــداً وتسعين تركيباً على مدار النص القــرآنى، تــدور حــول موصــوفات محــددة تكــرر نعتها بذلك اللفظ. وهى الكلمــات: عــدو، ســحر، نذيــر، ثعــبان، ضــلال، ساحر، سلطان، شهاب، إمــام، خصــيم، الــبلاغ، لســان، إفــك، الحق، ، شىء، الفضل، غوى، إثم ، بــلاء، ظــالم، الخســران، رســول، دخــان، كفــور، الفــوز، الأفق، القرآن (الكــتاب). وقــد بلغــت مــرات وصــف "الكــتاب" بكونه مبيناً إحدى عشرة مــرة، ويقــدم الســياق النصــى لهذا التركيب الوصفى أكثر من إمكان دلالى ، فهــو علــم الله، وهــو اللــوح المحفــوظ المفصل لكل أمر وكل شىء وهو القــرآن الكــريم، وهــو الســورة مــن القرآن. إنه الكتاب "البيّن للذين أنزل علــيهم لأنــه بلغــتهم وأســاليبهم وقيل: الواضح للمتدبرين وقيل المبين الذى أبــان طــرق الهــدى من طرق الضلالة وأبان ما تحتاج إليه الأمة فى أبواب الديانة". [3]

---

(١) المقتصــد فــى شــرح الإيضــاح، عــبد القاهــر الجرجانى، ت: كاظم بحر المرجان، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢، جـ٢، ص٩٠٠.

(٢) الواقعة: ٧٦.

(٣) الكشاف، الزمخشرى، جـ٣، ص٤١١.

وتعلــن مــتابعة البنـــية التركيبـــية فى النص القرآنى عن توظيف علاقة الوصـــفية بشـــكلها المعـــيارى فـــى ٥٨٠ آية جاءت فيها الفاصلة المسجوعة نعــتاً مناســباً لمــنعوته، وإذا كانـــت أجـــزاء القرآن ثلاثين جزءاً، فإن معدل الــتردد يــبلغ تســع عشــرة مرة تقريباً للجزء الواحد، ترتفع نسبة التردد إلى ٢٤ مــرة إذا اعتــبرنا أن الفاصـــلة فـــى مـــثل قولـــه تعـــالى: ﴿إِنَّــكَ أَنتَ الْعَلِــيمُ الْحَكِــيمُ﴾[1] صـــفة وليســـت خـــبراً ثانـــياً. "فالحكـــيم" خبر ثان أو صـــفة للعلـــم علـــى قـــول مـــن أجاز صفة الصفة، ومنهم أبو البقاء العكبرى (٥٣٨-٦١٦ هــــ) الـــذى أقـــر ذلـــك، إذ يقـــول: "وهـــو [أى القول بصفة الصـــفة] صـــحيح؛ لأن هـــذه الصـــفة هـــى الموصـــوف فى المعنى، والعليم بمعـــنى العـــالم، وأمـــا الحكـــيم فـــيجوز أن يكـــون بمعنى الحكم، وأن يكون بمعنى المحكم"[2].

ويـــدل معدل التردد هذا على ميل إلى توظيف علاقة الوصفية فى الموضع الخـــتامى للآيـــات، وهو ما يعني توخي التحديد والتخصيص بما لهما من دلالة تأسيســـية إذ تضيف الصفة زائداً دلالياً، هو عبارة عن تغلغل أعمق فى تفاصيل تتعلق بالموصوف، فيتم خلال ذلك توضيحه أو مدحه أو ذمه أو تأكيده أو الترحم علـــيه إلى آخره. والملاحظ أن النص القرآنى يزخر بكم من الصفات المتكررة الـــتى تقـــع فى موضع السجعة واصفة لكلمات يمكن تصنيفها -بوصفها دوالاً- داخل حقول موسعة على النحو الآتى:

- الحقـــل الأول: الـــذى يـــأخذ نوعاً من الهيمنة **هو حقل (جماعة البشر)** وله مفرداته: قوم- إناس- شرذمة- جميع- خلق ترددت هذه المفردات ستاً وثمانين مـــرة وسعته آتية من اتصال الموصوف الواحد -(قوم)- بسمات سلبية وأخرى إيجابـــية مـــن مـــثل: قوماً صالحين أو قوماً فاسقين إلى آخره. ويرد فى سورة الزخرف: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[3]، و﴿...بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.[4]

---

(١) البقرة: ٣٢.

(٢) التبـــيان فـــى إعـــراب القـــرآن، أبـــو الـــبقاء العكبرى، مكتبة الدعوة، بالأزهر، د.ت، جـــ١، ص٢٩.

(٣) الزخرف: ٥٤.

(٤) الزخرف: ٥٨.

- الحقـل الـتالى: **حقـل العقـاب** ويضـم سبع مفردات ترددت اثنتين وستين مـرة ومفـرداته: عـذاب - بـلاء - حمـيم - نار - حصيد - أخذ - رجز حيـث يشـير الحقـل جملـة إلـى ما ينتظر الكافرين العاصين لحدود الله من عقاب فى الآخرة.

- ويـتدخل **حقـل الـثواب** ليمـثل خطاً مقابلاً للحقل السابق وتتردد مفرداته التسـع سـبعاً وأربعيـن مـرة وهى (الفوز - أجر - رزق - نعيم - علواً - الدرجـات العلـى - جـنة - مدخـل كـريم - عيشـة راضية)؛ إنها الجزاء الذى ينتظر المؤمنين بالله المطيعين الخاشعين.

- أمـا **حقـل (التبلـيغ)** فيضـم سـبع مفـردات تـرددت ثلاثاً وثلاثين مرة ويـتجلى الحقـل فـى المفـردات: نذير، ناصح، البلاغ، قول مَيسور، رسول، صدّيق، مصطفى.

- ويـأتى **حقـل الكـتاب** لـيقدم سـتة دوال، تـرددات واحداً وثلاثين مرة، وهـى: كـتاب، قـرآن، لسـان عـربى، صحف، رق منشور، الحق المبين. وقد سبق تبيين المعانى المختلفة للفظة "كتاب" فى القرآن الكريم.

- ويـتدخل **حقـل الصـفات والأفعـال السـلبية** باثنتين وعشرين مفردة هى: يـؤوس، خصـيم، مخـتال، كـاذب، فساد، ظلوم، خوّان، إفك، بهتان، عتو، إثم، كذاب، معتد، مكْر، فاجر، ظالم، شقاق، أفاك، كفار، خطأ، حلاف.

- وفـى المقـابل يـأتى **حقـل الأفعال الإيجابية** بمفردتين هما: إمام، صبار، ويتكرران خمس مرات.

- ويـأتى **حقـل يجمـع جملـة مـن الظواهر الكونية** هى: السحاب، شهاب، السـموات، قمـر، الفلـك، طيـن، دخـان، ريح، لؤلؤ، الأفق، عين، حدائق. وتتردد اثنتين وعشرين مرة.

- ويضم **حقل المكان** أربع عشرة مفردة ترددت اثنتين وعشرين مرة، وقد اتخذ هـذا الحقل دوالا مختلفة، غطت بدلالتها جميع الاتجاهات المكانية، عمودياً بما يشمله من بعدى (الأعلى والأسفل)، وأفقياً بما يتضمن من مسارات متعددة، وبما يشـير إلـيه من تنوع المساحة المكانية. وقد اختلفت المفردات التى تنتمى إلى

المستوى العمودى فبعد الأعلى كانت مفرداته: لفظ مكان موصوفاً بـ (علياً)، ولفظ علوا، والسموات، وجنة عالية، ومرفوعة، والأفق. أما مفردات بعد الأسفل، فكانت: قرار، عين آنية. أما عن المستوى الأفقى فإنه يركز على إبراز المساحة المكانية من خلال وصف لفظ مكان بالأوصاف (قريب، بعيد، قصى) كما أن ثمة نقاط ارتكاز محددة على ذلك المستوى تعينها المفردات (بيت، ركن، بيوت، مدخل).

- أما **حقل (الزمان)** فيضم خمس مفردات تتردد تسع عشرة مرة وهى: اليوم، أجل، سنين، قرون، ليل) ويأخذ هذا الحقل هنا خاصية متميزة، إذ تتحرك المفردات خلال إطار زمنى موسّع شمل حلقات ثلاث تعبر عن الدنيا والموت والآخرة، فحلقة الزمن الأول (الدنيا) تتحقق فيما يرتبط بها من تعاقب لليل والنهار وتكاليف العبادة فيهما، وفى لفظ (قرون) معبراً عن السابقين الأوائل فى الدنيا. فى حين تتحقق الحلقة الثانية فى لفظ (سنين) الذى يتوجه بدلالته إلى فترة الغفوة الطويلة ما بعد الحياة أى زمن الموت. أما الحركة الثالثة فجاءت مرتبطة بها الألفاظ (يوم – أجل) الأكثر تردداً فى حقل الزمن بأجمعه، وقد اتخذ البعد الزمنى فى هذه الحلقة طابعاً مميزاً من حيث الأسلوب البنائى الذى يتصف بإثبات مهام الزمن الثالث، وهو زمن الحساب والعقاب الإلهى فى الحياة الآخرة، فنلاحظ ورود لفظى (يوم وأجل) فى إطار معنى الجزاء. وبالنظر إلى المفردات التى تشير إلى ذلك المعنى لوحظ اقتران لفظ يوم وألفاظ العذاب والويل فى البناء السياقى، كما فى قوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[1] وقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[2].

---

(١) الزخرف: ٦٥.

(٢) هود: ٣. وقد اقترن لفظ يوم ولفظ العذاب والويل فى الآيات التالية كذلك هود (١٠٣-١٠٤)، مريم (٣٧)، الحجر (٥٥)، الشعراء (٣٨،١٥٥،١٥٦)، القمر (٨)، المدثر (٩)، الإنسان (١٠،٣١)، وسورة البروج (٢).

- ومن الحقول التى تمثل خطا أساسياً **حقل الضلال**. ويتجلى فى ثلاث مفردات هى: (ضلال، مضل، غوى) إحدى وعشرين مرة.

- ويأتى **حقل صفات الخالق** عز وجل فيضم ست مفردات تتردد سبع عشرة مرة هى: (رب العرش- ذو الفضل- له الأسماء الحسنى- العلى- الحق- مليك).

- وتحت **حقل الصراط** تندرج مفردتى (الصراط - الطريق) وتترددان اثنتى عشرة مرة.

- ويقدم **حقل الشيطان** أربعة مفردات تتردد خمس عشرة مرة هى: (شيطان- عدو- خصيم- وسواس).

- ثم إن هناك **حقل الماء**، ويضم مفردتى (الماء وشراب) بتردد تسع مرات.

- **ولحقل الكائنات غير البشرية** حضور لا ينكر لموصوفات من حيوان وطير ونبات.

- ويتردد **حقل الحيوان والطير** سبع مرات ومفرداته (قردة- ثعبان- جراد- طير- عجل).

- أما **حقل النبات** فيتردد أربع مرات ومفرداته (نخل- نبات- رطب).

- وتتوجه الوحدات المنعوتة فى الموضع الختامى للآيات إلى دلالة جديدة؛ هى **دلالة السحر والشعر** وما يتصل بهما أحياناً من معنى الإفك ومفرداته (سحر- شعر- إفك) بتردد ست عشرة مرة.

- ويأتى **حقل الإنسان** بعدد من الألفاظ التى تدل على تقسيم عمرى متنوع يتردد خمس عشرة مرة وهى: (رجل- غلام- آباء- شيخ- عجوز) بالإضافة إلى ألفاظ من مثل (زوج- عبد- بشر).

- ومن الدلالات التى تفرزها الألفاظ الموصوفة **دلالة القوة**، ويعبر عنها الألفاظ (سلطان - جبار -قوى) بتردد خمس عشرة مرة.

- هذا وتتردد المفردات الدالة على **أعضاء الجسد** ست مرات فى خمس مفردات هى: (قلب- أذن- نفس- عظام- أيدى).

كانت هذه كل حقول الموصوفات القرآنية التى وصفتها فواصل مسجوعة، ومن الظواهر الأسلوبية التى تتبيّن أثناء هذا العرض أن هناك تراكيب وصفية بعينها تتكرر فى ذلك الموضع الختامى من الآيات الذى

أنيط به أداء وظيفة تأسيسية، ويتجلى ذلك من خلال كثافة حضور التركيب الوصفي فيه.

* * * *

وقد بدأت سورة الزخرف بنبرة قوية صاعدة جاءت مع التأكيد بالقسم، ثم ازدادت النبرة صعوداً وتركيباً مع المقسم به، ممتدة في عبارتين تأكيديتين الأولى منهما، ملحقة بتعليل مشرب بالرجاء. هذا وقد اختتم بناء الآية بفعل متعد حذف مفعوله في قوله تعالى: ﴿... لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.[1] ويفسر الزمخشري لفظ "لعل" الممثل للسياق التجاوري للفاصلة بقوله: "لعل مستعار لمعنى الإرادة لتلاحظ معناها ومعنى الترجي؛ أي خلقناه عربياً غير عجمي إرادة أن تعقله العرب ولئلا يقولوا لولا فصّلت آياته"[2].

ويتوقف عند هذا اللفظ في موضع آخر في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[3] قائلاً "لا يجوز أن يحمل على رجاء الله تقواهم لأن الرجاء لا يجوز على عالم الغيب والشهادة، وحمله على أن يخلقهم راجين للتقوى ليس بسديد أيضاً[4] ولكن "لعل" واقعة في الآية موقع

---

(١) الزخرف: ٣.

(٢) الكشاف، الزمخشري، جـ٣، ص٤١١.

(٣) البقرة: ٢١.

(٤) يبدو أن الزمخشري يرد على رأي أهل السنة الذي نجد إيضاحه لدى ابن المنير حيث رأى أن الزمخشري "أخطأ في تفسير لعل بالإرادة لأن مراد الله تعالى كائن لا محالة فلو أراد منهم أن يعقلوه لعقلوه، ويعلل خطأ الزمخشري بأنه أجرى تفسيره على قاعدة فاسدة تتمثل في اعتقاده أن مراد الرب كمراد العبد منه ما يقع ومنه ما يتعذر -حاشا لله- ويتبنى ابن المنير تفسير سيبويه للفظ لعل بأنه منصرف إلى المخاطَب في قوله تعالى (لعله يتذكر أو يخشى) "كأنه قال كونا على رجائكما في تذكره وخشيته". الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، ناصر الدين بن المنير، ضمن كتاب الكشاف للزمخشري، جـ١، ص ٦٩. والمعنى عند أهل السنة (ليصح منكم رجاء التعقل). يقف الزركشي موقفا توضيحيا إذ يقول

المجاز لا الحقيقة لأن الله عز وجل خلق عباده ليتعبدهم بالتكليف، وركب فيهم العقول والشهوات، وأزاح العلة فى أقدارهم.. وهداهم النجدين، ووضع فى أيديهم زمام الاختيار وأراد منهم الخير والتقوى. فهم فى صورة المرجو منهم أن يتقوا ليترجح أمرهم مختارون بين الطاعة والعصيان كما ترجحت حال المرتجى بين أن يفعل وأن لا يفعل". (١)

وفى الصيغة (يعقلون) يسرى زمن سياقى داخلى، يتحدد من خلال مجالها التركيبى مع الحرف الناسخ (لعل) والذى يقوم بتوجيه المعنى الزمنى للصيغة بما يسع الحاضر والمستقبل، إذ إن تحديد المعنى الزمنى يعتمد فى المقام الأول، السياق اللغوى العام، وكذلك سياق الحال أما الصيغة فدورها ثانوى، ذلك أن الزمن نوعان: "زمن صرفى تحدده الصيغة فى مجال بنائها الإفرادى، وزمن يتحدد فى مجالها التركيبي"(٢). وقبل ألف عام ويزيد كانت دراسة المفسرين للزمن تمتاز عن دراسة النحويين بكونها "دراسة وظيفية دلالية، لا تكتفى بالفعل وحده، أو بالأداة التى تسبقه أو تلحقه بل تعتمد فى المقام الأول على الملابسات والسياق الذى يتحرك لهما الفعل". (٣)

"عسى ولعل من الله تعالى واجبتان" وإن كانتا رجاء وطمعاً فى كلام المخلوقين... والوجه فى استعمال هذه الألفاظ أن لها نسبتين نسبة إلى الله تعالى، تسمى نسبة قطع ويقين، ونسبة إلى المخلوقين، وتسمى نسبة شك وظن، فصارت هذه الألفاظ لذلك ترد تارة بلفظ القطع بحسب ما هى عليه عند الله... وتارة بلفظ الشك بحسب ما هى عليه عند المخلوقين كقوله: "فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى"، وقد علم الله حين أرسلهما ما يفضى إليه حال فرعون، لكن ورد اللفظ بصورة ما يختلج فى نفس موسى وهارون من الرجاء والطمع، فكأنه قال: انهضا إليه وقولا فى نفوسكما، لعله يتذكر أو يخشى". البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، جـ٤، ص١٥٩.

(١) الكشاف، الزمخشرى، جـ١، ص٤٥.

(٢) الزمن فى القرآن الكريم دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه -بكرى عبد الكريم، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩، جـ٢، ص ٣٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٦.

وحذف ضمير الغياب الواقع مفعولاً به من نهاية الفاصلة فى **(لعلكم تعقلون)** لـيس غريباً فى القرآن الكريم الذى نزل بلغة العرب. ولا يكاد يخلو مؤلف فى النحو العربى وعلم المعانى وإعجاز القرآن وتفسيره من الحديث عن الحذف فى القـرآن، والإجمـاع قـائم على أن المحذوف يفضّل أن يكون ثانياً فى القول[1] ويكثر فى آخر الجملة، لأنه يغتفر فى الأطراف ولا يغتفر فى غيرها. والعبدى يعلـل ذلـك بأن "التجوز فى أواخر الجملة أسهل"[2] غير أن هذه المقولة غير كافية فى تبرير سبب الحذف الذى يشكل ملمحاً أسلوبياً فى غير الفاصلة أيضاً، ومـن ذلـك حـذف الـياء فـى قوله عز وجل: ﴿.. فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَـاكُم...﴾[3] وحذفهـا فى قوله: ﴿..فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[4] ومنه ﴿...لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[5] و﴿...سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[6]، ﴿..وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾[7] و﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾[8] ﴿...وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾ [9]

وفـى عيـنة ممـثلة للـنص القـرآنى تبيـن أن الحـذف الملازم للسجع وفاصـلته، يكتسـب بحكـم تـردده الكمـى فـى خـتام الآيات القرآنية، قوة الظاهـرة الأسـلوبية فيطالعـنا الحـذف فى ختام سبعين آية من سورة البقرة، وفـى خمسـين آيـة مـن سـورة الأعـراف، وفـى عشرين أية من سورة الزخـرف هـى الآيـات: (٣- ١٢- ١٩- ٢٦- ٢٧- ٢٨- ٣٢- ٤٤- ٤٨- ٥٠- ٥١- ٦٣- ٦٦- ٧٢- ٧٩- ٨٠- ٨٢- ٨٦-٨٨- ٨٩)،

---

(١) يذهـب ابـن هشـام إلـى أنه: "إذا دار الأمر بين كون المحذوف أولا أو ثانيا أو ثالثا فكونـه ثانـيًا أولـى". مغـنى اللبيـب، ابن هشام ت ٧٦١هـ، دار إحياء الكتب العلمية، فيصل عيسى البابى الحلبى، د. ت، جـ٢، ص ١٦٣.

(٢) المرجع نفسه، جـ٢، ص ١٦٢.

(٣) النمل: ٣٦.

(٤) هود: ٤٦.

(٥) الإسراء: ٦٢.

(٦) العلق: ١٨.

(٧) الشورى: ٢٤.

(٨) القمر: ٦.

(٩) الإسراء: ١١.

ويحـــدث الحـــذف فـــى الحـــرف والكلمـــة والعـــبارة والجملة. وقد أفرد ابن هشام قسماً عن قضايا متعلقة بالحذف وأنماطه.(١)

ويعـــرض هـــنا ســؤال: هـــل حجـــب النص لأحد عناصره بالحذف يخل بالتماســـك الجملـــى أو النصـــى؟ إذا كان من المعلوم أن الضمائر تمثل عامل ربـــط اللاحـــق بالســـابق. فكـــيف يـــتفق الحـــذف هنا مع ما جاء على لسان علمـــاء العربـــية مـــن أن أحـــد وجوه الإعجاز القرآنى هو حسن تأليفه والتئام كلمه؟

إن هـــذا الســـؤال يمـــثل جوهـــر الإشـــكالية التى انطلق منها القدماء فى معالجـــتهم لموضـــوع الحـــذف. ولقـــد تحـــدث السيوطى عن تحقق التماسك مـــع وجـــود الحـــذف وذلـــك أثـــناء رصده أحد أنواع الحذف، وهو المسمى **بالاحتـــباك أو الحـــذف المقـــابلى** وفقـــاً لما يطلق عليه الزركشى(٢) وقد أرجع الســـيوطى تلـــك التســـمية إلـــى أن مواضـــع الحذف من الكلام شبهت بالفرج بيـــن الخـــيوط، "فلمـــا أدركهـــا الـــناقد البصـــير بصـــوغه الماهر فى نظمه وحوكـــه فوضـــع المحـــذوف مواضـــعه كان حابكا له مانعاً من خلل يطرقه، فســـد بـــتقديره مـــا يحصـــل بـــه الخلل مع ما أكسبه من الحسن والرونق"(٣).

---

(١) انظـــر التفصـــيل فـــى: مغـــنى اللبيـــب، ابـــن هشام، جـــ٢، ١٦٢– ١٧٦. والبرهان فى علوم القرآن، الزركشى، جـــ٣، ص ١١٧– ٢١٥.

(٢) البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، جـــ٣، ص ١٢٩.

* والحـــذف المقابلى هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى. ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول... وقال الزركشى: "هو أن يجتمع فى الكلام متقابلان، فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه كقوله تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنـــا بـــرىء مما تجرمون﴾. الأصل: فإن افتريته فعلى إجرامى وأنتم برآء منه، وعليكم إجرامكم وأنا برىء مما يجرمون" البرهان، الزركشى، جـــ٣، ص ١٢٩. ويقول السيوطى: "ومـــأخذ هـــذه التسمية من الحبك الذى معناه الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة فى الثوب، فحـــبك الثوب سد ما بين خيوطه من الفرج وشده وإحكامه، بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسن والرونق". الإتقان فى علوم القرآن، السيوطى، جـــ٣، ص ١٨٣.

(٣) الإتقان فى علوم القرآن، السيوطى، جـــ٣، ص ١٨٣.

ولدينا الكثير مما تتمخض عنه الفقرة السابقة، فهى تتضمن الضوابط التى تحكم ظاهرة الحذف، والشرط الأول هو ضرورة وجود دليل على المحذوف يحقق بوضوحه المرجعية حيث يشهد الحاضر على الغائب. وفى قوله تعالى من سورة الزخرف ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1] الدليل مقالى والمرجعية واضحة بين مكان المحذوف المتأخر والمذكور سابقاً.

إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [ــه]

Ø

مرجعية داخلية سابقة

وإذ يقوم المتلقى بتحديد المحذوف فإنه يمارس ما أسماه "هاليدى" و"رقية حسن" إبدالاً من الصفر،[2] فالمكان الخالى الذى بين القوسين فى الآية السابقة يعد من وجهة نظرهما صفراً، ولكى يحدث التماسك الجملى لابد من أن ينشأ إبدال فى وعى المتلقى بين (قرآناً عربياً) الذى فى الجملة الأولى أو ما ينوب مكانه من ضمير الغياب والصفر فى الجملة الثانية. ومن خلال المرجعية المتحققة والإبدال عن دليل وبينة يتبدى التماسك، ويبدو أن الحذف يجئ من قبيل احتفاء العربية بإشارية اللغة اكتفاء بالعناصر السياقية الحاضرة المعبرة عن الدال الغائب. وللحذف فى الآية السابقة وظائف مهمة، فعلاوة على ما يؤديه الحذف من حفاظ على موسيقى السجع فهو يستحث المتلقى على المشاركة فى إعادة كتابة النص وملء فراغاته، إنه يؤدى وظائف نصية وبلاغية ذات قيمة، فالحذف فى الآية إنما كان لدلالة المقال بما يعطى للمتلقى مفتاح الإجابة عن سؤاله: ما المحذوف هنا؟.

* * * *

وثمة ظاهرة نحوية تتكرر، نرصدها فى الآية الخامسة من سورة

---

(١) الزخرف: ٣.

(2) Cohesion in English language, M. A. K. Halliday and Ruqaiya Hasan, fifth imprecision 1983. p. 142.

الزخـــرف: ﴿أَفَنَضْــرِبُ عَــنكُمُ الذِّكْــرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾[1] إذ تـــأتى علاقـــة الوصـــفية لـــتربط الفاصلة المسجوعة، والمعنى هو: "أفنعزل عـــنكم إنـــزال القـــرآن وإلـــزام الحجـــة به إعراضاً عنكم"[2] لأن كنتم قوماً مسرفين وقُرِئت (إذ كنتم) على الشرط[3].

وتســـهم مجموعـــة العلاقـــات الـــتجاورية مع الفاصلة فى تحديد المعنى المســـتفاد مـــن الآيـــة، حيـــث تحمـــل الآية معنى زمنى هو تمام الحدوث فى الماضـــى؛ أى البـــت والقطـــع بـــأنهم كـــانوا مســـرفين حقـــا. وقـــد تنـــبه الزمخشـــرى إلـــى الإشـــكال الـــذى تحملـــه قـــراءة (إن كنتم) بالكسر -وهى القـــراءة المخـــتارة عـــنده- قـــال: "فـــإن قلت كيف استقام معنى إن الشرطية وقـــد كـــانوا مســـرفين علـــى البـــت. قلـــت هـــو من الشرط الذى ذكرت أنه يصـــدر عـــن المـــدل بصـــحة الأمر المتحقق لثبوته كما يقول الأجير إن كنت عملـــت لـــك فوفـــنى حقـــى وهو عالم بذلك ولكن يخيل فى كلامه أن تفريطك فـــى الخـــروج عـــن الحـــق فعـــل مـــن له شك فى الاستحقاق مع وضوحه؛ استجلالاً له"[4].

* * * *

ثـــم يصـــرف الخطـــاب عـــن القـــوم المسرفين إلى رسول الله صلى الله علـــيه وســـلم: ﴿وَكَـــمْ أَرْسَـــلْنَا مِـــن نَّبِـــيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾[5] وكلمة (الأولين) "الفاصـــلة" تتماســـك فـــى ســـياقها مـــن خلال حرف الجر (في) فإن حروف الجـــر -وفقمـــا يـــراها الـــنحاة- إنمـــا تجـــئ لتوصـــيل بعـــض الأفعال إلى الأسماء.[6]

---

(١) الزخرف: ٥.

(٢) الكشاف، الزمخشرى، جـ٣، ص٤١١.

(٣) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٤١١.

(٤) المصدر نفسه، جـ٣، ص ٤١١.

(٥) الزخرف: ٦.

(٦) انظر: المقتصد فى شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجانى، جـ١، ٢٧٤- ٢٧٥.

وتقابلـــنا خاصـــية أســـلوبية جديـــدة تثبت الدراسة الرأسية للنص القرآنى أنهـــا ملاحظـــة للفظـــة المســـجوعة بشـــكل واضح، فيتقدّم الجار والمجرور علـــى مـــتعلقه فـــى قولـــه تعـــالى: ﴿وَمَـــا يَأْتِـــيهِم مِّـــن نَّبِـــيٍّ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْـــتَهْزِؤُونَ﴾[1] وهـــذا ملمـــح أخـــر من ملامح الترخص فى جملة الفاصلة القرآنـــية، قـــام البحـــث بمـــتابعة كشفية له على مدار سورة الزخرف ثم على مـــدار الـــنص؛ ليتبيـــن إذا كـــان يمـــثل خاصـــية أسلوبية تتبدى فى موضع الســـجع القـــرآنى أم لا. والتصـــرف فـــى نظـــم جملـــة الفاصـــلة بالـــتقديم والتأخـــير الـــذى يـــتم خلالـــه تحـــريك الدوال من أماكنها الأصلية إلى أماكن طارئـــة، كـــان مـــن القضـــايا التى أولاها جمهور العلماء كبير عناية، إذ أثير ســـؤال: (حـــول ســـر التشـــكيل الطـــارئ علـــى النظام التركيبى للغة بالتقديم والتأخـــير) وقـــد تـــم تقويـــس ذلك السؤال من قبل العقل البلاغى والتفسيرى، خاصـــة مـــع وجـــود (٨٣٢) موضـــعاً بالقـــرآن تجلى فيها التقدم والتأخير- بانواعـــه المخـــتلفة- بمـــا مكـــن لحلـــول اللفظـــة المسجوعة فى موقعها من الصياغة. أنظر الجدول الآتى:

رقم السورة	اسم السورة	مرات التقديم والتأخير فى ختام الآية
١	الفاتحة	١
٢	البقرة	٣٦
٣	آل عمران	١٨
٤	النساء	١٥
٥	المائدة	١٨
٦	الأنعام	١٨
٧	الأعراف	٣٣
٨	الأنفال	١٢
٩	التوبة	١٤
١٠	يونس	١٣
١١	هود	١٩

(١) الزخرف: ٧.

١٢	يوسف	١٧
١٣	الرعد	٩
١٤	إبراهيم	٨
١٥	الحجر	١٢
١٦	النحل	٢٣
١٧	الإسراء	١٦
١٨	الكهف	٢٤
١٩	مريم	١٨
٢٠	طه	١٤
٢١	الأنبياء	٣١
٢٢	الحج	١١
٢٣	المؤمنون	٣٨
٢٤	النور	٦
٢٥	الفرقان	١٢
٢٦	الشعراء	٢١
٢٧	النمل	٥
٢٨	القصص	١١
٢٩	العنكبوت	١٢
٣٠	الروم	١٤
٣١	لقمان	٣
٣٢	السجدة	٨
٣٣	الأحزاب	٤
٣٤	سبأ	١١
٣٥	فاطر	٨
٣٦	يس	٢٠
٣٧	الصافات	١٠
٣٨	ص	٤
٣٩	الزمر	٥

٤٠	غافر	١٠
٤١	فصلت	١١
٤٢	الشوري	٦
٤٣	الزخرف	٢٤
٤٤	الدخان	٤
٤٥	الجاثية	٩
٤٦	الأحقاق	٤
٤٧	محمد	١
٤٨	الفتح	٤
٤٩	الحجرات	١
٥٠	ق	٩
٥١	الذاريات	٩
٥٢	الطور	٦
٥٣	النجم	١٠
٥٤	القمر	١
٥٥	الرحمن	٣١
٥٦	الواقعة	–
٥٧	الحديد	٥
٥٨	المجادلة	٤
٥٩	الحشر	١
٦٠	الممتحنة	١
٦١	الصف	—
٦٢	الجمعة	—
٦٣	المنافقون	—
٦٤	التغابن	٧
٦٥	الطلاق	٤
٦٦	التحريم	١
٦٧	الملك	٨

٦٨	القلم	٤
٦٩	الحاقة	١
٧٠	المعارج	٩
٧١	نوح	٣
٧٢	الجن	٧
٦٣	المزمل	١
٧٤	المدثر	٤
٧٥	القيامة	٥
٧٦	الإنسان	٢
٧٧	المرسلات	٣
٧٨	النبأ	٤
٧٩	النازعات	٢
٨٠	عبس	٤
٨١	التكوير	١
٨٢	الانفطار	١
٨٣	المطففين	٣
٨٤	الانشقاق	٢
٨٥	البروج	٣
٨٦	الطارق	٢
٨٧	الأعلى	—
٨٨	الغاشية	٧
٨٩	الفجر	٤
٩٠	البلد	٢
٩١	الشمس	—
٩٢	الليل	٢
٩٣	الضحى	—
٩٤	الشرح	٣
٩٥	التين	١

٩٦	العلق	١
٩٧	القدر	—
٩٨	البينة	—
٩٩	الزلزلة	—
١٠٠	العاديات	٦
١٠١	القارعة	—
١٠٢	التكاثر	—
١٠٣	العصر	—
١٠٤	الهمزة	١
١٠٥	الفيل	—
١٠٦	قريش	—
١٠٧	الماعون	١
١٠٨	الكوثر	—
١٠٩	الكافرون	—
١١٠	النصر	—
١١١	المسد	—
١١٢	الإخلاص	١
١١٣	الفلق	—
١١٤	الناس	—

المجموع الكلى للآيات القرآنية المسجوعة: ٤٨٢٧ آية.
مجموع الآيات المسجوعة التى حدث فيها تقديم وتأخير مما هيّأ للفاصلة الاستقرار فى موضعها: ٨٣٢ آية.

وقد جاءت بعض السور القصار خالية من التقديم والتأخير الملازم للفاصلة المسجوعة. وهى: الواقعة، الصف، الجمعة، المنافقون، الأعلى، الشمس، الضحى، القدر، البينة، الزلزلة، القارعة، التكاثر، العصر، الفيل، قريش، الكوثر، الكافرون، النصر، المسد، الفلق، الناس.

ومـــن العلماء العرب من حاول الكشف عن الغرض أو الأغراض الأصلية لذلـــك المســـلك الأســـلوبى، ومنهم من سكت عنه، ومنهم من اكتفى بالقول بأن مخالفة الأصل فى التركيب اللغوى للآيات القرآنية كان من أجل رعاية الفاصلة فحسب. وقد جعل الزركشى رعاية الفاصلة غرضاً مستقلاً من أغراض التقديم، إذ يقـــول: "الثالث: أن يكون فى التأخير إخلال بالتناسب، فيقدم لمشاكلة الكلام ولـــرعاية الفاصـــلة، كقولـــه تعـــالى: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْـــبُدُونَ﴾[1] بـــتقديم "إيـــاه" علـــى "تعـــبدون" لمشاكلة رءوس الآى، وكقوله: ﴿فَـــأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾،[2] فإنه لو أخر (فى نفسه) عن (موسي)، فـــات تناسب الفواصل، لأن قبله: ﴿...يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾،[3] وبعده ﴿إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى﴾[4]"[5].

والحـــق أن هـــذا التـــبرير قوبـــل بمقولات نقدية مضادة، فإن النظر إلى العـــدول عـــن الـــنظام الخـــاص باللغة بوصفه اختياراً وظيفياً واعتبار الدلالة أولـــى موجهاتـــه وفـــى نفـــس الوقـــت واحـــداً مـــن أهـــم منتجاته، يصطدم بالضـــرورة مـــع تلـــك الـــرؤى الـــتى تجعل التجاوز مفيداً دلالياً حيناً وغير مفـــيد أحـــياناً، يقـــول عـــبد القاهر الجرجانى فى هذا الصدد: "واعلم أن من الخطـــأ أن يقســـم الأمـــر فـــى تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيداً فى بعـــض الكـــلام وغـــير مفـــيد فى بعض، وأن يعلل تارة بالعناية وأخرى بأنه توســـعة علـــى الشـــاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه ولذاك سجعه. ذاك لأن مـــن البعـــيد أن يكـــون فـــى جملـــة الـــنظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى. فمـــتى ثبـــت فـــى تقديـــم المفعـــول مثلاً على الفعل فى كثير من الكلام أنه قد اخـــتص بفـــائدة لا تكـــون تلـــك الفـــائدة مع التأخير، فقد وجب أن تكون تلك قضـــية فـــى كـــل شـــيء وكـــل حـــال. ومن سبيل من يجعل التقديم وترك

---

(١) فصلت: ٣٧.

(٢) طه: ٦٧.

(٣) طه: ٦٦.

(٤) طه: ٦٨.

(٥) البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، جـ٣، ص ٢٣٤.

التقديم سواء، أن يدعى أنه كذلك فى عموم الأحوال، فإما أن يجعله شريجين، فيزعم أنه للفائدة فى بعضها، وللتصرف فى اللفظ من غير معنى فى بعض، فمما ينبغى أن يرغب عن القول به"[1].

وهذا يعنى أن أية دراسة للتقديم والتأخير لابد أن ترتد إلى النص ومقاصده، تتبع السر الخفى وراء اتجاهه إلى الترخص فى المحفوظ اللغوى بالنسبة لترتيب الدوال فى الجملة، وقد ألح عبد القاهر نفسه على أنه ينبغى أن يعرف فى كل شيء قدم فى موضع من التركيب لماذا قدم؟ وما هى الاعتبارات التى قامت عليها الصياغة؟ فلا يكفى أن يقال: "إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية؟ ولم كان أهم؟".[2] فمقولة التقديم للأهمية تحتاج إلى مراجعة وتحرك مزدوج على مستويين يلاحظ خلاله كيف أن التحول الشكلى فى حركة الصياغة أفقياً يكون مصاحباً لتحول عميق، يتم فى المستوى الذهنى لاعتبارات دلالية وتأثيرية محددة هى المبررات الحقيقية للتقديم والتأخير، ومنها ما يعود مرجعه التأثيرى إلى المتكلم، ومنها ما يئول مرجعه التأثيرى إلى المتلقى، حيث يكون الغرض من التأخير والتقديم هو تشويقه أو تعجيل المسرة إليه أو المساءة إلى غير ذلك. ومن الاعتبارات ما يخص الصياغة ذاتها لإحداث موازنة صياغية، أو الحفاظ على الإيقاع، أو إنتاج دلالة التخصيص والقصر، أو التنبيه على الجانب الإعرابى المراد، ففى قول حسان بن ثابت فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

لــه هِمــمٌ لا منتهى لِكبارهـــا وهمته الصُغْرَى أجلُّ من الدّهرِ[3]

قدم الشاعر الجار والمجرور (له همم) ولم يقل (همم له) لأنه لو قدم المسند إليه (هِمَم) على المسند (له) لتوهم أنه نعت وليس خبراً. هذا وربما كانت الحركة الطارئة على الطابع المكانى للدال المتقدم أو

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانى، ص ١١٠- ١١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٨.

(٣) قيل أن ذلك البيت لبكر بن النطاح.

المؤخر استجابة لمؤثر خارجي.

صور التقديم والتأخير فى ختام الآيات القرآنية:

ويمكن حصر صور تقديم ما حقه التأخير فى الاثبات والنفى الواردة فى نهاية الآية القرآنية ممثلة عدولاً عما هو معروف من نظام اللغة فى عدة أشكال على النحو الآتى:

أولاً: تقديم المسند على المسند إليه: ويستثنى من ذلك المسند الفعلى، لأن الفعل موقعه الدائم هو التقديم على فاعله (المسند إليه) وإنما تتصرف مسألة تقديم المسند إلى الخبر ذلك أن رتبته غير المحفوظة هى التأخير.

والصياغة القرآنية التى تتجاوز مواضعات اللغة بتقديم المسند على المسند إليه تبدت فى عدة أنماط بما أحدث مغايرة تركيبية تفضى -على مستوى الفاعلية التشكيلية للصياغة- إلى تحقيق مقصدين للنص: أولهما، معنوى حيث يؤدى تغيير نسق الصياغة دوراً فى الدلالة المطروحة. والآخر، إيقاعى. إذ استثمر التقديم والتأخير لصالح نوايا النص فى المحافظة على تكرار صوت ختامى واحد فى الآيات القرآنية.

والمتابعة الكيفية تقدم عدداً من أنماط تقديم المسند الخبرى على المسند إليه التى تجلت فى نهايات الآيات المسجوعة راصدة معدلات ترددها.

النمط الأول: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر نكرة ويتكرر فى ثلاثة مواضع من الآيات المسجوعة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾.(١)

النمط الثانى: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر نكرة موصوفة ويتكرر فى أربعة وثلاثين موضوعاً، فى مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلا

(١) عبس: ٤٠.

مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.(١)

النمط الثالث: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر+ مبتدأ مؤخر + عطف ويتردد في عشرة مواضع، في مثل قول الخالق عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.(٢)

النمط الرابع: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر معرف بـ (ال) ويتردد في أحد عشر موضعاً في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾(٣)

النمط الخامس: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر معرف بالإضافة ويتردد في أربعة مواضع في مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.(٤)

النمط السادس: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر اسم موصول في ثلاثة مواضع في مثل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾.(٥)

النمط السابع: خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخر نكرة مخصصة بالإضافة في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.(٦)

---

(١) الجاثية: ١٠.

(٢) فاطر: ٧.

(٣) الرعد: ٤٠.

(٤) الرعد: ٢٥.

(٥) يس: ٥٧.

(٦) الشعراء: ١٥٥.

الـنمط الثامـن: مـا النافـية + خبر مقدم ضمير مجرور محلاً بأحد حروف الجـر + مبـتدأ مؤخـر نكـرة مجرور لفظاً بحرف الجر (من) الزائد مرفوع محـلاً، ويـتردد فـى سـبعة عشر موضعاً مثل قوله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُـوا أَهْوَاءهُـم بِغَـيْرِ عِلْـمٍ فَمَـن يَهْـدِي مَـنْ أَضَـلَّ اللَّـهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.(١)

الـنمط التاسـع: خـبر مقـدم اسم ظاهر مجرور بأحد حروف الجر + مبتدأ مؤخـر نكـرة، ويـتردد فـى خمسـة مواضع كقوله تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾.(٢)

الـنمط العاشـر: خبر مقدم اسم ظاهر مجرور + مبتدأ مؤخر نكرة موصوفة، ويـتكرر فـى ثمانية مواضع مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.(٣)

الـنمط الحـادى عشر: ما نافية + خبر مقدم اسم ظاهر مجرور باللام + مبتدأ مؤخر نكرة مجرور لفظاً بمن الزائدة مرفوع محلاً، ويتكرر فى ثلاثة مواضع، فـى مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.(٤)

الـنمط الـثانى عشر: خبر مقدم لفظ الجلالة مجرور + مبتدأ مؤخر معرف بـ (ال)، ويـتردد فى أربعة مواضع كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.(٥)

الـنمط الثالـث عشـر: خبر مقدم لفظ الجلالة مجرور + مبتدأ مؤخر معرف بالإضـافة، ويـرد فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.(٦)

---

(١) الروم: ٢٩.

(٢) يس: ٥٦.

(٣) التوبة ١٢٨.

(٤) آل عمران: ١٩٢.

(٥) النور: ٤٢.

(٦) لقمان: ٢٢.

النمط الرابع عشر: خبر مقدم لفظ " كل " مجرور + مضاف إليه + مبتدأ مؤخر نكرة، ويرد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.(١)

النمط الخامس عشر: خبر مقدم لفظ "رَبّ" مجرور + مبتدأ مؤخر نكرة ويرد في قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٢).

النمط السادس عشر: خبر مقدم لفظ "رَبّ" مجرور + مبتدأ مؤخر معرّف بـ (ال) ويتكرر في موضعين، كقوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾.(٣)

النمط السابع عشر: خبر مقدم لفظ "رب" مجرور + مبتدأ مؤخر معرف بالإضافة، ويرد في قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾.(٤)

النمط الثامن عشر: خبر مقدم ظرف + مبتدأ مؤخر نكرة ويتردد في ثلاثة مواضع مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾.(٥)

النمط التاسع عشر: خبر مقدم ظرف + مبتدأ مؤخر نكرة موصوفة، ويتردد في أربعة مواضع، كقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.(٦)

النمط العشرون: خبر مقدم ظرف + مبتدأ مؤخر نكرة معرفة بالإضافة، ويتردد في ثلاثة مواضع، مثل قوله تعالى: ﴿عندها جنة المأوى﴾.(٧)

النمط الحادي والعشرون: خبر مقدم اسم إشارة + مبتدأ مؤخر، ويرد في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾.(٨)

---

(١) الرعد: ٣٨.

(٢) القيامة: ٢٣.

(٣) القيامة: ١٢.

(٤) النازعات: ٤٤.

(٥) ق: ١٧.

(٦) ق: ١٨.

(٧) النجم: ١٥.

(٨) فاطر: ٩.

النمط الثانى والعشرون: خبر مقدم اسم استفهام + مبتدأ مؤخر، ويرد فى أحد عشر موضعاً، مثل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾.(١)

النمط الثالث والعشرون: خبر مقدم اسم موصول+ مبتدأ مؤخر، ويرد فى قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾.(٢)

النمط الرابع والعشرون: إنما + خبر مقدم + مبتدأ مؤخر، ويرد فى موضعين، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾.(٣)

النمط الخامس والعشرون: ما ... إلا، والخبر مقدم على المبتدأ ويرد فى ثلاثة مواضع كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾.(٤)

النمط السادس والعشرون: حرف أو فعل ناسخ + خبر مقدم + اسم الناسخ مؤخر ويتكرر فى خمسة وعشرين موضعاً، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.(٥)

ثانياً: تقديم المفعول ونحوه من المتعلقات على الفعل: ولقد اتجهت الصياغة القرآنية فى بعض مواضعها إلى إحداث مخالفة تركيبية للنظام اللغوى، بتقديم المفعول به على الفعل، أو بتقديم بعض المتعلقات الأخرى التى يلابسها عليه. والملاحظ أن هذا التعامل قد ازداد كثافة فى منطقة الفاصلة المسجوعة إلى درجة لافتة، فتبلغ جملة المواضع التى تم فيها تقديم الجار والمجرور على متعلقه فعلاً ومشتقاً ٥٢٨ موضعاً بنسبة ٦٣,٥% من المعدل الكلى للتقديم والتأخير فى نهايات الآيات المسجوعة، كما تبلغ جملة المواضع التى تم فيها تقديم المفعول على الفعل ٣٨ موضعاً. من هذا الإحصاء يتبين كيف أن النص القرآنى معنى بأن تكون اللفظة المسجوعة منطقة ثقل دلالى كما أنها منطقة ثقل

---

(١) الذاريات: ١٢.

(٢) الرحمن: ٤٦.

(٣) النحل: ٨٢.

(٤) العنكبوت: ١٨.

(٥) الأنعام: ١٤٢.

إيقاعى، ويتوافر ذلك لها فى صيغتها الفعلية؛ بوصف الفعل قطب تشكيل الجملة الفعلية والعقدة المركزية فيها.[1] كما تبدى ذلك التركيز الدلالى فى النمط السابق القائم على تقديم المسند الخبرى على المسند إليه حيث تأخر المبتدأ (المسند إليه) وهو قمة التركيب والعنصر الاسمى المسيطر الذى يتحكم فى عناصر أخرى تعود عليه.

وإن المتابعة الرأسية للنص القرآني تبرز وقوع اختياراته على دوال بعينها، بدت فى منطقة الفاصلة متعلقاً بها الدال المتقدم، فقد ورد متعلق العبادة الواقعة فى الفاصلة مقدماً على طريق الإثبات والنفى في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.[2] وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.[3] وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾،[4] وقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [5]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[6]، وقوله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.[7]

كما يلاحظ التردد اللافت للآيات التى ارتبط فيها التقديم بمادة

---

(١) نظرية التبعية فى التحليل النحوى، سعيد حسن البحيرى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٨، ص ١٣٢، وما بعدها.

(٢) يونس: ٢٨.

(٣) النحل: ١١٤.

(٤) القصص: ٦٣.

(٥) العنكبوت: ٥٦.

(٦) سبأ: ٤٠.

(٧) فصلت: ٣٧.

الظلم[1] ومادة الرهبة، ومواد الرجوع، الأيمان، العلم، الاستهزاء، الجحود، التوكل، الحفظ، النصر، الخلود، التقوى، الإسلام، الغفلة، الكفر.

ثالثاً: تقدم بعض المعمولات على بعض بما يخالف النظام اللغوى المعروف: ويتجلى ذلك في تقديم المفعول الثانى على الأول، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾[2]، وقوله: ﴿... فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[3]، وغيرها من الأمثلة بما بلغ ٨٥ موضعاً من الآيات المسجوعة، كما يظهر ذلك النمط فى تقديم المفعول على الفاعل فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾[4]، ويوجد كذلك فى تقديم معمول الصلة عليها كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.[5]

ولما كان الوعى البلاغى بفاعلية الترخص فى القواعد فى تشكيل الدلالة، وأنه إنما يسرى مشفوعاً بهدف ووظيفة، فقد تضمنت المحاولات البلاغية نقاشاً مطولاً حول الغرض الأصلى من تقديم المسند أو المعمول وشبهه، انبثقت عنه رؤى عديدة، فالجميع يتفق على أن التقديم هنا يفيد الاهتمام، لكن الجدير بالتسجيل هو اختلافهم حول إفادة القصر، فالقائلون به أرسوا لذلك شرطين؛ أحدهما: ألا يكون المعمول مقدماً بالوضع كأسماء الاستفهام وما ماثلها. والآخر: ألا يكون التقديم راجعاً إلى مصلحة التركيب.

---

(١) البقرة ٥٧-آل عمران ١١٧-الأعراف ١٦٠-الأعراف ١٧٧-التوبة ٧٠- يونس ٤٤- النحل ٣٣- العنكبوت ٤٠- الروم.

(٢) مريم: ٥.

(٣) النساء: ١٤١.

(٤) الحجر: ٦١.

(٥) آل عمران: ٨٥.

رابعاً: والحالة الأخيرة من أنماط التقديم والتأخير الملازم للفاصلة في القرآن الكريم، هي تقديم المسند إليه على الخبر المشتق: في مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾[1]، وفيه يتحدد التركيب بوصفه بنية تقوم على التعبير بالجملة الاسمية وجعل خبرها اسماً لا فعلاً وتقديم الضمير على الخبر المشتق ثم تقديم الجار والمجرور (لِلزَّكَاةِ)[2] على عامله (فاعلون) بما يهئ للفاصلة الاستقرار في موضعها، لكن ذلك ليس المهمة الوحيدة التي يناط بالتقديم أداؤها، فإن هناك أغراضاً أخرى أصيلة قبل ذلك، إذ تتمكن الدلالة بفضل التقديم من احتواء عدة إشارات ضمن عناصرها، فتقديم المسند إليه (هم) على الخبر المشتق (فاعلون) يفيد تقوى الحكم -كما هو الشأن في تقديمه على الخبر الفعلي- ويؤكد فعلهم أو أداءهم للزكاة. أما تقديم المعمول (للزكاة) على عاملها فإنه يشير إلى الاهتمام بأمر الزكاة بوصفها واحدة من أركان الإسلام الأساسية. وقيل أنه كان للقصر الإضافي بمعنى قصر الفعل على الزكاة بحيث لا يتعداها إلى الإنفاق فيما لا يليق -وأعتقد أنه وجه بعيد.

* * * *

بعد هذا العرض المطول للتقديم والتأخير الذي لاحظنا ظهوره بوصفه سمة أسلوبية في فواصل سورة الزخرف، ثم تابعنا رأسيًا حضوره في فواصل النص القرآني بكامله نعود ثانية إلى السورة. ويستحضر قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾[3] الطاقة الاستدعائية للمخاطب حتى تتواصل مع القصص القرآني عبر نصه الكامل، تستعرض مواقف العصاة الذين عتوا وتكبروا وتصدوا لأنبياء الله فكان جزاؤهم الهلاك. وتختم الآية بعلاقة الإضافة

---

(١) المؤمنون: ٣.

(٢) اللام في (للزكاة) لام التقوية لضعف العامل (فاعلون) لكونه اسما مع تقديم معموله عليه، ولو أخر العامل جاز سقوط اللام، فيتعدى العامل بنفسه.

(٣) الزخرف: ٨.

التي تربط دال الفاصلة بالدال المجاور في ﴿مَثَلُ الأوَّلِينَ﴾ والإضافة عند النحاة هي "ضم اسم إلى آخر مع تنزيل الثاني من الأول منزلة تنوينه أو ما يقوم مقام تنوينه، وبحيث لا يتم المعنى المقصود إلا بالكلمتين المركبتين معاً".(١)

* * * *

ومن سمات محور الاختيار في السورة الاتجاه إلى تراكيب ألف تكرارها في نهايات الآيات ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢)، ويوهم سياق الآية السابق بأن المتحدث غير الله إذ يسبقها: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾(٣) الأمر الذي يجعل من بين مكتسبات التركيب ﴿لعلكم تهتدون﴾ داخل علاقته السياقية دلالة الشك والظن بحسب ما عليه حال الخلق من الشك في الأمور الممكنة وعجزهم عن القطع على الكائن منها أو ما يكون، غير أن السياق النصي اللاحق يشي بوهم التصور أن المتحدث غير الله: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(٤)، فهنا يتحدد المتحدث جل جلاله ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ قال الزمخشري فيما ذكر من الأوصاف هو من قول الله لا من قولهم مستدلاً بالآية السابقة(٥) وأيده الإمام ناصر الدين بن المنير إذ يقول: "الذي يظهر أن الكلام مجزأ فبعضه من قولهم وبعضه من قول الله تعالى، فالذي هو من قولهم خلقهن وما بعده من قول الله عز وجل، وأصل الكلام أنهم قالوا خلقهن الله، ويدل عليه قوله تعالى في الآية الأخرى، (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله، ثم لما قالوا (خلقهن الله)) وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات ولما سيق الكلام كله سياقه وأخذه، حذف الموصوف من كلامهم وأقيمت

---

(١) النحو المصفى، محمد عيد، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٥٤٥.

(٢) الزخرف: ١٠.

(٣) الزخرف: ٩.

(٤) الزخرف: ١١.

(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري، جـ٣، ص ٤١٢.

الصـــفات المذكـــورة فـــى كلام الله تعالى مقامه كأنه كلام واحد"[1]. ويترشح عـــن ذلـــك فـــيما يخـــص التركيـــب ﴿لعلكـــم تهتدون﴾ وقوع لعل فى الآية موقـــع المجـــاز لا الحقـــيقة علـــى نحـــو ما ذكر من قبل فى قوله تعالى: ﴿لعلكم تعقلون﴾.

* * * *

واســـتكمالاً للأوصـــاف الســـابقة يقـــول الخالق عز وجل ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِـــنَ السَّـــمَاءِ مَـــاءً بِقَـــدَرٍ فَأَنشَـــرْنَا بِـــهِ بَلْـــدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[2] فإن تخصـــيص صـــيغ الأفعـــال بمـــا تشـــمله كـــل صيغة من زمن وحدث وجهة يـــتحقق فـــيها الحـــدث يـــؤدى ذلك التخصيص دوراً فى تقديم زمنية متنوعة لوجـــود الإنســـان لهـــا شـــبيه محقـــق فـــى مشهد كونى حياتى، وتبدأ ملامح قـــراءة هـــذه الزمنـــية مـــن حيـــث التركيب اللغوى (كذلك تخرجون) فالكاف رابطـــة تشـــد الطرفيـــن الســـياق "السابق" بسياقها "اللاحق" وتحيل على الأول لإيضـــاح الـــثانى؛ إذ يتضـــمن تقريـــبًا للصـــورة الحقيقية للموت والبعث من خـــلال مشـــهد واقعـــى يحـــدث فـــى الحلقـــة الزمنـــية الأولى (الحياة الدنيا)، فـــيعمل كـــل مـــن التأشـــير والإحالة على تقديم ناتج تفسيرى للتركيب (كذلك تخـــرجون) أى مـــثل نشـــور المـــوات فـــى الدنيا يخرج الأموات من قبورهم فـــى الآخـــرة، لكـــن ثمـــة فـــارق بين البعثين لا توضحه إلا صيغة الأفعال، فاســـتخدام صـــيغة الماضـــى فـــى "أنشـــرنا" بمـــا لهـــذه الصيغة من معانى الانـــتهاء والمحدوديـــة الـــتى تـــتم بهـــا أيضـــاً حلقة الحياة الدنيا الدائرة فيها المـــثال يـــدل علـــى انـــه بعث إلى حين، أما صيغة "تخرجون" الممثلة بزمنها الحاضـــر لفاصـــلة الآيـــة فإنهـــا تستمد معناها من إطار الزمن الأبدى لتصبح مؤشراً على استمرارية ذلك الفعل الحاضر.

* * * *

ويـــأتى الحذف مرة أخرى مما يحافظ على الموسيقى الخارجية للآيات فى نهايـــة قوله تعالى ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا

---

(١) الانتصاف، ابن المنير، ضمن كتاب الكشاف للزمخشرى، جـــ٣، ص٤١٢.

(٢) الزخرف: ١١.

تَرْكَـبُونَ﴾[1] حيــث حذف ضمير الغائب الواقع مفعولاً به لوجود دليل مقالى عليه، والاهتداء إلى المحذوف وتقديره، وتحديد مكان التقدير كلها أمور مرهونة بعلاقــات الحضــور (الدليل)، ومن الواضح أن هناك أكثر من احتمال تقديرى متاح بناء على الدليل (من الفلك والأنعام) وبناء على الفعل (رَكِبَ) الذى يتعدى بنفســه فــيقال (ركبت الدابة)كما يتعدى بحرف الجر فيقال (ركبت فى الفلك)، وتعدد سبل التعدية يطلق تعددية التقدير، فيمكن تقدير متعلقين مرة باعتبار تعدى الفعل بنفسه ومرة باعتبار تعديه بواسطة فيكون التقدير (ما تركبونه) و(تركبون فيه).

(... من الفلك والأنعام) ◄ —مرجعية داخلية سابقة— تركبون [ها]

أو تركبون (فيه)

غــير أن الفعــل باعتــبار القبيليــن لــه نفس المعنى، وهذا يبيح أن نقدر مــتعلقاً واحــداً علــى أســاس تعدى الفعل بنفسه "ويكون هذا من تغليب أحد اعتــبارى الفعــل علــى الآخــر وهــو أســهل مــن التغليب فى قوله تعالى: ﴿فَــأجمعوا أمــركم وشــركاءكم﴾ علــى أحد التأويلين فيه. فإن التباين ثم ثابــت بيــن الفعليــن مــن حيــث المعــنى أعنى (أجمع على الأمر) وجمع (الشــركاء)، ولكــن لمــا تقاربــا غلــب إحداهما على الآخر ثم جعل المغلّب هو المتعدى بنفسه".[2]

* * * *

وتــتجلى فاعلــية الــنفى مــن خــلال الحــرف (مــا) المتصل بالجملة الاســمية المنسوخة فى قوله تعالى: ﴿...وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾[3] فيسلبها وقوع الحدث المتمثل فى خبر كان. وعلى المرغم من أن "ما" جاءت نافية لفعل ماض لفظاً، لها فاعليتها فى إحداث امتداد زمنى يشمل الحال والاستقبال، ذلك دون أن تفرغ الماضى من زمنه الصرفى، ومن هنا يدل التعبير (ما كنا) على زمنٍ ينتفى فــيه الحدث عن الوقوع فالبنية العميقة تقول (لا نقرن فى أى زمان شيئاً سخر

---

(١) الزخرف ١٢.

(٢) الانتصاف، ابن المنير، جـ٣، ص٤١٢

(٣) الزخرف: ١٣.

لـــنا). ومـــع قـــدرة هـــذا التركيب على توسيع دائرة البعد الزمنى كانت البنية السـطحية بمـثابة تمثيل دقيق للبنية العميقة لا يخل بماهية الدلالة أو هوامشها، خاصة وأن التعامل مع فعل الكينونة المتصل بالجملة يعد بالغ التأثير فى التعبير عـن واقـع إنسـانى يعلن ضعف المرء مقارنة بما سخر لخدمته من الفلك أو الأنعـام، فكـم من دابة أو سفينة كانت سبباً فى هلاك راكبها. ومع إقرار هذا الواقـع يـتداعى إلى الذهن واقع يقينى آخر هو ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[1] ينـبغى على الراكب ألا ينساه أو يدع ذكره بقلبه ولسانه خاصة مع مباشرة أمر خطـر وسبب من أسباب التلف كالركوب، وهذا الواقع اليقينى هو أننا منقلبون إلى خالقنا، واستخدام "إن" المؤكدة واتصال خبرها باللام ضرب من التدليل على معنى اليقينية فى ذلك الواقع.

* * * *

وفـى الآيـة التالـية تتـبدى علاقـة الوصفية من جديد ختاماً للآية وقد سـبق ملاحظـة انتشـارها فى النص يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾[2] فإن نسبة الولد إلى الله كفـر، ومسـاواة الإلـه -تعالى- بالبشر أصل لكل كفران ومن ثم جاء الخبر علـى صـيغة (كفـور) وتدخلـت (إن واللام) كأطراف إضافية مهمتها تأكيد الوصـف المذكـور فيمـن يـتعدى على الله، والتركيب فى مجمله يعد مؤشراً علـى المسـتوى السـياقى علـى اتصـال تلك الآية بقوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[3] فمع اعترافهم بذلـك جعلـوا له مـن عـباده جزءاً فوصفوه بصفات المخلوقين. ويكشف رد الصـياغة إلـى بنيـتها العمـيقة عـن غـياب موصوف الصفة (مبين)، لكن يلاحـظ أن التغيـب تـم علـى أسـاس أن المستوى السطحى يقدم من خلال خـبر إن مفـردة كاشـفة مـن نفـس مادة ذلك الموصوف الاعتبارى. فالبنية العمـيقة هـى: أن الإنسـان لكفـور بالنعمة مبين كفره. وهنا يتفجر المعنى مـن الخـبر (كفـور) الـذى يؤدى مهمته فى التدليل على الغائب واستدعائه

(١) الزخرف: ١٤.

(٢) الزخرف: ١٥.

(٣) الزخرف: ٩.

فــى ذات الوقــت بمــا يخلــق نوعاً من الانسجام الصوتى المتوهم بين كفور ـكفــر. وغــياب موصــوف الصــفة أدّى إلــى أن تســتقر الفاصــلة فــى موضــعها مســاهمة فــى الــنغم الســجعى المتكرر، ورغم استقلال هذه الآية تركيبــياً فــإن ارتــباطها الدلالــى بالآية اللاحقة اتخذ مظهراً لغوياً من خلال الاســتفهام الإنكــارى حيــث تتســلط همزة الاستفهام على الصياغة فى قوله تعــالى: ﴿أَمِ اتَّخَــذَ مِمَّــا يَخْلُــقُ بَــنَاتٍ وَأَصْــفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾[1] والاستفهام انطلــق رداً وإنكــاراً وتجهــيلاً لهــم وتعَجّباً من زعمهم السابق بأن لله ولداً، والــباء فــى (بالبنيــن) تقويــة لما يتضمنه المعنى العام للآية من السلب، ولما كانــت الــنظرة للولــد تخــتلف عــن النظرة للأنثى إذ يعدونه خير الجنسين وأعلاهمــا جــاء لفــظ (البنيــن) معرفاً ولفظ البنات على التنكير، والمستهدف الــبلاغى مــن ذلــك أن فــى الــتعريف تنويه وتشهير[2] كأنه قال اصطفاكم الفرسان الأعلام الذين لا يخفون عليكم.

* * * *

ويــتوالى الاستفهام الذى يقدم ضمن محتواه الدلالى مسوغات الإجابة عما يطــرح من تساؤل: (أو من ينشؤا فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين) جاء الاستفهام يستبطن إنكار أن يكون للرحمن من الولد من صفته الضعف والتخاذل عــن مجــاراة الخصوم، إذ يئول ضعفه إلى فطرة تكوينه الأنثوى وتربيته فى الزينة والنعمة، وتعجيلاً بالمساءة وتأكيداً على هذا الوصف المذموم تختتم الآية بهزة تركيبية تجعل الجر والمجرور (فى الخصام) مقدماً على متعلقه لتنتهى هذه الهــزة التركيبــية بنقطة ارتكاز السجع (النون) فى (مبين) ويتدخل حرف النفى (غير) لكنه يتحرك ارتدادياً عاملاً على تغييب القدرة على مباراة الخصوم، حيث تكون البنية العميقة على النحو الآتى: وهو لا يبين فى الخصام. فالمضاف إليه لا يعمــل فيما قبله إلا فى غير لأن فيها معنى النفى وهذا ما سوغ حدوث الهزة التركيبية للتأثير بلاغياً ودلالياً مع الإبقاء على صحة التركيب نحوياً.

* * * *

---

(١) الزخرف: ١٦.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشرى، جـ٣، ص ٤٠٨. والآية ٤٩ من سورة الشورى.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[1] الفعل (يسألون) مبنى للمفعول الأمر الذى يعمل على تنحيه الفاعل على المستوى السطحى، وثمة تنحية أخرى لمتعلق الفعل تتكئ على ما يمكن أن ينتجه السياق المقالى من إمكانات جبر البنية التركيبية، فإن مفعول الجملة السابقة (سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ) يدل على المحذوف مما يسمح بتعيين المبدل من الصفر، أى أن رد الصياغة إلى أصلها يكون: " يسألهم الله عن شهادتهم" وتغيب الفاعل ببناء الفعل للمجهول مع حذف متعلقه يؤدى وظيفة مزدوجة على المستويين المعنوى واللفظى إذ يهدف إلى إبراز الحدث وتأكيده باعتبار فعل المحاسبة هو الغرض المهم، والحفاظ من ناحية أخرى على الإيقاع السجعى.

* * * *

ونصل إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَخْرُصُونَ﴾[2] النظر التحليلى للسياق النحوى للفاصلة (يخرصون) يكشف عن مصاحبتها لبنية تركيبية يتسلط عليها النفى من خلال (إن) التى بمنزلة (ما)، غير أن الأداة فقدت مهمتها الدلالية والقدرة على إحداث أثرها بفعل عامل الاستثناء (إلا) الذى قام بإلغاء بنية النفى، لتئول البنية المثالية إلى الإيجاب: (هم يخرصون) ولئن كان لـ (إلا) هذه الفاعلية فإنها مسلوبة القدرة على مستوى العمل النحوى، فهى ملغاة من الناحية الإعرابية فقط دون المعنوية "لأن ما بعدها يكون خاضعاً فى إعرابه لحاجة ما قبلها، فكأنها غير موجودة. لكنها من ناحية المعنى تفيد استثناء ما بعدها من حكم ما قبلها".[3] ومن ثم كانت البنية العميقة لا تحقق مجموعة النواتج التى يقدمها التركيب فى مستواه السطحي.

وتعلن بنية التقديم والتأخير عن حضورها فى الآية عمقاً وسطحاً،

---

(١) الزخرف: ١٩.

(٢) الزخرف: ٢٠.

(٣) النحو الوافى، عباس حسن، دار المعارف، ط١١، ١٩٩٣، جـ٣، ص ٣٢٢.

حيث يتقدم المسند إليه (هم على الخبر الفعلى مفيداً التقوى، لاشتمال الخبر الفعلى على ضمير يعود على المقدم، وهذا يدفع بفائدة إجمالية هى إثبات الكذب للمسند إليه.

* * * *

والواقع التنفيذى للصياغة القرآنية يشير إلى كثافة التحول التركيبى بالتقديم والتأخير؛ إذ اعتمد عليه النص فى سعيه الإيقاعى مهيئا للسجعة سبل الاستقرار فى موقعها يقول الله تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.(1) فقد ألصقوا عبادتهم لغير الله بمشيئة الله، زعماً زعموه غير مستند إلى علم، فجاء الاستفهام بـ (أم) ينفى أن يكون الله آتاهم كتاباً قبل القرآن نسب فيه مثل هذا الكفر لذاته ومشيئته فحصل لهم علم من جهة الوحى الموضع فى ذلك الكتاب (فهم به مستمسكون)، والملاحظ أن فى الآية الكريمة تقديمين، أولهما تقديم الجار والمجرور (به) على عامله (مستمسكون) والثانى تقديم المسند إليه (هم) على الخبر المشتق (مستمسكون) والتعامل مع بنية التقديم المزدوجة يحقق نواتج عدة فإضافة إلى تهيئة الفاصلة للاستقرار فى موضعها، يفيد التقديم فى الحالة الأولى قصر الاستمساك على ذلك الكتاب دون غيره، أما تقديم المسند إليه فهو لتقوى الحكم وتأكيد استمساكهم بزعم لا أساس له. بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم: ﴿... إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾(2) فيأتى التقديم والتأخير ليؤدى دوره على مستوى السطح والباطن -أيضاً- فى هذه الآية حيث يتقدم الجار والمجرور على عامله (مهتدون). ومن اللافت أنه على مساحة البنية النحوية تقوم العلاقات الدلالية بين الآيات بالإعلان عن نفسها، ففى الآية التالية موقف مماثل للموقف السابق المحكي من خلال النص: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾(3) ويتجلى هذا التماثل بين الموقفين

---

(1) الزخرف: 21.

(2) الزخرف: 22.

(3) الزخرف: 23.

علــى مســاحة البنــية الــنحوية إذ يتبدى فى ختام الآية تركيب نحوى تعمل فــيه القــاعدة التحويلــية ذاتهــا؛ قــاعدة التقديم والتأخير بكل نواتجها الدلالية والإيقاعية.

ويتصــاعد الحكــى متضــمناً فــى بنائه علاقة حوارية بين طرفين يمثل الأول مــنهما "شــخص الــنذير" والآخــر "شــخص المنذَريــن": ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْــتُكُم بِــأَهْدَى مِمَّــا وَجَدتُّــمْ عَلَــيْهِ آبَــاءكُمْ قَــالُوا إِنَّــا بِمَــا أُرْسِــلْتُم بِهِ كَافِــرُونَ﴾،[1] ويتضــح الــتعدد الصوتى على المستوى اللغوى التبادلى بين طــرفى الحــوار الــذى ظــل مرتــبطاً بأســلوب المتحدثين، فبين ﴿إنا بما أرســلتم بــه كافــرون﴾ و﴿إنــا على آثارهم مهتدون﴾ و﴿إنا على آثارهم مقــتدون﴾ تمــاثل فــى التركيــب الــنحوى يعــد بمثابة مؤشر على شخص المنذَريــن الذيــن نتجــت عــنهم الجمــل الثلاث، ويوهم التخالف الدلالى بين (كافــرون) –فــى هــذه الآيــة– و(مهتدون) –فى الآية قبل السابقة– أننا أمام بنــية تقــابل تلقــى بــناتجها على مستوى الجمل، لكنه يتبين من التحرك إلى مســتوى البنــية العمــيقة والــتغلغل فــيه، أن العلاقة المعنوية بين جملة (إنا بمــا أرســلتم بــه كافــرون) و الجملتين الأخريين (إنا على آثارهم مهتدون) و(إنــا علــى آثــارهم مقــتدون)، هــى علاقــة تماثل. منذر مُصرٌّ على أن يهــتدى ويقــتدى بمــا هــو كفــر، وهــذا الإعــلان الصريح يحتوى ضمن مشتملاته على كفر بما هو هداية.

* * * *

﴿فَانتَقَمْــنَا مِــنْهُمْ فَانظُــرْ كَــيفَ كَــانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[2]، تختتم الآية بعلاقــة الإضــافة الــنحوية (عاقــبة المكذبيــن) وهــو من الإضافة اللفظية، بوصــف المضــاف اســم فــاعل. واللافــت أن العربــية تتيح ضمن حيلها التركيبــية لتوســعه طــرق التعبــير أكــثر مــن بديل لهذا التركيب الإضافى الــنحوى فكــان يمكــن التعبــير عــن علاقــة الإضــافة هنا بطريق علاقة الــتعدية، كمــا كــان يمكــن التعبــير عــنها بفك مكونات "المضاف إليه" إلى

(١) الزخرف: ٢٤.

(٢) الزخرف: ٢٥.

قولـــنا ﴿عاقـــبة الذيـــن كذبـــوا الرسل﴾، أو باعتبار (ال) نائبة عن الضمير فـــى قولـــنا (عاقـــبة مكذبـــيهم) غير أن مجموعة البدائل هذه لا تقدم ما يمنحه التركيـــب الإضـــافى، فالإضـــافة تؤكـــد قيمـــتها باعتبارها تعريفاً وتخصيصاً للمضـــاف، ومـــع قدرتهـــا علـــى إنجـــاز الدور الذى يسنده إليها النحو، فهى أيضـــاً قـــادرة علـــى إنجـــاز الـــدور الـــذى يسنده إليها الإيقاع، لتنتهى الآية بنقطة الارتكاز الصوتى (النون).

* * * *

وفى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إبراهيم لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾(١) بـــرغم خلو الآية من أدوات النفى فإن دلالة السلب تنتشر فيها من خلال مؤشره الدلالى (براء) الذى فجر مضمون النفى فى منطقة الإثبات. ويدخل الناسخ (إن) لتأكـــيد هذا النفى، كما تدخلت (ما) الموصولة مقدمة من خلال علاقتها السياقية عـــدة إمكانـــيات دلالية، لقد جاءت لتحقيق أهداف إنتاجية لم يكن من المستطاع تحقـــيقها لوحل محلها (مَنْ) بوصفها بديلاً يكون لشخص من يعقل، وهو البديل الذى كان يتطلبه التعبير لو تبنينا وجهة نظر العابدين فى معبودهم، لكن الخطاب ورد علـــى لسان نبى الله "إبراهيم" فكانت "ما" أداة مدهشة فى موقعها، من حيث إنهـــا تـــبرر رفضـــه لهذه المعبودات التى لا تعقل، كما تشير إلى امتداد هذا الرفض إلى كافة ما يعبدون على الإطلاق. وحضورها -باعتبارها دليلاً يشير إلى الموصول- هيأ لحذف الضمير "العائد" من جملة الصلة اكتفاء بدليله لتستقر النون فى ختام الآية بوصفها إحدى نتائج ذلك الفعل الصياغى.

* * * *

وتؤثـــر الصـــياغة أداة الاســـتثناء (إلا) لـــيكون لها مكان الصدارة منها، وذلـــك فـــى قوـــله تعـــالى: ﴿إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين﴾(٢) لا فتة بهذا التصـــدير إلـــى الصـــلة المعـــنوية بين ما بعد إلا وما قبلها، والتى عنها يتفجر فى التعبير غير وجه دلالى.

---

(١) الزخرف: ٢٦.

(٢) الزخرف: ٢٧.

- **الوجه الأول:** أن يكون استثناء انقطعت فيه صلة البعضية التي من المفروض أن تربط المستثنى بالمستثنى منه، مع بقاء نوع اتصال معنوى يربط بينهما، أى أن (إلا) الدال الحاضر على المستوى السطحى للصياغة يعادل دالاً غائباً هو (لكن) الذى يفيد الابتداء أو الاستدراك مع تأكيد الصلة المعنوية بين سابقه ولاحقه كأنه قال: إننى براء مما تعبدون لكن الذى فطرنى فإنه سيهدين، غير أن إيثار الصياغة لـ(إلا) خلق تأثيراً دلالياً مكثفاً يتعاون فى تكوينه الدالان؛ الحاضر بما يؤدى من معنى الاستثناء، والغائب بما له من معان مذكورة عاليه.

- **والوجه الثانى:** إن يكون (الذى فطرنى) بدلاً من المجرور بمن فى الآية السابقة، كأنه قال: إننى براءٌ مما تعبدون إلا من الذى فطرنى، وكانوا يعبدون الله مع أوثانهم. لكن هذا التوجيه وإن صح نحوياً، إلا أنه تدحضه لفظة (ما) بما تحمله من معانى الإبهام والإطلاق، أى مخالفته لهم كائنا من كان معبودهم.

- **والوجه الثالث:** أن يكون الدال المعادل لـ "إلا" على مستوى حركة الذهن الاستبدالية هو "غير" وعلى هذا التقدير تكون إلا صفة وما موصوفه كأنه قال: إننى براء من آلهة تعبدونها غير الذى فطرنى.

وعلى الوجه الأول تكون الفاصلة (سيهدين) جزءاً أساسياً مكملاً للجملة المنصوبة على الاستثناء، لكن يتبدى فى بنيتها (نقص) أتاح لبنية السجع أن تستقر فى موضعها، فقد حذفت ياء المتكلم الساكنة من الفعل، لأن قبلها نون عماد مشعر بها. وجُعِل المستقبل (سيهدين) موقع الحاضر، دلالة على استدامة ذلك الفعل.

* * * *

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١) أى وجعل إبراهيم -صلوات الله عليه- كلمة التوحيد التى تكلم بها، وهى قوله إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى، كلمة باقية فى ذريته فلا يزال فيهم

---

(١) الزخرف: ٢٨.

من يوحد الله ويدعو إلى توحيده، وتنتهى الآية بجملة يتصدرها دال الترجى (لعل) وقد ورد هذا الدال بصورة ما يختلج فى نفس ذرية إبراهيم ممن آمنوا بما دعا إليه من عبادة الله – من الرجاء والطمع فى أن يرجع من أشرك منهم بدعاء من وحد منهم.

ومن الواضح أن النص على مدار الآيات التى قام البحث بتحليلها، آخذ يستفيد من الإمكانيات التركيبية للغة من أجل ممارسة قادرة على إصابة الدلالة وتشكيل الإيقاع.

* * * *

وقد كان البحث يضع ضمن خطته تحليل السورة تفصيلياً من أجل ملاحظة شمولية للكيفيات التى يأخذها فعل التعليق النحوى بين الكلمة المسجوعة والسياق واستخراج دلالتها، غير أن الكثافة الظاهرة –رأسياً– للعلاقات السياقية النحوية التى تم رصدها حتى هذا القدر التحليلى وملاحظة تكررها بطول الخط السياقى للسورة، يكسب هذا القدر من التحليل كفاءة تمثيل الجزء للكل الأمر الذى يثنى عزم البحث عن استكمال التحليل التركيبى للسورة؛ حيث إنه فى هذا القدر ما يكفى لاستخلاص أبرز ضروب التركيب النحوى بين السجعة والسياق.

ويدل التحليل على شيوع بعض العلاقات اللغوية أكثر من غيرها مفسرة روابط الدلالة التحتية بين اللفظة المسجوعة والألفاظ المجاورة فى السياق. فمن الملاحظ أن النص يتعامل انتقائياً مع بعض التراكيب التى مثلت نزعات مركزية فيه بتفوقها على غيرها مما تجمعها بها علاقة البنية اللغوية، ومن أبرز هذه العلاقات النحوية الفاعلة فى تشكيل أسلوبية النص القرآنى:

١- الميل إلى التعامل فى ختام الآية مع مركبات اسمية تبدت فى تراكيب وصفية وإضافية تنتج إيقاعيًا كما تنتج دلالياً، وكأن النص حريص على أن يستبطن الدلالة التأسيسة فى بنية تشكيله اللغوى، وقد أوضحنا فيما سبق وظيفة هذه التراكيب فى التأسيس الدلالى بإضافة زوائد دلالية إلى الناتج. وإمعاناً فى التأسيس الدلالى من خلال المركب

الوصفي، وجدنا حرص النص على تأخير الوصف الأبلغ عما هو دونه وفيه: ﴿الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾.[1]
٢-سيطرة الأسلوب الإنشائي على العبارة المسجوعة سلباً وإيجاباً، ولهذا التسلط فاعليته من حيث يعتبر ركيزة من الركائز المنتجة للدلالة.
٣-الخروج على القاعدة العامة لترتيب الكلمات عن طريق التقديم والتأخير ويتلاقى مع ذلك إحداث مزيد من المخالفات التركيبية التي مهدت لاستقرار الفاصلة في موضوعها، والتي تعد اختراقا للقانون اللغوي من مثل الجمع بين المجرورات في نحو ﴿ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً﴾.[2] قال ابن الصائغ: "فإن الأحسن الفصل بَيْنَهما إلا أن الفاصلة اقتضت عدمه وتأخيره: تبيعا".[3]
٤-حذف جزء من أجزاء التركيب كان يتعين ذكره بعد اللفظة المسجوعة، لأنه إذا عوضه الذكر فسد الإيقاع والتدقيق المعنوي معاً، فكان الحذف أولى من الذكر وخاصة مع فاعليته في إطلاق الطاقة الاحتمالية للتدليل على المحذوف.
٥-سيطرة دينامية الحدث على الدال المسجوع الذي تتعين داخله بنية السجع، فكثيراً ما اختتمت الآيات بجملة فعلية، كما أن معظم الجمل الاسمية الواقعة في ختام الآية سواء أكانت منسوخة أو غير منسوخة جاء خبرها إما جملة أو اسماً مشتقاً. ولأن الخطاب الموجه في النص القرآني يخاطب الذات الجماعية لذلك كانت واو الجماعة أكثر اللواحق التي لحقت بالأفعال من حيث الحضور الكمي داخلة في سياقها الذاتي، كما دخلت "الواو" في السياق الذاتي للأسماء المشتقة بوصفها علامة محضة على الجمع[4]، فيما كان السماح لوسائل تعبيرية -كالتقديم

---

(١) الفاتحة: ٣.

(٢) الإسراء: ٦٩.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، جـ٣، ص ٣٠١.

(٤) يقول ابن القيم الجوزية "الواو والألف في يفعلون وتفعلان أصل للواو والألف في الزيدون والزيدان... لأنها إذا كانت في الأفعال كانت أسماء وعلامة جمع، وإذا كانت في الأسماء كانت علامة محضة لا أسماء وما يكون اسما وعلامة في حال هو الأصل لما يكون حرفاً في موضع آخر إذا كان اللفظ واحدًا، نحو كاف الضمير

والتأخير والحذف- بإيتاء فعلها في ختام الصياغة عاملاً أساسياً فى أن النون -التى تأتى عوضاً عن التنوين فى الأسماء المجموعة جمع السلامة والمثناة، وعوضاً عن حركة الإعراب فى الأفعال الخمسة- كانت أكثر الحروف تكراراً فى منطقة الثقل السجعى.

٦-الفصل بين المسند والمسند إليه بضمير الفصل.

٧-الاعتراض بوضع أحد عناصر التركيب بين اللفظة المسجوعة وعناصر السياق بما يفصم اللحمة النحوية -على المستوى السطحى المرئى فقط- خاصة حين تكون علاقة اللفظة المسجوعة بعناصر السياق علاقة المسند والمسند إليه، كما فى قوله تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.(١) إن هذا الفعل الصياغى يؤدى أكثر من دور على المستويين الإيقاعى والدلالى، حيث يضمن للمسند الحلول فى منطقة التسجيع كما يقوم بالتنبيه على المعترض به عن طريق التعجيل بذكره الذى يدحض -فى الآية- ما قد يغلب على ظن الكفار من وجود إله غير الله.

٨-ومن الواضح أن النص القرآنى؛ النص الذى بلغ أعلى مراتب التفنن فى القول، يتوخى معانى النحو على حسب الأغراض التى يساق لها الكلام، بحيث يستدعى الغرض طريقة ونمطاً معيناً من التركيب فإذا تغير الغرض تغيرت هذه الطريقة ويتضح ذلك فى انتقاء النص لوجه إعرابى دون بدائله، وذلك لإصابة الهدف الدلالى، وكأنه يفصح تطبيقياً عن المقولة الشهيرة "الإعراب فرع المعني". ففى قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ، وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾(٢) جاء الفعل (يَعْتَذِرُونَ) مرفوعاً معلناً ضمناً عن طبيعة الفاء التى تسبق الفعل، فهى عاطفة، ذلك

وكاف المخاطبة فى ذلك، وهذا أولى بنا من أن نجعل الحرف أصلا والاسم فرعا له، يدلك على هذا أنهم لم يجمعوا بالواو والنون من الأسماء إلا ما كان فيه معنى الفعل كالمسلمون والصالحون، دون رجلون وخيلون". بدائع الفوائد، ابن القيم، ت: محمد محى الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، ١٩٦٩، جـ١، ص ١١٢.

(١) الزخرف: ٣٥.

(٢) المرسلات: ٣٥- ٣٦.

أنها لو كانت سببية لاقتضى نصب الفعل بعد الفاء المسبوقة بنفي -على القاعدة المشهورة- وقد ذهب الفراء إلى أن المعول فى ترجيح الرفع على النصب فى هذه الآية هو رعاية الفاصلة، يقول: "نويت بالفاء أن تكون نسقاً على ما قبلها، واختير ذلك لأن الآيات بالنون، فلو قيل (فيعتذروا) لم يوافق الآيات".[1] غير أن استنطاق الاختيار الإعرابى عن مسوغه الحقيقى يبدأ من إقامة العلاقة بين البنيتين النحوية والدلالية، فالمعول فى ترجيح الرفع على النصب هو المعنى المقصود من النظم الكريم، فلو اعتبرت الفاء سببيه ونصب ما بعدها فسيصير المعنى: أن الكفار لا يؤذن لهم يوم القيامة فيعتذروا عما بدر منهم من كفر وتكذيب، أى أن نفى الاعتذار راجع إلى نفى الإذن به، وكأن لهم أعذاراً فعلاً لم تُتحْ الفرصة لهم ليبوحوا بها مع أن ذلك ليس مقصودًا، وإنما المقصود نفيه هو وجود العذر المقبول فى ذاته، ولذلك كان الرفع بالعطف أصوب من النصب بالسببية لأن العطف يجمع بين نفى الاعتذار ونفى الاسم جميعاً. وقد أحاط الفخر الرازى بهذا الفارق الدلالى فى قوله: "لِمَ لَمْ يقل: (ولا يؤذن لهم فيعتذروا) كما قال: (لا يقضى عليهم فيموتوا)؟ الجواب: الفاء ههنا للنسق فقط، ولا يفيد كونه جزاء البته، ومثله: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[2] بالرفع والنصب، وإنما رفع يعتذرون لا لأجل عدم الإذن، بل لأَجل عدم العذر فى نفسه، ثم إن فيه فائدة أخرى، وهى حصول الموافقه فى رءوس الآيات لأن الآيات بالواو والنون، ولو قيل: فيعتذروا لم تتوافق الآيات"[3].

ومن الأمثلة الأخرى التى تبدو على المستوى السطحى مخالفة للعرف اللغوى النحوى حسبما هو مشهور عند العلماء قوله تعالى: ﴿أَن

---

(١) معانى القرآن، الفراء، ت: محمد على النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦، جـ٢، ص ٢٢٦.

(٢) البقرة: ٢٤٥.

(٣) التفسير الكبير، الفخر الرازى، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ٣، ص ٢٤٧.

يَضُـرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَـاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُـمُ الأَدُبَـارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾[1] منع الفعل (لا ينصرون) الجزم مع ما يبدو من كونه معطوفاً على المجزوم، وفى هذا المنع إشارة إلى أن التشكيل الصياغى يئول فى البنية العميقة إلى الاستئناف وليس العطف أى أن المعنى "ثم هم لا ينصرون"، الاستئناف يحدث توسعاً فى زمن الفعل، إذ لا يرتبط عدم انتصار العدو بوقت انهزامه وتوليه وإنما يأخذ خذلانه طبيعة استمرارية، فهو مع انهزامه وتوليه الآن لا ينصر أبداً فى المستقبل.

كانت هذه جملة من العلاقات السياقية النحوية بين الفاصلة المسجوعة وسياقها التى تبدت من خلال سورة الزخرف بالتواصل مع النص القرآنى كله، ممثلة ظواهر نحوية فاعلة فى النص، أسهمت فى تشكيل أسلوبيته. وننتقل فيما يلى إلى تناول علاقة سياقية أخرى من خلال تحرّك على المستوى الدلالى.

مستوى العلاقات السياقية الدلالية

فيما يعنى البحث بمتابعة سياقية تتحرك على كافة مستويات اللغة، يأتى تناول المدرك الدلالى الناتج من علاقات اللفظة المسجوعة بالمفردات المجاورة لها فى السياق بوصفها أحد أوجه هذه العناية.

ويؤكد علم اللغة أنه كى تكون جملة مقبولة دلالياً ينبغى أن يقر العقل الارتباط القائم بين معانى عناصرها قياسا على ما استقر فى الفكر الإنسانى من علاقات الارتباط المنطقى بين المعانى فى الكون، " فالقضية قضية علاقات بين معانى الكلمات، وتجاذب وتنافر بينها، قضية تحقق الانسجام أو انعدامه بين تلك المعانى".[2]

لكن قد يحدث فى نطاق جمالية التنفيذ اللغوى، أن يجتمع فى تركيب جملة صحيحة نحويا كلمات متنافرة دلالياً من جهة رفض معيار الحقيقة عرض المكون الدلالى الناتج عن تفاعلها عليه، وفى هذه الأثناء يبدو

---

(١) آل عمران: ١١١.

(٢) نظام الارتباط والربط فى تركيب الجملة، مصطفى حميدة، ص٧٧.

التركيب النحوى معطلاً، رغم صحته، عن القيام بدوره فى أداء المعنى، فإن علماء الدلالة يشترطون "تركيبا دلالياً، أو نوعا من التوافق الدلالى لابد أن يتوازى مع التركيب النحوى، لكى تصبح جملة ما مفهومة، أولها معنى"[(١)] وحال تنافر عناصر التركيب قياسياً على المعهود الدلالى فى نظمها، يظل أمر الدلالة وقبولها مرهوناً باكتشاف العلاقة العقلية والمنطقية التى يمكنها أن تفسر لنا عناق المتنافرات، والأمل فى انكشاف تلك العلاقة عن كنهها يتحقق أولاً: بالتحرك على ضوء القرائن السياقية لفظية أو حالية نحو بنية العمق، فهناك تفرز القواعد التركيبية العميقة علاقات غياب ذات فاعلية فى تبرير قدرة العناصر المعجمية اللامتلاءمة منطقياً أو إسنادياً على إقامة مستوى من العلاقات فيما بينها، على معنى أن بنية السطح إذ تستأنف وجهاً جديداً يخترق الوجه المألوف فى إجراء الألفاظ فى الإسناد فهى إنما تعول بالأساس على تحرك الملتقى نحو البنية العميقة التى تستبطن ضمن تشكلها اللغوى علاقات غياب تؤدى دوراً كبيراً فى تفسير علاقات الحضور على السطح الصياغى بحيث يستقيم المعنى ويصبح مفيداً من خلال العلاقات المنطقية المدركة بين الدوال الحاضرة والغائبة، فباستضاءة تلك العلاقة يتم نقل دلالة الألفاظ التى لا ينسجم مدلولها الاصطلاحى مع التركيب إلى مدلول ثان يلائم السياق العام. ولا شك أن هذه العلاقة هى ذاتها "الملاحظة" التى وضعها "الجرجانى" بوصفها شرطا ضروريا فى عملية المجاز.[(٢)] والواقع أن علم البيان فى كل أبوابه "هو فى حقيقة أمره يرتكز على [علاقات الارتباط المنطقية]، ويتخذ منها أساساً لوجوده، بعد أن يعدل بها

---

(١) نظرية تشومسكى اللغوية، جون ليونز، ت: حلمى خليل، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٨٥، هامش المترجم ص١٤٨.

(٢) هذه العلاقة هى ذاتها "الملاحظة" التى وضعها الجرجانى كشرط ضرورى فى عملية المجاز، إذ قال محددًا المجاز "فأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها لملاحظة بين الثانى والأول فهى مجاز، وإن شئت قلت: كل كلمة جزت بها ما وقعت له فى وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن يستأنف فيها وضعًا لملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذى وضعت له فى وضع واضعها فهى مجاز"، أسرار البلاغة، الجرجانى، ص٢٣٢.

والواقـع أن علـم البيان فـي كـل أبوابـه "هو فى حقيقة أمره يرتكز على [علاقـات الارتـباط المنطقـية]، ويتخذ منها أساساً لوجوده، بعد أن يعدل بها عـن أصـولها فـى ظـل عملية التخيل، وهو ضرب من ضروب الاستعمال العدولى".[1]

التركيب الدلالى الخاص للفظة المسجوعـة مع عناصر السياق:

مـن مظاهـر جمالـية التنفـيذ اللغـوى فى الأداء القرآنى، قيام النص فـى أكـثر مـن موضـع مـنه بهـز قـاعدة الملائمـة الدلالية بين اللفظة المسـجوعة وعناصـر السـياق المجـاورة، وذلك من خلال تركيب مرفوض مـن قـبل معـيار الحقـيقة الـذى لا يقبل عرضه عليه حيث يتجاوز الإسناد فـيه المطابقـة بيـن اللغـة والواقع، وتشير مستخلصات النظر الرصدى فى القـرآن الكـريم إلـى أن الوقـائع الأسـلوبية مـن تشـبيه واستعارة ومجاز مرسـل ومجـاز عقلـى، تلـك الوقائع التى تمثل اللفظة المسجوعة جزءاً من بنيتها تتمتع بحضور لغوى نسبى فى النص القرآنى.

ولكـن البحـث يولـى اهـتماماً خاصـاً ببعض التراكيب المجازية التى ربمـا يظـن أن تجاوزهـا للمسـتوى التداولى فى التركيب اللغوى ذو صلة بالبنـية الإيقاعـية فحسـب، إذ كـان اخـتراق المألوف التركيبى الدلالى ناتج انـتخاب فاصـلة هـى بمـثابة تكـرار للأثـر الإيقـاعى للفاصلة السابقة أو اللاحقـة، ومـن ثـم بـدا التركيـب المجازى فى الظاهر كما لو كان راجعاً إلـى عـناية بـتماثل البنـية المقطعـية للفواصـل فى إطار ما سماه القدماء "مـراعاة الفاصـلة"، وهـى الظاهـرة الأسـلوبية الـتى رأيناها -على مدار الـنص- تـتآزر مـع الـتماثل الحرفى "السجعى" لتعطى الإيقاع الختامى بعداً صـاعداً، وحديثـنا هـنا يتـناول بعض تلك الشواهد متابعاً الدلالة فى انتقائها لعناصـر بنيـتها، محـاولاً الكشـف عن الغرض الأول الذى استدعى العدول

يسـتأنف فـيها وضـعًا لملاحظـة بيـن ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذى وضعت له فى وضع واضعها فهى مجاز"، أسرار البلاغة، الجرجانى، ص٢٣٢.

(١) نظام الارتباط والربط فى تركيب الجملة، مصطفى حميدة، ص٩١.

عــن الحقــيقة إلـــى المجـــاز، هــل هو فعلاً المستهدف الإيقاعى أم أن هناك غرضاً أصيلاً يسبقه؟.

واختيار لفظة "راضية" فى قوله تعالى : ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[1] يكون

(١) سورة الحاقة: ٢١.

مثار دهشة، تزول مع التحقق من أنه اختيار وظيفي يؤدي دوره على المستوى الدلالى كما يؤديه على المستوى الإيقاعى، فهذا التعبير من المجاز العقلى، حيث يحـدث تجاوز فى مستوى الجملة النحوية نتيجة إسناد اسم الفاعل (راضية) إلى مفعـول به فى الأصل (عيشة)، فنتج عن ذلك انتقال المفعول من موقع (المتمم) إلـى خانـة الفاعل (المسند إليه)، فتكون العيشة راضية مع أن أصل الرضا أن يكـون لصـاحب العيشـة، ويحقق ذلك التجاوز مبالغة في المعنى فكأن الرضا تجـاوز صـاحب العيشة إلى العيشة نفسها فأصبح متبادلاً بين الطرفين، هناك مـبالغة فى إثبات الرضا لصاحب العيشة حتى كأن الرضا فاض منه عليها مما يشعر باستقرار واستدامة هذه العيشة التى لا ينالها تكدير أو تنغيص.

ويحـدث هـذا العـدول الدلالـى تغيـيراً مـن نوع آخر يتعلق بتصنيف الموجـودات، ذلـك أن مفهـوم "عيشـة" عندما يجرى مجرى "صاحبها" فإنه يكتسـب جملـة مـن السـمات لـم تكـن له فى الأصل، فيدخل فى مكوناته الدلالية خواص جديدة؛ إذ تلتحق العيشة بجنس البشر فى الإحساس.

فمـن السـمات الدلالـية لـ[صـاحب العيشـة] أنه دال على (+ حى)، (+ محسـوس)، (+بشـرى). وفى نطاق هـذا المجاز تكون [العيشـة] دالة على مفهوم مجرد(+محسوس)، (-بشرى). ومن ثم فإن المجاز فى قوله تعالى: (عيشـة راضـية) يحتمل رده إلى الاستعارة المكنية -على مـذهب السكاكى- فـيكون الـتجاوز فـى تصـوير العيشة بمن يقع منه الرضا ويوصف به وهو صـاحبها[1]، ولئن كان التركيب يحتمل التخريجين فإن ما يحكم اختيار التخريج المناسـب هو الغرض والمقام، والأوفى به هنا هو المجاز العقلى لأن الغرض المبالغة على نحو ما ذكر وليس المقصود تصوير العيشة فى الرضا بالإنسان.

وهـكذا نـرى أن الدلالـة حيـنما انتخبـت عناصـرها قدمت للإيقاع واحـدا مـن مظاهـره وهـو تكثـيف التشـاكلات المقطعـية بين الفواصل المتتابعة:

---

(1) شـاع علـى الألسـنة مجـى مـثل هـذا التعبـير المجازى، فيقال: عيشة سعيدة، أو تعسة، أو بائسة، أو هنيئة... وغيرها.

كتابيــه ٧ ٢̄ ٧ ٣̄

حسابيه ٧ ٢̄ ٧ ٣̄

راضيه ٧̄ ٢ ٧̄ ٣

عاليــه ٧̄ ٢ ٧̄ ٣

الأمر الذى لا تستطيع لفظة (مرضية) تأديته.

ويصــف القــرآن الــبلد بالأميــن فــى قوله تعالى (والبلد الأمين) مع أن الأصــل أن يكــون آمــناً، ولهــذا الوصــف قيمــته على المستويين الدلالى وللإيقاع معاً.

* * * *

وفــى إطــار مــتابعة المــدرك الدلالى الناتج من علاقة اللفظة المسجوعة بمفردات السياق تبين حضور الترادف بينهما بوصفه رابطاً تجاوريا، وقدم نفسه أفقياً فى العديد من المواضع، ومن أمثلة تحقق المجاورة الترادفية فى ختام الآية مــع غياب المساحة الصياغية التى تفصل بين المترادفين قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِــي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا﴾ [1] وقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾ [2] وكما هو معروف فى اصطلاح الشرع فإن الدال (رسول) يستــدعى ضرورة فى المستوى العميق دال النبوة باعتبار النبوّة أساس كل رسالة ربانية لأن اختصاص الرسول بكتاب ينزل معه لا يحدث إلا بعــد أن تتأكد السفارة بينه وبين مقام الألوهية.

ومــن ثــم فــإن التعبــير فى الآية يثير جدلاً ولده الجمع بين مترادفين مع إمكــان الاســتغناء بــالأول عــن الــثانى لأن الأول خاص والثانى عام وفقاً لتفســيرهما فــى اصــطلاح الشــرع، ولا يأتى العام بعد الخاص على ما هى القــاعدة فــى ترتيــب المــترافادت. ومــن هنا جاء عن الزركشى أن ورود

---

(١) مريم: ٥١.

(٢) مريم: ٥٤.

النبى وتأخيره عن لفظ رسول كان من أجل "مراعاة الفاصلة" التى تختم بتسجيع "يائى". ويكاد الشيخ عبد الرحمن تاج يتابع الزركشى فى ذلك الرأى، ففى معرض تدليله على أن القرآن يقدم ويؤخر لتوخى التناسب بين الفواصل يقول: "وذلك أن الرسالة أخص من النبوة، والمعهود فى الكلام المرسل الذى يجمع بين عام وخاص وأن يقدم الأول على الثانى، لكنه قدم فى هاتين الآيتين الخاص على العام، مراعاة لتناسب الفواصل مع اتحاد المعنى".(١)

والقول بأن ذكر المترادفين راجع إلى مراعاة الفواصل، هو مذهب يفتقر إلى الدقة من عدة نواحى:

أولاً: الدقة فى تتبع مواطن اجتماع الدالين: (رسول، نبى) فى النص القرآنى، فقد وردا معاً فى غير موضع الفاصلة، والصورة نفسها من التقديم والتأخير فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ...﴾ (٢) كما ورد كذلك فى قوله تعالى: ﴿فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ﴾.(٣)

ثانياً: حينما نتابع كتب المعاجم وتفاسير ألفاظ القرآن نجد أن الآية الكريمة - على عكس ما قيل - ماضية على الأصل فى الترقى من العام إلى الخاص، فالرسول فى اللغة معناه: "الذى يتابع أخبار الذى بعثه، أخذاً من قولهم: جاء الإبل رسلاً، أى متتابعة"(٤) ويفسر الراغب الأصفهانى كلمة نبى بقوله: "النبوة سفارة بين الله وبين ذوى العقول من عباده لإزاحة علتهم فى أمر معادهم ومعاشهم والنبى لكونه منبئاً بما تسكن إليه العقول الذكية".(٥)

---

(١) بحوث قرآنية ولغوية، الشيخ عبد الرحمن تاج، جمعها أبو بكر عبد الرازق، المكتب الثقافى للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٠، ١١٩.

(٢) الأعراف: ١٥٧.

(٣) الأعراف: ١٥٨.

(٤) لسان العرب، ابن منظور، مادة (ر. س. ل)

(٥) المفردات فى غريب القرآن، الراغب الأصفهانى، ت: سيد كيلانى، مطبعة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٦١، ص٤٨٢.

تظهـر المقارنـة اللغويـة إذاً أن معـنى نـبى أخص من معنى الرسول لأنـه يشـيرُ إلـى مخـبر عـنه محدد هو الله عز وجل، ومن ثم ينطوى لفظ نـبى علـى معـنى الخـبر الصـادق ،قـال الراغب فى ذلك: "النبأ خبر ذو فـائدة عظـيمة، يحصـل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر فى الأصل نبأ حـتى يتضـمن هـذه الأشـياء الـثلاثة، وحق الخبر الذى فيه نبأ أن يتعرى عـن الكـذب، كالـتواتر، وخـبر الله تعالى وخبر النبى عليه الصلاة والسلام "[1] فكـان مجـىء لفـظ نـبى إذاً بمثابة تأكيد صدق ما أرسلوا به، وتدعيما لمـا تصـف بـه سـيدنا موسـى فـى قوله تعالى: ﴿إنه كان مخلصـاً﴾ وسيدنا إسماعيل فى قوله سبحانه: ﴿إنه كان صادق الوعـد﴾.

* * * *

ويمـثل الجمـع بيـن المترادفيـن بالعطف، نمطاً ثانياً للمجاورة الترادفية فـى خـتام الآيـة، ويسـجل هذا النمط تردداً واضحاً، وفيه يلاحظ أن اختيار المفـردات تأسـس علـى وعـى بالـتماس الواقـع بين مدلولاتها فى العمق، وكذلـك بالفـروق الدقـيقة بيـن المتعاطفين التى تمنح كلاً منهما تفرده على محـور الاسـتبدال، الأمـر الـذى يجعـل الأولويـة فى اجتماع المترادفين لصـالح الدلالـة ولـيس الإيقـاع السجعى كما قد يظن، يقول تعالى فى سورة المدثـر: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ، لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ [2] ثمة فـروق بيـن المعطوفيـن (تـبقى، وتذر) يمكن استنباطها من قول ابن عباس فـى تفسـير الآيـة "إذا أخـذت فيهم لم تبق منهم شيئاً، وإذا بدلوا خلقاً جديداً لـم تـذر تعـاودهم سـبيل العـذاب"[3].فإن نفى الإبقاء معناه أن نار جهنم لا تـبقى شـيئاً يلقـى فـيها إلا أهلكـته، ولا تذر ما يلقى فيها هالكاً إلا أعادته مرة ثانية كما كان حتى يستمر فى العذاب.[4]

وقـد يـتماس المـرادف الأول كلـيا مـع اللفظة المسجوعة، بينما تزيد

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٨٢.

(٢) المدثر: ٢٦– ٢٨.

(٣) روح المعانى، الألوسى، مكتبة التراث، ص٢٩، ص ١٢٥.

(٤) انظر تفسير أبى مسعود، دار أحياء التراث العربى، جـ٨، ص٥٨.

هـى علـى مضـمونه بـبعض الإضـافات التعبـيرية الـتى تحملها ضمن عناصـر مكونهـا الدلالـى. يقـول سـبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾[1] والحديـث فـيها مـتعلق بالولـيد بن المغيرة. ويوضح الفخر الرازى فروقاً بيـن عـبس وبسـر فـيقول: "عبس فهو عابس إذا قطب ما بين عينيه، فإن أبـدى عـن أسـنانه فـى عبوسه قيل كلح، فإن اهتم لذلك وفكر فيه قيل بسر، فـإن غضـب مـع ذلـك قـيل بسـل"[2] يظهر من قول الرازى أن العبوس داخـل ضـمن عناصـر المحـتوى الدلالـى للدال (بسر) مع زيادة فى الثانى تشـير إلـى طـول التفكـير والاهـتمام، كمـا تشـير إلى الغيظ والكراهية الشـديدة، وبذلـك كانـت المسـألة فى الجمع بين المترادفين تؤدى تدرجاً فى الوصـف للحالـة النفسـية للولـيد، وتجليها على ملامحه، حتى استنبط حيلته فـى الطعـن علـيه فاتهمـه بالسـحر فـى قولـه: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَـرُ﴾[3] وقـد فسـر الزمخشـرى هـذه الآية بقوله: "وصف أشكاله التى تشكل بها حتى استنبط ما استنبط استهزاءً به".[4]

الـترادف إذا عملـية تأسيسـية غايـتها تقديـم إضافة جديدة إلى المعنى مـن خـلال الـدال الـثانى، وجديـر بالذكـر أن تلك الإضافة المعنوية التى يقدمهـا هـذا الـدال ليسـت دائما وليدة "سماته الدلالية"، إذ ربما انغلقت شفرة الدلالـة إلـى حيـن حضـور المـتلقى بشكل فاعل فى ربط الدوال المترادفة بزمنـية معيـنة أو مقـام محـدد، وعـندئذ تتبدى الإضافة، يقول تعالى: ﴿وَمَـن يَعْمَـلْ مِـنَ الصَّـالِحَاتِ وَهُـوَ مُؤْمِـنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾[5] فـبربط كـل مـن اللفظيـن (ظلماً – هضما) بزمنية محددة من خلال سياق القـول يمكـن التوصـل إلـى الفـرق بيـنهما، والإضـافة التى يقدمها لفظ (هضماً) بعد (ظلماً).

إن عـدم الخـوف يتصـل تحققـه بزمـن الحياة الآخرة حيث الحساب،

---

(١) المدثر: ٢٢.

(٢) التفسير الكبير، الفخر الرازى، جـ٣٠، ص ١٧٧.

(٣) المدثر: ٢٤.

(٤) الكشاف، الزمخشرى، جـ٤، ص ١٥٨.

(٥) طه: ١١٢.

ومـن ثـم يمكنـنا تفسـير (الظلـم) فـى نطاق هذه الحلقة الزمنية بأنه عدم تحقـق الجـزاء الـذى وعـد الله بـه عـباده الصالحين فى الدنيا، واستكمالاً لصـورة العـدل الإلهـى فـى مجـازاة العـباد فـإن القول الربانى يؤكد أن الجـزاء مـع تحققـه لـن يكـون منقوصاً أبداً، فعلى المؤمنين الذين يعملون الصالحات ألا يخافوا فى الآخرة ظلماً ولا هضماً.

* * * *

وفـى مسـتوى السـياق الدلالـى تـتردد ظاهـرة مـن ظواهر العدول، اسـتوقفت كـلاً مـن البلاغيـن والمفسـرين القدامـى، وهـذه الظاهرة هى مخالفـة المعـيار الدلالـى فـى الترتيـب بين المعطوفات وبخاصة فى ختام الآيـة القرآنـية حيـث ارتكـاز السـجع. وقـد أشـار السهيلى إلى المعايير الأساسـية الـتى تحـدد ترتيـب المعانى من حيث التقديم والتأخير إذ يقـول: "مـا تقـدم مـن الكـلام فـتقديمه فـى اللسان على حسب تقديم المعانى فى الجـنان؛ والمعـانى تـتقدم بـأحد خمسـة أشـياء: إما بالزمان، وإما بالطبع، وإمـا بالرتـبة ، وإمـا بالسـبب، وإما بالفضل والكمال، فإذا سبق معنى من المعـانى إلـى الخلـد والفكـر بـأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها، سبق اللفـظ الـدال علـى ذلـك المعـنى السابق"(١) وفى القرآن نماذج كثيرة تقدم فـيها مـا حقـه الـتقديم على اللفظة المسجوعة متفقاً والمعايير سابقة الذكر، مـنها تقديـم الأسـبق زمـناً فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾(٢) فإن المـوت مـرحلة تسـبق مـرحلة الحـياة الأبديـة فى الآخرة ولذا كان أولى بالـتقديم. وربمـا روعـي فـى الـتقديم شرف المتقدم وفقاً للعرف كما فى قولـه تعـالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَـرُ وَلَـهُ الأُنثَى﴾(٣) ومن التقديم لشرف الفضيلة أيضـاً تقديـم موسـى علـى هـارون فى قوله: ﴿قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.(٤)

ومـن الآيـات التى جاءت مغايرة للمعايير السابقة فى الترتيب بين الدوال

---

(١) نتائج الفكر فى النحو، السهيلى، ص٢٦٧.

(٢) النجم: ٤٤.

(٣) النجم ٢١.

(٤) الأعراف: ١٢١- ١٢٢، والشعراء: ٤٨.

المعطوفة تقديم (الأرض على السماء)، وفى القرآن ما يزيد على مائتى موضع تقدمت فيها السماء على الأرض جرياً على الأصل فى تقديم الأشرف. بينما تقدمت الأرض على السماء فى ثلاث عشرة آية، منها آيتان وقعت السماء فيها فاصلة، وإحداهما فقط كانت الفاصلة فيها مسجوعة هى قوله تعالى: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾.[1] والتقديم عموماً قد ينظر فيه إلى معايير ترتيب المعانى ،وقد ينظر فيه إلى السياق ومتطلباته، وبهذا فسر السهيلى موافقة ومخالفة المعيار الدلالى فى العطف بين الأرض والسماء، قال: "وأما تقديم السماء على الأرض فبالرتبة أيضاً وبالفضل والشرف، وأما تقديم الأرض من قوله تعالى: ﴿...وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ...﴾ [2] فبالرتبة، لأنها منتظمة بذكر ما هى أقرب إليه، وهم المخاطبون بقوله: "وما تعلمون من عمل" فاقتضى حسن النظم تقدمها مترتبة فى الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها" [3] وربما كان ما نظنه مخالفة هو فى حد ذاته موافقة للمعيار، فالتقديم بالفضل والشرف قد يبدأ فيه بالأفضل، وقد يعكس على سبيل الترقى من الفاضل إلى الأفضل، ومن المواطن التى رصدها القدامى دليلاً على أن القرآن غاير الترتيب بين المعطوفات لمراعاة حسن النظم السجعى وتناسب الفواصل، تقديم هارون على موسى[4] وتقديم العبادة على الاستعانة[5] وتقديم الآخرة على الأولى[6]، تقديم صحف موسى على صحف إبراهيم[7]، تقديم الإناث على الذكور[8] تقديم البنات على البنين[9]، وتقديم الشقى على السعيد،[10] تقديم

---

(١) طه: ٤– ٥.

(٢) يونس: ٦١.

(٣) نتائج الفكر فى النحو، السهيلى، ص ٢٧٠.

(٤) طه: ٧٠.

(٥) الفاتحة: ٤.

(٦) النجم ٢٥.

(٧) النجم: ٣٦– ٣٧.

(٨) الشورى: ٤٨–٥٠.

(٩) الصافات: ١٤٩، الزخرف: ١٦، النحل: ٥٧، الطور: ٣٩.

(١٠) الليل: ١٤– ١٧.

الفجور على التقوى.[1] وهذا الأسلوب العدولى المتكرر نلاحظه أيضاً فى ترتيب الصفات حيث يتقدم الوصف الأبلغ على غيره مخالفاً ما تقضى به قاعدة الترقى من تأخير الأبلغ، وهو من الأدلة التى ساقها ابن الصائغ الحنفى على قصد النص مخالفة الأصول تحقيقاً للتناسب بين الفواصل، ومثل لذلك بقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[3]، وفى النص ثمة مواضع أخرى بدت فيها مخالفة المعيار الدلالى فى الترتيب بين الصفات من أمثلتها، تقديم السميع على العليم، وتقديم الشاكر على العليم وتقديم العليم على الحكيم، وتقديم الرحيم على الغفور، وتقديم الرسول على النبى، وتقديم العلى على الكبير، وتقديم الحفيظ على العليم، وتقديم مكين على أمين، على أن سر مخالفة الأصل فى هذه المواضع جميعاً راجع إلى دقائق وأسرار لا يحرم المتأمل من شئٍ منها لو أحسن التأمل وعمق التفكير: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.[4]

[٣] العلاقات السياقية الصرفية

هناك قواعد تضبط تلاؤم الوحدات المعجمية بعضها مع بعض باعتبار سماتها الصرفية، أو بتعبير آخر - باعتبار المعانى الصرفية التى تشحن بها المفردات وتحملها ضمن مكونها الدلالى الداخلى، فالواقع أن كل ما ينشأ على المستوى الصرفى من علاقات استبدالية أو علاقات تلاؤم سياقية إنما هو ارتباط معنوى لا لفظى؛ إذ لا سبيل إلى تصور نشوء علاقات بين مبان فى الذهن.[5] والسمات الصرفية للمفردة تتحدد كما هو معلوم من جهة معانى التقسيم أهى اسم أم فعل أم ضمير... كما تحدد من جهة الجنس مذكراً أم مؤنثاً، ومن جهة العدد مفرداً أم مثنى أم

---

(١) الشمس: ٨.

(٢) الفاتحة: ٣.

(٣) النور: ٢٠.

(٤) هود: ١.

(٥) انظر: نظام الارتباط والروابط فى تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة، ص ١١٥-١١٦.

جمعــاً، وهـــى تمـــثل قـــيود تـــوارد تبـــيح أو تمـــنع ورود مفردة مع أخرى ودخولهمـــا فـــى علاقـــة ســـياقية، واللافـــت أنـــه قد جاء فى النص القرآنى، وخاصـــة فـــى موضـــع الفاصـــلة حيـــث الحلول السجعى، ما بدا كسرا لقيود الـــتوارد الصـــرفى حيـــث بنيـــت الفاصلة القرآنية بناء صرفياً خاصاً يخالف البناء الظاهر للأسلوب الواردة فيه.

والملحـــظ الأول الـــذى يقابلـــنا فـــى المســـتوى الصرفى، هو العدول عن المطابقـــة فـــى الجـــنس، وبـــرغم الكثافة العددية المتواضعة التى يسجلها ذلك الملحـــظ ،فإنـــه يعـــد جديـــراً بالاهـــتمام فى إطار التشخيص الأسلوبى للسجع القـــرآنى. ونـــورد فـــيما يلـــى آيـــات وردت فـــيها اللفظة المسجوعة على التذكـــير مـــع أن التأنيـــث كـــان مقتضى ظاهر الكلام، ومنها قوله تعالى فى حديـــث رب العـــزة عـــن مـــريم ابـــنه عمـــران ﴿...وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُـــبِهِ وَكَانَـــتْ مِـــنَ الْقَانِتِيـــنَ﴾،[1] فقـــد آثر النص فى الاختيار الصياغى لهـــذه الآيـــة جمـــع المذكـــر (قانتيـــن) علـــى جمع المؤنث، وربما يئول هذا الفعـــل الصـــياغى إلـــى أن القـــنوت صـــفة يصح أن تشمل الذكور والإناث، فأوثـــر المذكـــر علـــى المؤنـــث لشـــمول الأول مـــنهما الـــثانى علـــى سبيل التغليـــب. والاحـــتمال الـــثانى أن تكـــون (من) ابتدائية ويكون المعنى: وكانت مـــن ســـلالة قـــوم قانتيـــن؛ التفاتاً إلى إنها من نسل هارون أخى موسى عليه السلام.[2]

وعلـــى هـــذا الـــنحو جـــاء تغليـــب المذكر على المؤنث فى قوله تعالى: ﴿يَـــا مَـــرْيَمُ اقْنُتِـــي لِـــرَبِّكِ وَاسْـــجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.[3] إن صيغة المذكـــر تضـــمن للـــنون الاســـتقرار فى منطقة الثقل السجعى، لكن العدول لا يخلـــو مـــن مقصـــد دلالـــى. فمن المحتمل أن يكون إيثار التذكير راجعاً إلى شـــمول جمـــع المذكـــر لجمـــع المؤنـــث علـــى سبيل التغليب. وثمة مخالفة أخـــرى فـــى هـــذه الآيـــة تنتمى إلى المستوى الدلالى، فإن تقديم السجود على الـــركوع يوحـــى بأنـــه إنمـــا حـــدث لـــرعاية الإيقاع، ويقدم المفسرون عدة

---

(١) التحريم: ١٢.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشرى، جـ٤، ص١١٩.

(٣) آل عمران: ٤٣.

احتمالات لهذا التقديم منها: أن يكون السجود كان مقدماً فى شريعتهم، أو يكون المراد بالركوع ركوع الركعة الثانية، أو يراد به الشكر، أو يكون المراد بالسجود الصلاة وحدها وبالركوع صلاة الجماعة.(١)

ومن العدول عن المطابقة الصرفية فى الجنس قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(٢) قيل فى تعليل تذكير رميم مع أنها تخبر عن المؤنث أربع علل:

الأولى: أن (الرميم) اسم لما بلى من العظام وليس بصفة، كالرمة وكالرفات، فهو من الجوامد فلا يجرى عليه التذكير والتأنيث اللذان يجريان على الصفة. وهذا التوجيه ضعيف لأن له فعلاً وهو (رم).(٣)

والثانية: أن (رميما) فعيل بمعنى المفعول لا بمعنى الفاعل، من رمّ المتعدى بمعنى أبلى. قال الألوسى: "وإن كان – يريد (رميم) – من رم المتعدى بمعنى أبلى يقال: رمه، أى أبلاه، وأصل معناه الأكل – كما ذكره الأزهرى – من: رمت الإبل الحشيش، فكأن ما بلى أكلته الأرض، فهو فعيل بمعنى مفعول".(٤)

والثالثة: أن عظاماً بزنة المفرد كجدار، وجراب، وكتاب؛ ولذا عُومِلَ معاملته، فقيل: رميم، ولم يقل: رميمة وبه قال الأزهرى.(٥) ويلزم على قوله هذا أن يقال: جمال سريعٌ، و رماحٌ طويلٌ؛ لأن جمالاً، ورماحاً بزنة المفرد كجدار، فعومل معاملته. ولم يقل بهذا أحد من النحاة.

والرابعة: أن (عظاماً) جمع تكسير، وجمع التكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث؛ ولذا قيل هى، مراعاة لحكم التأنيث، و(رميم)؛ مراعاة لحكم

(١) انظر: البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، جـ٣، ص٢٤٥.

(٢) يس: ٧٨.

(٣) انظر: تفسير أبى السعود، جـ٧، ص ١٨١.

(٤) روح المعانى، الألوسى، جـ٢٣، ص ٥٤.

(٥) انظر تهذيب اللغة، الأزهرى، جـ٤، ص ١٤٤.

التذكير.[1] ويلزم على هذا القول البعيد عن الصواب أن يقال بصحة قولنا مثلاً: أقبلت الجمال وهى نشيط، ونشيطة وهذا لم يقل بصحته أحد.

الخلاصة؛ بهذا يتضح أن العدول الصرفى عن المطابقة فى الجنس فى هذه الآيات ليس ضرورة اقتضاها حرص على الإيقاع السجعى، ولكنه أتى عن وجه من وجوه اللغة اتفق مع رعاية الإيقاع.

* * * *

ونعرض لظاهرة أسلوبية أخرى تتحقق بكثافة فى المستوى السياقى الصرفى مما يمكّن لحضور السجع القرآنى، هذه الظاهرة هى إيثار الاسمية على الفعلية، ومن أمثلتها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.[2] عدل النص عن مقتضى الظاهر فى هذه الآية فاستبدل الجملة الاسمية بالجملة الفعلية (وما آمنوا) للدلالة على نفى الإيمان عنهم بطريق غاية فى البلاغة من عدة وجوه:

أولاً: وجه الكناية، ذلك أن نفى اعتبارهم من المؤمنين لازم لعدم الإيمان، فقد نفى انخراطهم فى سلك المؤمنين وبذا نفى الإيمان بطريق أبلغ وآكد، ومثل ذلك قال رب العزة لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿إنك من الآمنين﴾ عدولاً عن صيغة الفعلية. وقال لإبليس: ﴿إنك من المنظرين﴾.

ثانياً: ومن وجوه البلاغة فى ذلك التركيب تقديم المسند إليه على الاسم المشتق، محققاً بذلك تأكيد نفى هذا الإيمان عنهم.

ثالثاً: يتأكد ثبوت نفى الإيمان من خلال دخول الباء الزائدة على خبر الجملة الاسمية (بمؤمنين).

رابعاً: وعلاوة على الأوجه البلاغية الملحوظة فى هذا التركيب فقد كان

---

(١) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، جـ٣، ص ٢١.

(٢) البقرة: ٨.

تدعيماً للبناء السجعى ليس فقط بإيثار صيغة الاسمية وإنما أيضاً بحذف متعلق الإيمان للعلم به، فالتعبير فى البنية العميقة هو: وما هم بمؤمنين بالله وباليوم الآخر، وفى الحذف دليل على نفى الإيمان المطلق، وهذا إضافة جديدة تبرز قيمة البنية السطحية الدالة فى هذه الآية.

* * * *

وفى هذا الإطار، يتوجه النص فى حركته الانتقائية إلى الأفعال المضارعة بدلاً من الأفعال الماضية، ومع مخاطبته للذات الجماعية يستقر حرف النون الذى سجل تردداً لافتاً بين أصوات السجع فى موقعه من ختام الآيات كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾.(١) تقدم هذه الآية أكثر من ملحظ بلاغى، فالعدول إلى صيغة المضارعة فيه إشارة إلى النية الحاضرة لديهم فى القتل، وباعتزامهم قتل سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- ولأنهم رضوا فعل سابقيهم الذين كذبوا الرسل وقتلوهم، فنسبت الآية القتل إليهم، وقد جاء تقديم التكذيب على القتل موافقاً لقاعدة الترتيب الدلالى.

* * * *

والظاهرة التالية التى تمثل وجوداً ملحوظاً على المستوى الصرفى، العدول عن المطابقة بين العدد والمعدود، وهذا وإن كان متفقاً مع الغرض الإيقاعى، فإن هناك أغراضاً أخرى تمثل أسباباً أساسية فى مخالفة الظاهر، نحاول كشفها، وسنورد فيما يلى بعض الآيات القرآنية بوصفها أمثلة لهذه الظاهرة الأسلوبية، فمن ذلك الاستغناء بالمفرد عن المثنى: كما فى قوله سبحانه: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.(٢)

---

(١) البقرة: ٨٧.

(٢) طه: ١١٧.

كـــان مقتضــــى الظاهـــر أن يقـــال: (فتشـــقيا) حيث سبق ورود الخطاب للاثنيـــن معـــاً فـــى الـــنهى عن الإخراج بوسوسة الشيطان. وقد اختص النص آدم بالشـــقاء الـــناتج عـــن الخـــروج مـــن الجـــنة دون حـــواء، ولعل التعبير القـــرآنى أراد أن يعقـــد مقارنـــة تـــبرز الاخـــتلاف الكبـــير بين حال آدم فى الجـــنة فـــى خطـــاب الله عـــز وجـــل له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾[1] وحاله بعد خروجه منها.

ومن مظاهر العدول عن المطابقة العددية أيضاً التعبير بالمفرد عن الجمع فـــى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًـــا﴾[2] والتعبير بالجمع عن المفرد فى مثل قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَـــنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ﴾[3] وقد يعبر بالمثنى عن المفرد كما فى قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾.[4] ومن وقوع الجمع موقع المثنى فى اللفظة المسجوعة قولـــه تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[5] ومما أوثر فيه جمع المذكر على المفرد المؤنث فى اللفظة المسجوعة قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[6]

* * * *

والخاصـــية الأســـلوبية الأخـــيرة الـــتى يقدمهـــا المستوى الصرفى هى إيـــثار المظهـــر علـــى المضـــمر. فمـــن قواعد العربية أن الدال إذا ورد فى موضـــع ثـــم امـــتد الحديـــث عـــنه بعـــد ذلك فالمناسب ربط الحديث بطريق الضـــمير العـــائد علـــى الـــدال المظهر، ولكن الملاحظ فى النص القرآنى أنه

---

(١) طه: ١١٨- ١١٩.

(٢) البقرة: ٧٤.

(٣) إبراهيم: ٣١.

(٤) الرحمن: ٤٦.

(٥) فصلت: ١١.

(٦) الشعراء: ٤.

يعيد -في بعض الأحيان- ذكر الاسم الظاهر مع إمكان الاستغناء بضميره عنه. ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1]، وحول السر الدلالي في وقوع الظاهر هنا موقع المضمر يقول الزمخشري: "أي عليهم وضعاً للظاهر موضع المضمر للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم".[2]

خلال هذا العرض المطول على امتداد الفصل لاحظ البحث كيفية احتضان السياق للفظة المسجوعة ثم إعادة إنتاج معناها مرّة أخرى، وقد انطلقت الباحثة من زاوية نظر تُعنى باكتشاف سبل النص القرآني التي هيّأت للسجع أن يستقر في موضعه من الصياغة، واستجلاء الغرض الدلالي الذي تحقق للنص من خلال ذلك الاستقراء، فجاءت هذه الزاوية بوصفها ضلعًا جديدًا مكمّلا لتحليل السجع القرآني -أسلوبيًا- واستخلاص سماته المميزة.

---

(١) البقرة: ٨٩.

(٢) الكشاف، الزمخشري، جـ١، ص ٨١.

الخاتمة

الخاتمة

يعد النص القرآنى أصلح النصوص لرصد ملامح التوظيف النموذجى لبنية السجع، الأمر الذى فتح أمام هذا البحث بوابة الدخول فى نقاش مع ملاحظات البلاغة وأحكام النقد. ولقد كان لكشوفات الرصد الأسلوبى واستبصارها الوصفى فاعليتها فى استجلاء التنفيذ الخاص للنص القرآنى فى استخدامه لهذه البنية البلاغية المنتجة للصوتية، وتوظيفها بما يخدم النص فى كل مستوياته، وجاء البحث ممارسة تعتمد الإحصاء بالقدر الذى يتيح للملاحظات التخلص من الانطباعيّة، ويعين من خلال استقراء الدلالات الإحصائية على إيضاح نتائج ربما اختفت وراء الحكم الذاتى المعتمد على الحدس.

ولقد توصل البحث إلى نتائج أذكر بعضها ليكون دليلا على بعضها الآخر غير المذكور إلا فى متن البحث؛ منها:

١- أن هناك مجموعة من الخلفيات التى وجهت الفكر البلاغى فى تحركه على مستوى رصد تقنيات السجع والشرح والتقعيد له، ومن هذه الخلفيات، تعريفه بالإحالة على القافية، وتعدد المفاهيم الخاصة به فى التراث العربى، فلكل من الأمرين فاعليته فى صياغة قواعد السجع وتحديد أنواعه.

٢- كشفت الدراسة عن نزعة شكلية تحكم التناول البلاغى لبنية السجع، ويدل على ذلك التقعيدات التى تؤخذ عن القدامى بالتقنين للسجع من جهة الطول والقصر وضبط الحدود المسموح بها لكل منهما.

٣- تغلغلت الدراسة إلى قلب قضية السجع والفواصل وقد أظهرت أن الباحثين فى قضية الإعجاز سلكوا فى تفريقهم بين السجع والفاصلة طرقا باعدت بينهم وبين إثارة القضية بشكل موضوعى.

٤- كشفت دراسة الوحدة السجعية باعتماد المعنى إجراءً تحليلياً للسجع القرآنى

عــن الحــد الأدنـــى والأقصى لعدد الآيات المشتركة فى وحدة سجعية قرآنية، وكانــت أكــثر الوحدات السجعية شيوعا فى النص القرآنى الوحدة المكونة من زوج مــن الآيــات، وبــدا أن سورة النجم تسجل أكبر وحدة سجعية فى القرآن الكــريم مكونــة مــن أربع وعشرين آية، هى بمثابة عائلة واحدة من التراكيب الســجعية، تنــتهى بصوت ختامى موحد كما تقوم حركة المعنى بوصفها علاقة تحتــية بالربط بين هذه التراكيب صانعة منها وحدة دلالية. ومن ثم يتكشف أن نظــام الوحــدة الســجعية القرآنية تجلى منفردًا بأسلوب خاص يتجاوز محاذير بلاغــية ظلــت قارة فى مؤلفات البلاغيين العرب، ومن بين هذه المحاذير: أن الوحدة السجعية ينبغى ألا تطول درءاً للملل.

٥- كشــفت الدراســة الأســلوبية الإحصــائية عن سيطرة البنى السجعية على مســاحة الأداء فــى الــنص القرآنى، فنسبة السجع إلى الترسُّل تساوى تقريبا ٤ : ١، وهــذا يشــى علــى المســتوى الأسلوبى بسيطرة الإيقاع التكرارى أو مــا يطلــق علــيه "المؤالفــة" علــى المخالفة، كما يؤكد تشديد النص القرآنى علــى شــكل الرســالة، فالبــنى الســجعية التى تنتج الصوتية من خلال توحد صــوت الــروى هــى القــاعدة بحيث لا يرد الترسُّل -غالبا- إلا عرضا بين آيــات كثــيرة مســجوعة. ويكــون لكل من السجع والترسُّل دوره الوظيفى فى النص على النحو الذى تكشف للبحث.

٦- أظهــرت الدراســة الأســلوبية عــددًا مــن التوازنات الصوتية المتصلة بالســجع القــرآنى، والــتى نتجــت عــن عمليات تكرار أو تراكم أو تشابه. مــن هــذه الــتوازنات، الحضــور اللافت للحروف الصامتة فى منطقة الثقل الســجعى، فقــد بلغــت نســبة ظهورها فى أواخر الفاصلة القرآنية ٦و٩٢%، بيــنما لــم تــتجاوز نسبة ظهور الحروف الصائتة (الألف، والياء) نحو ٤٢و ٧% وقــد أرجعــنا هــذه الكــثافة إلــى أمــور منها؛ ثراء العطاء المعجمى المنتهى بالصوامت، وأن الصوامت تمثل قوة ارتكاز إيقاعى.

٧- قادنــا البحــث إلــى ملاحظــة ثمانية حروف تتكرر فى نهايات الفواصل بوصــفها رويّــا، هــى علــى الترتيــب حسب درجة شيوعها: النون، الراء،

الميم، الألف، الدال، الباء، الياء، اللام، وهذه الحروف هى أشد الأصوات العربية وضوحًا فى السمع، وأكثرها إسهاما فى الإيقاع. وتتعدد طرق النص القرآنى فى إحداث توازنات صوتية، وهو يبنى معماره على نحو فائق من التنظيم المهيئ لخلق الإيقاع وتصعيده، فإذا لم يكن روىّ السجع موحدًا فى السورة بكاملها فإن النص يعمد فى تلوينه الإيقاعى إلى أصوات متقاربة فى مخارجها وصفاتها مما يمد بناء النص بطابع سمعى مميز كفلته له التوازنات المؤسسة على علاقة القربى الصوتية.

٨- كشفت الدراسة الأسلوبية عن موازرة "الالتزام" الصوتى للسجع، والالتزام يمثل نظامًا فى النص القرآنى. وقد دلّ على ذلك أن الآيات المسجوعة التى تخلّت عن الالتزام واعتنت بالجرس السجعى وحده لا تتجاوز نسبتها عن ٧٤و٨%، وقد بدا للبحث أن هناك نسقا أساسيا فى تكوين نظام الالتزام فى النص القرآنى، وذلك النسق يتمثل فى تكرار حرف مدٍّ أو لين يسبق مباشرة روى السجع.

٩- كشفت الدراسة عن أن السجع القرآنى جاء مغايرًا من حيث طول فقراته للسجع العربى، فالنص يتوخى فى طول العبارة المسجوعة أن يكون مناسبا لطول السورة وطبيعة المخاطبين، ويعد هذا مظهرًا من مظاهر الإعجاز فى القرآن الكريم. كما تثنى للبحث النظر فى القانون الذى يحكم هندسة المسافات فى النص القرآنى والمؤلفات العربية المسجوعة، وخرج من ذلك بأن للقرآن قانونه الخاص؛ إذ يعتمد على (مبدأ الوقت) لا مبدأ "النفَس" الذى تبدّى كعنصر تكوينى وضح فعله فى طول العبارات المسجوعة فى المقامات وأسجاع الجاهلية.

١٠- كما كشفت دراسة السجع القرآنى عن عدم مصداقية أحكام القيمة التى أطلقتها البلاغة العربية فيما يتصل بالطول الأمثل للعبارة المسجوعة وأطول الآيات داخل الوحدة، فمثلا وجدنا عدد الوحدات السجعية القرآنية التى جاءت متساوية الطول قليلة بشكل ملحوظ. الأمر

الذى يخالف حكمهم القيمى بأن السجع المتساوى الأطوال هو أحسن أنواع السجع منزلة.

١١- أظهرت متابعة العلاقات التكوينية الرابطة بين المفردات المسجوعة والتراكيب على المستويات: (النحوى، الصرفى، الدلالى) عددًا من الظواهر التى تهيئ لاستقرار الروى فى منطقة الثقل السجعى؛ فعلى المستوى النحوى بدا ميل النص إلى استخدام مركبات اسمية تقر فى ختام الآيات، تمثلت فى تراكيب وصفية وأخرى إضافية، وفى هذا إشارة إلى أن النص يستبطن الدلالة التأسيسية فى بنية تشكله اللغوى، حيث يضيف زائدًا دلاليا إلى الناتج، وتجلت بعض ظواهر العدول، مثل: التقديم، والتأخير، والحذف، وهى ظواهر هيّأت لاستقرار الفاصلة فى موضعها مؤدية الدورين: الإيقاعى والدلالى على خير وجه.

١٢- ومن الظواهر الأسلوبية النحوية التى تجلت ملازمة للسجع القرآنى سيطرة ديناميةالحدث على الدال المسجوع الذى تتعين داخله بنية السجع، فكثيراً ما اختتمت الآيات بجملة فعلية، كما أن معظم الجمل الاسمية الواقعة فى ختام الآية سواء أكانت منسوخة أو غير منسوخة جاء خبرها إما جملة أو اسماً مشتقاً. ولأن الخطاب الموجه فى النص القرآنى يخاطب الذات الجماعية لذلك كانت واو الجماعة أكثر اللواحق التى لحقت بالأفعال من حيث الحضور الكمى داخلة فى سياقها الذاتى، كما دخلت "الواو" فى السياق الذاتى للأسماء المشتقة بوصفها علامة محضة على الجمع، فيما كان السماح لوسائل تعبيرية -كالتقديم والتأخير والحذف- بإيتاء فعلها فى ختام الصياغة عاملاً أساسياً فى أن النون -التى تأتى عوضاً عن التنوين فى الأسماء المجموعة جمع السلامة والمثنّاة، وعوضاً عن حركة الإعراب فى الأفعال الخمسة- كانت أكثر الحروف تكراراً فى منطقة الثقل السجعى.

١٣- كشف البحث عن عدد من ظواهر الترخّص فى علاقة اللفظة المسجوعة بسياقها وتجلى ذلك على مستوى كل من العلاقات السياقية الدلالية، والعلاقات السياقية الصرفية.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الكتب السماوية:

القرآن الكريم.

ثانيا: المصادر والمراجع العربية

١- الإتقان فى علوم القرآن، جلال الدين السيوطى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مكتبة دار التراث، القاهرة، سنة ١٩٦٧.

٢- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجانى، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجى، مكتبة القاهرة، ط٣، ١٩٧٩م.

٣- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط٣، ١٩٦١.

٤- الأصول فى النحو، ابن السراج، أبو بكر محمد ابن السرى البغدادى، تحقيق: عبد الحسين الفتلى، النجف الأشرف، مطبعة النعمان، ١٩٧٣.

٥- الأضداد، أبو بكر بن الإنبارى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الكويت، ١٩٦٠.

٦- إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلانى، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجى، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١.

٧- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعى، دار الكتاب العربى، بيروت، د. ت.

٨- الأمالى، أبو على القالى، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.

٩- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدى، صححه وضبطه أحمد أمين، وأحمد الزينى، دار مكتبة الحياة، بيروت، جـ١، د. ت.

١٠- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، ناصر الدين أحمد ابن المنير، ضمن كتاب "الكشاف" للزمخشرى، دار عالم المعرفة، القاهرة، د. ت.

١١- الإيضاح فى علوم البلاغة، الخطيب القزوينى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ط٥، ١٩٨٣.

١٢- الإيقاع فى السجع العربى، محاولة تحليل وتحديد، محمود المسعدى، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٩٦.
١٣- بحـوث قرآنـية ولغويـة، الشيخ عبد الرحمن تاج، جمعها أبو بكر عبد الرازق، المكتب الثقافى للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٠.
١٤- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، ١٩٦٩.
١٥- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٩٨.
١٦- البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، بدر الدين محمد بن عبد الله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٥٧.
١٧-بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ع١٦٤، ١٩٩٢.
١٨- البلاغة العربية -قراءة أخرى، محمد عبد المطلب، لونجمان للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧.
١٩- بناء الأسلوب فى شعر الحداثة – التكوين البديعى، محمد عبد المطلب، القاهرة، ١٩٨٨.
٢٠- البـيان والتبيـين، الجـاحظ، تحقيق: حسن السندوبى، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
٢١- التبيان فى إعراب القرآن، العكبرى، أبو البقاء عبد بن الحسين بن عبد الله، مكتبة الدعوة، بالأزهر، د.ت.
٢٢- تحاليل أسلوبية، محمد الهادى الطرابلسى، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢.
٢٣- تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لجنة إحياء التراث الإسلامى، القاهرة، ١٩٦٣.
٢٤- التفسير البيانى للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن، سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية، ع ٢٥، دار المعارف، ط٧، ١٩٩٠.
٢٥- تفسير التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، د.ت. دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١١هـ، ١٩٩٠.

٢٦- تفسير أبى السعود إرشاد العقل السليم، إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، ط٢، ١٤١١هـ، ١٩٩٠.
٢٧- تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥.
٢٨- التفسير الكبير، فخر الدين الرازى، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
٢٩- تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهرى، تحقيق عبد السلام هارون وآخرين، القاهرة، ١٩٦٧م.
٣٠- الجانب الصوتى للوقف فى العربية ولهجاتها، أحمد طه حسنين سلطان، مطبعة الأمانة، ط١، ١٩٩١.
٣١- جواهر الأدب فى إنشاء وأدبيات لغة العرب، أحمد الهاشمى، بيروت، د. ت.
٣٢- جواهر الألفاظ، قدامة بن حعفر، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٣٢.
٣٣- الخصائص، ابن جنى، تحقيق: محمد على النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط٣، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦.
٣٤- دراسة بلاغية فى السجع والفاصلة القرآنية، عبد الجواد طبق، دار الأرقم للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣.
٣٥- دراسة الصوت اللغوى، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٧٦.
٣٦- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانى، ت: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨٤.
٣٧- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، محمود شكرى الألوسى البغدادى، مكتبة التراث، القاهرة.
٣٨- الزمن فى القرآن الكريم، دراسة دلالية للأفعال الواردة فيه، بكرى عبد الكريم، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٩٩٩.
٣٩- سر صناعة الإعراب، ابن جنى، تحقيق: مصطفى السقا، ومحمد الزفزاف وإبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، الناشر مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٩٥٤.
٤٠- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجى، تحقيق: على فودة، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤.

٤١- شروح التلخيص -ويتضمن: مختصر العلامة سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح للقزوينى، ومواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى، وعروس الأفراح لبهاء الدين السبكى، وبهامشه حاشية الدسوقى، دار الهادى، بيروت، ط٤، ١٩٩٢.
٤٢- الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتى، محمد الماكرى، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩١.
٤٣- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، أبى العباس أحمد القلقشندى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٢٨.
٤٤- الصحاح للجوهرى: تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر الجوهرى، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربى، القاهرة، ١٩٥٦.
٤٥- الصناعتين -الكتابة والشعر- أبو هلال العسكرى، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨١.
٤٦- الطراز "المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز"، يحى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوى، المقتطف، دار الكتب الخديوية، مصر، ١٣٣٢هـ-١٩١٤.
٤٧- عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكى، ضمن شروح التلخيص، دار الهادى، بيروت، ط٤، ١٩٩٢.
٤٨- العروض وإيقاع الشعر العربى، محاولة لإنتاج معرفة علمية، سيد البحراوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.
٤٩- العروض والقافية، دراسة فى التأسيس والاستدراك، محمد العلمى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٣.
٥٠- العروض والقافية دراسة ونقد، عبد الرحمن السيد، مطبعة قاصد خير، ط١، د.ت.
٥١- علم المعانى، كريمة محمود أبو زيد، مكتبة وهبة، القاهر، ط١، ١٩٨٨.
٥٢- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيروانى، القاهرة، ت: محمد محى الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٨١.
٥٣- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدى، ت: عبد الله درويش، مطبعة العانى، بغداد،١٣٨٦هـ، ١٩٦٧.

٥٤- غرائب القرآن ورغائب الفرقان على مصحف التهجد، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين النيسابورى، دار الصفوة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥.
٥٥- الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى، عيد محمد شبايك، مركز معالجة الوثائق، ط١، ١٩٩٣.
٥٦- فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط ٢١، ١٩٩٣.
٥٧- فى اللهجات العربية، إبراهيم أنيس، القاهرة ط٢، ١٩٥٢.
٥٨- القافية تاج الإيقاع الشعرى، أحمد كشك، القاهرة، ١٩٨٣.
٥٩- القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث، عبد الصابور شاهين، مكتبة الخانجى، القاهرة، د. ت.
٦٠- قضايا الأسلوب عند الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن، بركات رياض محمدى، رسالة ماجستير، عين شمس، كلية الآداب، ١٩٩٨.
٦١- الكتاب، سيبويه، ت: عبد السلام هارون، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩.
٦٢- كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوى، الداخس، دار صادر، بيروت، د. ت.
٦٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، الزمخشرى، دار عالم المعرفة، القاهرة، د.ت.
٦٤- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقى، دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٦.
٦٥- لسانيات الاختلاف، محمد فكرى الجزار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة كتابات نقدية، ع ٤٣، ١٩٩٥.
٦٦- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، د.ت.
٦٧- المثل الثائر فى أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥.
٦٨- المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة، على إسماعيل بن سيدة، تحقيق: مصطفى السقا، وحسين نصار، مكتبة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ط١، د. ت.

٦٩- مذكرة البلاغة، الشيخ حامد عونى، دار الكتاب العربى، مصر، د. ت.
٧٠- المزهر فى علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطى، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد أحمد جاد المولى وعلى محمد البجاوى، دار التراث، القاهرة، ط٣، د.ت.
٧١- المستدرك على الأجزاء السابع والثامن والتاسع من التهذيب، الأزهرى، ت: رشيد عبد الرحمن العبيدى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥.
٧٢- المصباح المنير، أبو العباس أحمد ابن محمد بن على الفيومى، طبعة وزارة المعارف، د. ت.
٧٣- المصباح فى علم المعانى والبيان والبديع، بدر الدين ابن مالك، المطبعة الخيرية، ١٣٤١هـ.
٧٤- معانى القرآن، الفراء، ت: محمد على النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦.
٧٥- مغنى اللبيب، ابن هشام، دار إحياء الكتب العلمية، فيصل، عيسى الباب الحلبى، ط٢، د. ت.
٧٦- مفتاح العلوم، السكاكى، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.
٧٧- المفردات فى غريب القرآن، الراغب الإصفهانى، ت: سيد كيلانى، مطبعة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٦١.
٧٨- مقامات الهمذانى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ١٩٢٤.
٧٩- مقاييس اللغة، لابن فارس اللغوى، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٨١.
٨٠- المقتصد فى شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجانى، تحقيق: كاظم بحر المرجان، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢.
٨١- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربى، دار ابن خالدون، د. ت.
٨٢- مقدمة اللزوميات، أبو العلاء المعرى، تحقيق: كامل الكيلانى، مصر، ط٢، ١٩٢٤.

٨٣- من الصوت إلى النص، مراد عبد الرحمن مبروك، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية، عدد ٥٠، ١٩٩٦.
٨٤- من قضايا اللغة مصطفى النحاس مطبوعات جامعة الكويت ط١، ١٩٩٥.
٨٥- منهاج البلغاء وسراج البلغاء، حازم القرطاجنى، تحقيق: محمد ابن الحبيب بن الخوجة، تونس، ١٩٦٦.
٨٦- من وظائف الصوت اللغوى، محاولة لفهم صرفى ونحوى ودلالى، أحمد كشك، القاهرة، ط١، ١٩٨٣.
٨٧- مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح، ابن يعقوب المغربى، ضمن شروح التلخيص، دار الهادى، بيروت، ط٤، ١٩٩٢.
٨٨- موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٩٧٢.
٨٩- موسيقى الشعر العربى، شكرى محمد عياد، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٨.
٩٠- نتائج الفكر فى النحو، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، دار الرياض للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤.
٩١- النحو المصفى، محمد عيد، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٩٢.
٩٢- النحو الوافى، عباس حسن دار المعارف، ط١١، ١٩٩٣.
٩٣- نسيج النص، ما يكون الملفوظ به نصا، الأزهر الزناد، المركز الثقافى العربى، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
٩٤- النشر فى القراءات العشر، ابن الجزرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، د. ت.
٩٥- النص الشعرى ومشكلات التفسير، عاطف جودة نصر، مكتبة الشباب، ١٩٨٩.
٩٦- نظام الارتباط والربط فى تركيب الجملة العربية، مصطفى حميدة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٧.
٩٧- نظرات فى تراثنا البلاغى، حسن طبل، دار الزهراء، ١٩٩٣.
٩٨- نظرية التبعية فى التحليل النحوى، سعيد حسن البحيرى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٨.

٩٩- النكت فى إعجاز القرآن، الرمانى، ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩١.

١٠٠- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، فخر الدين الرازى، تحقيق: إبراهيم السامرائى، ومحمد بركات حمدى، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٥.

ثالثا: المراجع المترجمة:

١- البلاغة والأسلوبية: نحو نموذج سيميائى لتحليل النص، هنرش بليث، ت: محمد العمرى، دراسات سال، ط١، ١٩٨٩.

٢- بناء لغة الشعر، جون كوين، ترجمة: أحمد درويش، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة كتابات نقدية، ع٣، ١٩٩٠.

٣- البنيوية وما بعدها، من ليفى شتراوس إلى درايدا وجون سترول، ترجمة: جابر عصفور، سلسلة عالم المعرفة، ع ٢٠٦، ١٩٩٦.

٤- التشكيل الصوتى فى اللغة العربية، سلمان العانى، ترجمة: ياسر الملاح، النادى الثقافى الأدبى بجدة، ط١، ١٩٨٣.

٥- التفكيكية النظرية والممارسة، كريستوفر نوريس، ترجمة: صبرى محمد حسن، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٩.

٦- الشعر والتجربة، أرشيبالد مكليش، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ع ١١، ١٩٩٦.

٧- الشعرية العربية، جمال الدين بن الشيخ، ترجمة: مبارك حنون ومحمد الوالى ومحمد أوراغ، دار توبقال، ط١، ١٩٩٦.

٨- الشفاهية والكتابية، والترج- أونج، ترجمة: حسن عز الدين، سلسلة عالم المعرفة، ع ١٨٢، الكويت، ١٩٩٤.

٩- علم الأصوات، برتيل مالمبرج، تعريف ودراسة: عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، ١٩٨٥.

١٠- علم اللغة والدراسات الأدبية، برند شبلنر، ترجمة: محمد جاد الرب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٨٧.

١١- نظرية تشومسكى اللغوية، جون ليونز، ت: حلمى خليل، دار المعرفة

الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥.
١٢- مدخل إلى الألسنية، بول فاجر وكريستيان بايلون، ت: طلال وهبة، المركز الثقافى العربى، ط١، ١٩٩٢.
١٣- نظرية جديدة فى العروض العربى، ستانسيلاس جويار، ترجمة: منجى الكعبى ومراجعة: عبد الحميد الدواخلى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦.
١٤- النقد النصى، جزيل فلانسى، ضمن كتاب: مدخل إلى مناهج النقد الأدبى، ترجمة: رضوان ظاظا، مراجعة: المنصف الشنوفى، سلسلة عالم المعرفة، ع ٢٢١، الكويت، ١٩٩٧.

رابعا: المجلات والدوريات

١- أول من سمى الفاصلة، محمد الحسناوى، مجلة مجمع اللغة العربية، ع٣١، القاهرة، ١٩٧٣.
٢- البديع فى تراثنا الشعرى، دراسة تحليلية، عاطف جودة نصر، مجلة فصول، مج ٤، ع٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.
٣- سجع أم فواصل؟ أحمد الحوفى، مجلة مجمع اللغة العربية، ع٢٧، القاهرة، ١٩٧١.
٤- السجع فى القرآن، بنيته وقواعده، ديفين ج. ستيوارت، ترجمة: محمد بربرى، مجلة فصول، مج ١٢، ع٣، ١٩٩٣.
٥- سجع القرآن فريد، أحمد الحوفى، مجلة مجمع اللغة العربية، ع٢٩، القاهرة، ١٩٧٢.
٦- السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك فى القرآن، الشيخ عبد الرحمن تاج، مجلة مجمع اللغة العربية، ع ٣٦، القاهرة، ١٩٧٥.
٧- الشعر وصفة الشعر فى التراث، حمادى صمود، مجلة فصول، تراثنا النقدى، مج ٦، ع١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥.
٨- علم الدلالة، جون لوينز، ت: مجيد الماشطة آخرين، كلية الآداب، البصرة، ١٩٨٠.

٩- على هدى الفواصل القرآنية، إبراهيم أنيس، مجلة مجمع اللغة العربية، البحوث والمحاضرات، القاهرة، ١٩٦٢.
١٠- مدخل إلى تحليل المقامات اللزومية للسرقسطى، محمد الهادى الطرابلسى، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع٢٨، ١٩٨٨.
١١- مدخل إلى اللغة واللسانيات، جون لوينز، ترجمة: حمزة بن قبلان المزينى، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، مج١٤، ١٤٠٧، ١٩٨٧.
١٢- مفاتيح النغم فى القرآن، نعيم اليافى، مجلة المنتدى، السنة الثامنة، ع ٩٣، دبى، ١٩٩١.
١٣- من صور الإعجاز الصوتى فى القرآن الكريم، محمد العبد، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج٩، ع ٣٦، ١٩٨٩.

المراجع الأجنبية:

1- Cohesion in English language, M. A. K. Halliday and Ruqaiya Hasan, fifth imprecision 1983. p. 142.

2- Language, context and text, M. A. K Halliday and Ruqaiya Hasan: Aspects of language in social- semiotic perspective. Oxford university press, Oxford. 1985. p.10.

3- Le Genre séance: « une introduction »; Abdelfatah Kilito، studia Islamica, 43 (1976), p 29.
Russian Formalism History, V. Erlch, Mouton & Co., poris the Houge. 1955. P. 194.

4- Modern Trends in Islam. Gibb, H. A. R: the uni. Of chicogo, 1975. p. 4.

جامعة عين شمس
كلية الآداب

ملخص رسالة ماجستير

الباحثة
هدى عطية عبد الغفار

إشراف

أ.د. محمد عبد المطلب   أ.د. عاطف جودة نصر

الموضوع

السجع القرآنى – دراسة أسلوبية

٢٠٠١

عنوان هذه الرسالة: السجع القرآنى – دراسة أسلوبية. وهو عنوان يحمل افتراضاً ضمنيّاً بأن السجع تجلى فى النص القرآنى على نحو خاص، وانطلاقا من ذلك الافتراض كان منحى التحليل أسلوبيّاً، يتتبّع السجع القرآنى فى بنية النص الكليّة بهدف استنباط خصائصه ولوازمه الأسلوبية على نحو ما تتجلّى فى النص.

فالبحث دراسة أسلوبية تطبيقيّة تفيد من جهود البلاغيين والنقاد القدامى، وتدخل معهم فى نقاش أساسه ما تتوصّل إليه من مستخلصات حول ظاهرة السجع فى النص القرآنى. وتستمد الدراسة من النتائج المعاصرة التى توصّل إليها علم اللغة عوناً لها، خاصة ما يتصل منها بالصوتيات، كما أنها تعتمد المنهج الإحصائى واحدًا من إجراءاتها التحليلية. والإحصاء يظفر بقيمة خاصة فى الدراسة الأسلوبية بالرغم من الانتقادات التى تطعن فى جدواه؛ إذ يفيد فى تحديد معدّل تكرار الظاهرة ودرجة تكثيفها فى العمل، كما تتحدد من خلال الإحصاء الظواهر غير العاديّة بالنسبة لتوزيع العناصر الأسلوبية فى النص، مما قد يؤدى إلى طرح نتائج جماليّة مهمة، تتكشّف بينما يحاول الباحث أسكناه الدلالات الإحصائية.

وقد قامت هذه الدراسة على مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة. تناولت المقدّمة الأسباب التى لأجلها اخترت هذا المنهج فى بحث السجع القرآنى، كما عرضت لأهميّة موضوع البحث، والدراسات السابقة عليه.

ولأن السجع بنية بلاغية تم تأسيس مفهومها ومنظومة تقاليدها داخل التراث جاء الفصل الأول من الدراسة بوصفه تمهيدًا نظريّاً يحمل عنوان: "السجع فى التراث العربى"، يعرض لبنية السجع داخل سياقات نشأتها، راصدًا جملة من الآراء الخلافيّة المتعلّقة بالسجع: مفهومًا، وتقعيدًا، وممارسة.

وتنتقل الدراسة من التمهيد النظرى إلى البحث التطبيقى، ولتأخذ الممارسة الأسلوبية –فى الفصل الثانى– دورها فى استخلاص نتائج متعلقة بالسجع القرآنى: (كميّا، وصوتيّاً، وشكليّا)، حيث ترصد الدراسة ميل النص القرآنى إلى

استخدام بنية السجع، وأنماط الوحدات السجعية فى النص. وعلى مستوى "البناء الصوتى"، تتتبّع الظواهر الصوتية ذات التردد الواضح فى موضوع السجعة القرآنية، خاصة منطقة الثقل السجعى، والمهيئات الصوتية التى تسبقها، من التزام فونيمات ومقاطع بعينها، ومن استخدام حروف قريبة من حرف السجعة. والدراسة تهتم بالوظيفة الإيقاعية الناتجة من كل ذلك، كما تهتم برصد عناصر التناسق السجعى فى متن الآيات وعلاقتها بالسجع الختامى بوصفها جزءًا من فعل النص فى إحداث إيقاع صوتى صاعد، هذا وتعنى الدراسة بالرخص الصوتية من حذف وزيادة، تلك الرخص التى تظهر فى منطقة الثقل السجعى. وفى مستوى البناء الشكلى تتابع أطوال العبارات السجعية وطرق ورودها فى الوحدات طولاً وقصرًا. وفى سبيل إيضاح المنهج الأسلوبى فى ذروة تطبيقه، عمد البحث إلى الجداول الإحصائية لرصد وتتبّع تكرار اللوازم الأسلوبية فى السجع القرآنى فى كلا البناءين: الصوتى والشكلى.

أمّا الفصل الثالث فقد خصص لتناول السجع القرآنى فى علاقته بالسياق اللغوى، ويعنى بحث السجع فى سياقه اللغوى؛ دراسة العلاقات التكوينيّة الرابطة بين اللفظة المسجوعة والتركيب، وكيفيّة احتضان التركيب لها، ثم إعادة إنتاج معناها مرّة ثانية، وهو يُعنى بتتبّع الظواهر الأسلوبية التى مهّدت لاستقرار السجع فى منطقة الثقل السجعى، وذلك من خلال تحرّك على كافة مستويات الوصف اللغوى: المستوى النحوى، والدلالى، والصرفى.

وكانت الخاتمة وقفة أخيرة لرصد ما توصلت إليه الدراسة من نتائج؛ منها:

(١) كشف تناول بنية السجع فى التراث العربى عن مجموعة من الخلفيات التى وجهت الفكر البلاغى فى تحركه على مستوى التقعيد والشرح للسجع، ومن هذه الخلفيات، تعريفه بالإحالة على القافية، وتعدد المفاهيم الخاصة به فى التراث العربى، وقد كان لكل منهما أثر ظاهر فى بلورة قواعد السجع وتحديد أنواعه.

(٢) كشف البحث عن وجود نزعة شكليّة تحكم التحرّك البلاغى فى تناوله لبنية السجع، ويدل على ذلك التقعيدات التى تؤخذ عن البلاغيين القدماء بالتقنين

للسجع من جهة الميزان الصرفى، ثم من جهة الطول والقصر وضبط الحدود المسموح بها لكل منهما.

(٣) أظهرت الدراسة أن الباحثين فى قضية الإعجاز سلكوا فى تفريقهم بين السجع والفاصلة طرقاً باعدت بينهم وبين إثارة القضيّة بشكل موضوعى.

(٤) كشفت دراسة الوحدة السجعية باعتماد المعنى إجراءً تطبيقياً عن الحد الأدنى والأقصى لعدد الآيات المشتركة فى وحدة سجعية قرآنية، وكانت أكثر الوحدات السجعية شيوعا فى النص القرآنى الوحدة المكوّنة من زوج من الآيات، وبدا أن سورة النجم تسجل أكبر وحدة سجعية فى القرآن مكوّنة من أربع وعشرين آية، هى بمثابة عائلة واحدة من التراكيب السجعية، إذ تقوم حركة المعنى بوصفها علاقة تحتيّة بالربط بينها. ومن ثم يتكشف أن نظام الوحدة السجعية القرآنية تجلى منفردًا بأسلوب خاص يتجاوز محاذير بلاغية ظلت قادرة فى مؤلفات البلاغيين العرب، ومن بين هذه المحاذير: أن الوحدة السجعية ينبغى ألا تطول درءًا للملل.

(٥) كشفت الدراسة الأسلوبية الإحصائية عن سيطرة البنى السجعيّة على مساحة الأداء فى النص القرآنى، فنسبة السجع إلى الترسُّل تساوى تقريبا ٤: ١، وهذا يشى على المستوى الأسلوبى بسيطرة الإيقاعى التكرارى أو ما يطلق عليه "المؤالفة" على المخالفة، كما يؤكد تشديد النص القرآنى على شكل الرسالة، فالبنى السجعية هى القاعدة بحيث لا يرد الترسُّل -غالبا- إلا عرضًا بين آيات كثيرة مسجوعة.

(٦) أظهرت الدراسة الأسلوبية عددًا من التوازنات الصوتية المتصلة بالسجع القرآنى، والتى نتجت عن عمليات تكرار أو تراكم أو تشابه. من هذه التوازنات، الحضور اللافت للحروف الصامتة فى منطقة الثقل السجعى، فقد بلغت نسبة ظهورها فى أواخر الفاصلة القرآنية ٦و٩٢%، بينما لم تتجاوز نسبة ظهور الحروف الصائتة (الألف، والياء) نحو ٤٢و٧%، وقد أرجعنا هذه الكثافة إلى أمور منها؛ ثراء العطاء المعجمى المنتهى بالصوامت، وأن الصوامت تمثل قوة ارتكاز إيقاعى.

(٧) قادنا البحث إلى ملاحظة ثمانية حروف تتكرر فى نهايات الفواصل بوصفها رويًا، هى على الترتيب حسب درجة شيوعها: النون، الراء، الميم، الألف، الدال، الباء، الياء، اللام، وهذه الحروف هى أشد الأصوات العربية وضوحًا فى السمع، وأكثرها إسهامًا فى الإيقاع. وقد تعددت طرق النص القرآنى فى إحداث توازنات صوتية، وهو يبنى معماره على نحو فائق من التنظيم المهيأ لخلق الإيقاع وتصعيده، فإذا لم يكن روىّ السجع موحدًا فى السورة بكاملها فإن النص يعمد فى تلوينه الإيقاعى إلى أصوات متقاربة فى مخارجها وصفاتها مما يمد بناء النص بطابع سمعى مميز كفلته له التوازنات المؤسسة على علاقة القربى الصوتية.

(٨) كشفت الدراسة الأسلوبية عن مؤازرة "الالتزام" للسجع، والالتزام يمثل نظامًا فى النص القرآنى، وقد دلّ على ذلك أن الآيات المسجوعة التى تخلّت عن الالتزام واعتدّت بالجرس السجعى وحده لا تتجاوز نسبتها عن ٧٤و٨%، وقد بدا للبحث أن هناك نسقا أساسيا فى تكوين نظام الالتزام فى النص القرآنى، وذلك بتكرار حرف مدٍّ أو لين يسبق مباشرة روىّ السجع.

(٩) كشفت الدراسة عن أن السجع القرآنى جاء مغايرا من حيث طول فقراته للسجع العربى، فالنص يتوخى فى طول العبارة المسجوعة أن يكون مناسبًا لطول السورة وطبيعة المخاطبين، ويعد هذا مظهرًا من مظاهر الإعجاز فى القرآن الكريم.

(١٠) كما كشفت دراسة السجع القرآنى عن عدم مصداقية أحكام القيمة التى أطلقتها البلاغة العربية فيما يتصل بالطول الأمثل للعبارة المسجوعة وأطول الآيات داخل الوحدة، فمثلا، كانت الوحدات السجعية القرآنية التى جاءت متساوية الطول قليلة كميًا. الأمر الذى يخالف حكم البلاغيين القيمى بأن السجع المتساوى الأطوال هو أحسن أنواع السجع منزلة.

(١١) أظهرت متابعة العلاقات التكوينية الرابطة بين المفردات المسجوعة والتراكيب على المستويات: (النحوى، الصرفى، الدلالى) عددًا من الظواهر التى تهيئ لاستقرار الروىّ فى منطقة الثقل السجعى؛ فعلى المستوى النحوى بدا ميل النص إلى استخدام مركّبات اسمية تقرّ فى ختام الآيات، تمثلت فى تراكيب

وصفية وأخرى إضافية، وفى هذا إشارة إلى أن النص يستبطن الدلالة التأسيسية فى بنية تشكله اللغوى، حيث يضيف زائدًا دلاليًا إلى الناتج، وتجلت بعض ظواهر الترخص النحوى التى هيّأت لاستقرار الفاصلة فى موضعها مؤدية الدورين: الإيقاعى والدلالى على خير وجه.

مستخلص

البحث دراسة أسلوبية تطبيقيّة تفيد من جهود البلاغيين والنقاد القدامى، وتدخل معهم فى نقاش أساسه ما تتوصّل إليه من مستخلصات حول ظاهرة السجع فى النص القرآنى. وتستمد الدراسة من النتائج المعاصرة التى توصّل إليها علم اللغة عوناً لها، خاصة ما يتصل منها بالصوتيات، كما أنها تعتمد المنهج الإحصائى واحدًا من إجراءاتها التحليلية. والإحصاء يظفر بقيمة خاصة فى الدراسة الأسلوبية بالرغم من الانتقادات التى تطعن فى جدواه؛ إذ يفيد فى تحديد معدّل تكرار الظاهرة ودرجة تكثيفها فى العمل، كما تتحدد من خلال الإحصاء الظواهر غير العاديّة بالنسبة لتوزيع العناصر الأسلوبية فى النص، مما قد يؤدى إلى طرح نتائج جماليّة مهمة، تتكشّف بينما يحاول الباحث أسكناه الدلالات الإحصائية.

Ain shams university
Faculty of Arts
Arabic lang. and lit. dept

Summary
Master thesis

Presented by

Hoda Atia Abdul Ghaffar

Subervised
By

Prof: Mohammed Abdul Mottaleb
Prof. of criticism and rhetoric
Fac. Of arts - Ain shams university

Prof: Atef Guda Nasr
prof: of criticism and literature
fac.of arts -Ain shams university

The Quranic Saj' -A stylistic study.

"The Quranic Saj' - "A stylistic study."

The title of this study is: "The Quranic Saj `-A stylistic study". The title denotes an underlined hypothesis namely that rhymed prose emerges in a special way in the Quran. the method applied in this research is the academic one of stylistic analysis pointing towards the specific stylistic features of the Qunanic Saj'.

The research is an applied stylistic study which benefits from the efforts of pervious critics of rhetoric. The study also makes use of the modem science of linguistics, specially phonetics along with statistics.

This study falls into an introduction, three chapters and a conclusion. The introduction, lays out why I did decide to carry out such a method in this study, and it also speaks about why the study is important in relation to the literature.

The first chapter is entitled "Saj' in Arabic Heritage". It deals with the structure of rhymed prose in its origin and early beginnings. it records some of the controversial views concerning the concept, theory and practice of rhyme prose.

In the second chapter the study applies its stylistic analysis to the Quranic Saj' as for as its quantity, phonetic levels and from ane concerned. this reveals how the holy Quran tends to use Saj' and its different units. As for the phonetic level to studies the sounds with light vibration in Quranic. Saj', as well as its stresses, syllables, phonemes and phonetic environment. The study thus wants to point out the function of rhyme due to this rhymed prose as well as the harmony within the verses in relation to its ending rhyme the study is also intersected in

phonetic license allowing for deletion and addition, specially when there is a stress in syllables As for the form the study traces the longest rhymed sentences.

The third chapter traces the Quranic Saj' in relation to its linguistic context. the chapter traces the grammatical, semantic and morphological levels of rhymed prose in relation to its form and meaning The conclusion sums up the findings of the study as follows:

1) Arabic heritage has been discovered to be much involved in rhyme and consequently in rhymed prose with all its types.
2) Old rhetoricians tended to hold to formalistic attitude in their dealings with the morphological rules of rhymed prose.
3) The study has also showed how the researchers of the wondrous nature of the Quran distinguished between rhymed prose and the Quranic end rhyme excluding thereby many objective views on this issue.
4) The most popular Quranic Saj' is that between two verses. The "Nijm" surah includes the largest number of rhymed prose ranging to twenty for verse. This
goes beyond rhetorical precautions that rhyme should not exceed too much to avoid boredom.
5) The stylistic study revealed how the rhymed prose units permeate the performance of the Quranic text, as the rote of rhymed prose to prose is 4:1.
this shows the importance of the form the message m the Holy Quran. The from of prose only emerges in between a lot of rhymed prose.
6) The study has shown how consonants were much used in Quranic stresses with a 92.6 % percentage , whereas the vowels were only 7.42 %. this is justified

by the rich rhythm of the consonants.

7) Eight letters have been found to be repeated in the verse endings, namely Alnoon, Arraa, Almeem ,AIAlif. Aldal , Mlbaa , Alyaa , Allam. these letters are the most obvious in listening as well as rhythm. the Quranic text either uses the sane rhyme or at least semisimilar sounds giving a chance for and

making use of phonetic resemblance.

8) Commitment to a single rhyme system has been only broken by 8.74%.

9) The study also shows how the Quranic Saj' differs from Arabic rhymed prose in relation to its length. the Quranic text takes into consideration the length of

the rhymed sentence in parallislm to the length. of the surah and the nature of

the addressees. this is one of the features of the wondrous nature of the Quran.

10) The study of Quranic Saj' showed how it violated and discredited the ideal - length rules of Arabic rhetoric's we find, for example, that similar rhymes are very vase in the Quran

11) On the grammatical level, the text tends to use nominal units coning at the end of verses. other aspects have been found to be used suuch as fronting, inversion and deletion. these phenomena account for the ideal rhythmic and semantic levels of the text.

Summary

"The Quranic Saj' - "A stylistic study."

The research is an applied stylistic study which benefits from the efforts of pervious critics of rhetoric. The study also makes use of the modem science of linguistics, specially phonetics along with statistics.

This study falls into an introduction, three chapters and a conclusion. The introduction, lays out why I did decide to carry out such a method in this study, and it also speaks about why the study is important in relation to the literature.

The first chapter is entitled "Saj' in Arabic Heritage". In the second chapter the study applies its stylistic analysis to the Quranic Saj' as for as its quantity, phonetic levels and from ane concerned. The third chapter traces the Quranic Saj' in relation to its linguistic context. The conclusion sums up the findings of the study as follows.